



جامعة وهران 2

محمد بن أحمد

كلية العلوم الاجتماعية

قسم الفلسفة

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه LMD

تخصص الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة

مقولة موت الإنسان في الفكر البنيوي المعاصر من النسق
إلى ما بعد المنهج ميشال فوكو - أنموذجاً

إشراف الأستاذة الدكتورة:
أ.د/ درّاس شهرزاد

إعداد الطالبة:
ضرباني أمينة

تشكيلة اللجنة المقترحة للمناقشة

اسم ولقب الأستاذ	الرتبة	الصفة	مؤسسة الانتماء
عبد اللاوي عبد الله	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة وهران 2
درّاس شهرزاد	أستاذة التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة وهران 2
مقايز محمد	أستاذ محاضر-أ-	مناقشا	جامعة وهران 2
بلعاليا دومة ميلود	أستاذ التعليم العالي	مناقشا	جامعة الشلف
سرير أحمد	أستاذ محاضر-أ-	مناقشا	جامعة عين تموشنت

السنة الجامعية 2022/2021

شكر وتقدير

أحمد الله وأشكره، فإني ما كنت بالغا ما بلغت إلا بفضلته وعظيم كرمه.

أتوجه بجزيل الشكر إلى:

أستاذتي الفاضلة: أ.د. دراس شهرزاد، التي أشرفت على هذا العمل برحابة صدر وطيب خاطر، وعلى

ما قدمته لنا طيلة فترة الإعداد لهذا البحث.

لجنة المناقشة التي أخذت على عاتقها مهمة قراءة هذا البحث وتقييمه.

لكل من ساهم في هذا العمل من قريب أو بعيد.

إهداء

إلهي الذي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك، ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك

ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك، ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك يا أرحم الراحمين

نحمد الله تعالى الذي قدرنا على شرب جرعة ماء من هذا العلم الواسع، فالعلم لا يتم إلا بالعمل

فأهدي ثمرة جهدي التي طالما تمنيت إهدائها:

إلى من كلله الله بالهبة والوقار، إلى من علمني العطاء دون انتظار، إلى من أحمل اسمه بكل افتخار

أرجو من الله أن يطيل في عمرك، أبي الغالي

إلى ملاكي في الحياة، إلى معنى الحب إلى معنى الحنان والتفاني، إلى بسمة الحياة وسر الوجود

إلى من كان دعائها سر نجاحي وحنانها بلسم جراحي أسأل الله أن يطيل في عمرك أمي الحبيبة

إلى من جسّد العطاء والسند والأمل زوجي

إلى من سارو معي إلى درب النجاح أخواتي وإخواني

إلى أخواتي اللواتي لم تلدهن أمي... إلى من تحلو بالإخاء وتميزوا بالوفاء والعطاء إلى يبايع الصدق الصافي

إلى من سعدت وبرفتهم في دروب الحياة الحلوة والحزينة سرت

إلى من كانوا معي على طريق النجاح والخير صديقاتي

إلى كل هؤلاء أهديهم هذا العمل المتواضع سائلة الله العلي القدير أن ينفعنا به ويمدنا بتوفيقه.

مقدمة

لا نجانب الصواب، لو قلنا إن الإنسان هو أقدم مشكلة في تاريخ التفكير الفلسفي، وأنه هو ذلك الكائن الواعي والمريد، المتعالي والأخلاقي، هي هتافات ظهرت على الساحة الفكرية فترة الستينات من القرن الماضي إنها المدرسة البنيوية École Structurelle. بات عالم الإنسان يسوده الوهم والزيف، عالم غير حقيقي مهزوم القيم، تصدعت الفلسفات التقليدية والميتافيزيقية ودُمرت النزعة الإنسانية Humanism، لوعدنا إلى النصف الثاني من القرن العشرين مما لا شك فيه سوف نلمس ملامح التقويض والتفكيك والنقد، لأن غالبية الأبحاث والدراسات تتشابه حول إشكالية "النزعة الإنسانية"، فلا تخلو ندوة أو محفل علمي دون إثارة النقاشات والجدالات حول تلك النزعة ورغم رواج المدرسة الوجودية ونجاحها في تلك الفترة إلا أنها مضت واضمحت مع ظهور البنيوية، هذه الأخيرة التي تعد ثورة على المذهب الوجودي الإنساني الذي طالما عبّر عن قلق الاختيار الإنساني والحرية، إلا أنها بدأت تختفي وتزول معالمها، لتظهر على مسرح الفكر مفاهيم جديدة كالنسق والنظام والبنية واللاشعور، فشل مشروع الحداثة وانتهى المطاف بالفلاسفة التتويريين إلى أن فلسفتهم ما هي إلا وعود كاذبة ومزيفة، أصبحنا نعيش في عالم المقاربات والتأويلات والقطائع، لا وجود للحقيقة، بل إننا أصبحنا منفتحين على اللاحقيقة، صار الإنسان يعيش حالات الغربة والعبث والتمرد واللامعقول، إنها نزعة إنسانية أفرطت في إنسانيتها، على حد تعبير الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche، وقد حان موعد أفولها.

إلا أن البنيوية لم تكن الأولى في دعوتها إلى تقويض النزعة الإنسانية، وزعزت مركزيتها، فقد شهدت عدة صفعات أو إهانات. لطالما كانت الرحلة الفلسفية مشغولة بالتفسير والتحليل لظواهر العالم والطبيعة لتجعل من الإنسان سيذا عليها، إلا أنه وعلى هامش هذه المحاولات التي باءت بالفشل ظهرت فلسفات ترمي بالنظريات التقليدية عرض الحائط وإذا كانت النزعة الإنسانية الفلسفية هي وليدة الحقبة الحداثية والنهضوية التي

جعلت من الإنسان ضحية الأنا الأعلى والتي تبلورت مع ديكارت René Descartes إلى غاية جان بول سارتر Jean-Paul Sartre، فإنها سرعان ما زحزحت صورة تأليه الإنسان إلى صورة نفيه وإقصائه، فقد قدمت العلوم البنيوية والتفكيكية قالب تبديد لذلك الإنسان الذي فُذف به في عالم لم ينتجه ولم يساهم في فاعليته، لكن هذه الصفعات الموجهة للجوهر الإنساني لم تكن بوادرها مع المدرسة البنيوية والمابعد حدثية، فقد يرى مؤرخو الأفكار أن النزعة الإنسانية عاشت عدة انتكاسات ونكبات أولها؛ إهانة كوسمولوجية مع عالم الفلك كوبرنيك Nicolas Copernic من خلال إثباته أن الأرض ليست مركز الكون، فهي ضريبة قاضية لنظريات بطليموس وللكنيسة وللإنسان، أصبح هذا الأخير هو وكوكبه جزء ضئيل في مدار الشمس أما ثاني الإهانات قد كانت مع النظرية التطورية الدارونية، هذا ما نجده متجليا في كتاب "أصل الأنواع" للفيلسوف تشارلز داروين Charles Darwin حيث ارجع الإنسان إلى أصول حيوانية إنه سجين عالم يحكمه قانون الصراع من أجل البقاء أو بمعنى أدق قانون الغاب، أما الصفة الثالثة التي تعرضت إليها الصورة الإنسانية فقد كانت مع تحليلات سيغموند فرويد Sigmund Freud النفسية والتي جعلت من الإنسان سجين مكبوتاته ونوازعه ورغباته، حقيقته تكمن في المساحة اللاشعورية، اللاواعية. مع الفلسفة الارتياحية لم تعد أهمية الإنسان تكمن في كونه الكائن والعاقل بل هو الإنسان اللاواعي، حقيقته تكمن في احتياجاته ودوافعه الغرائزية، من هنا مُزق الكوجيطو الديكارتي والمتن الكانطي الذي كان يرى في الإنسان القدرة على إنتاج المعرفة وتأسيس مبادئ الأخلاق وتمتين سلم قيم الجمال. إلا أن هذا التصور اضمحل وحن زواله خاصة مع الماركسية، قدم كارل ماركس Karl Marx نظريته التقويمية لصورة الذات الإنسانية ليعطي بذلك الأولوية للمؤثرات الخارجية وتحطيم مقولات الفردية والاستقلالية الذاتية، لتأتي الشروط الاجتماعية والاقتصادية في المقام الأول فهي وحدها حسب رأي ماركس لها القدرة في تحديد وعي الإنسان ووجوده إنها البنية التحتية.

أضحى الإنسان في صورته الماركسية عبارة عن تشكيلة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وأن فكرة اغترابه ناتج عن عمله الذي يسلبه حياته ونشاطه الخلاق، لأنه يعيش في مجتمع لا تكون فيه العلاقات الإنسانية متساوية ومتماثلة بل علاقات السيد والخادم كان للفلاسفة الارتيابيين الدور الكبير في إعدام الإنسان، إن كل من "فرويد وماركس ونييتشه" ساهموا في تغيير خارطة الفلسفة عامة وتقويض النزعة الإنسانية خاصة.

تغيرت مهمة الفلسفة منذ اللحظة النيتشوية، أصبحت تدميرية تهديمية، لقد كانت ضربات مطرقة نيتشه صوب التصور التطابقي والماهوي للحقيقة، ولديانة المسيحية، وللنزعة الإنسانية، للفلسفة الكانطية فقد كان ينعت كانط Kant بالراعي البروتستانتى الذي أوجد الفلسفة الألمانية، أما أعنف ضرباته عندما أعلن عن "موت الإله"، إنها اللحظة الحاسمة والخطيرة في تاريخ الفلسفة، حطّم بذلك أوهام الفلسفات العقلانية وأكاذيب الديانة المسيحية وحتى اليهودية حسب رأي نيتشه "نحن نعيش في عالم الزيف والأضاليل"، إن قتل الإله عند نيتشه هو بمثابة تقويض كل القيم العليا منذ أيام سقراط فإذا كان سقراط مات من أجل ما هو مثالي فإنه يجب موت الإله من أجل ما هو إنساني.

تقودنا صرخة نيتشه وإعلانه لموت الإله ضرورة وحتما إلى موت الإنسان، ذلك الارتكاسي الخاضع والضعيف والحقير ليتنبأ الديناميت بميلاد الإنسان الخارق super man. على الطريقة نفسها يأتي الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو Michel Foucault مناهضا للنزعة الإنسانية في مجال الفلسفة والثقافة واللاشعور المعرفي.

قام ميشال فوكو بمساءلة الأشكال والضروب الخفية لبنية الحضارة الغربية، محدثا بذلك هزة على المستوى الفكري والثقافي من خلال الحفر في العقل التوحيدي والثبوتي، إن الثورة الأركيولوجية révolution archéologique التي أعلنها ميشال فوكو، كشفت لنا حقيقة الإنسان التي تكمن في مستقبله الغائب وفي الهامش واللامفكر فيه L'impensée

ذاب الفرد في المجتمع وأوشك على نهايته. كانت بدايات الفيلسوف مع المدرسة البنيوية وهذا ما نستشفه من خلال إصداراته ما بين 1961-1969 خاصة مع كتابه "الكلمات والأشياء" "les mots et les choses" والذي ترجم فيما بعد إلى الانجليزية تحت عنوان "the order of things" يحمل هذا المؤلف عنوان فرعي "اركيولوجيا العلوم الإنسانية" نظراً فيه الفيلسوف لعلاقة الكلمات بالأشياء داخل أطر بنيوية مغلقة، يمكننا القول بأن هذا الكتاب عبارة عن ملخص الرؤية الفلسفية للغة والمفهوم للغة والنسق والخطاب، إلا أن هذا الطرح الفلسفي لم يكن الأول في معالجة اللغة وهذا ما نجده في كتابيه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" "L'histoire de la folie à l'époque classique" و"ولادة العيادة" "Naissance de la Clinique" فهما عبارة عن مساءلة للغة الطبية والنفسية، هناك علاقة متشابكة بين اللغة النفسية والطبية والفلسفية وما تحمله كينونة اللغة من لغز الموت وحضورها هو بمثابة غياب الذات وزوال الإنسان.

يُعدّ ميشال فوكو حلقة وصل بين البنيوية وما بعدها، رغم انه كان يرفض أن يصنف ضمن التيار البنيوي، وهذا الرفض لا يعد موقفاً معادياً وإنما لأنه لا يعتبرها منهجاً في تحليلاتها ودراساته البحثية، بل إنها حسب رأيه عبارة عن وعي وقلق، ضف إلى ذلك أن فترة الستينات هي عهد البنيوية، وهيمنتها على ساحة الفكرية والثقافية الفرنسية، فلن يسلم مفكر أو باحث من إغراءاتها.

إن الدّارس لميشال فوكو يلاحظ أن مسيرته الفكرية شهدت عدّة نقلات، تراوحت بين الاركيولوجيا "Archéologie" والجينيولوجيا "Genéalogie" لما تحمله الطريقتين من تكامل، ليصبح التأويل والوصف عنصرين مكملين بعضهما البعض، إلا أن بعض المؤرخين يرون أن الاركيولوجيا تخص الممارسات الخطابية مقابل الجينيولوجيا التي تهتم بالممارسات غير الخطابية والتي نجدها في كتاباته الاخيرة ك"المراقبة والعقاب" " Surveiller et punir" و"تاريخ الجنسانية" " Histoire de la sexualité".

الإشكالية:

بناء على هذه الرؤية والتقديم للموضوع، تحدّدت إشكاليتنا على النحو الآتي:

إذا كان الإنسان الغربي قد أسس صرحه الحدائوي على مبدأ تقديس التقنية والافتتان بالعقل وتأليه الإنسان والانخراط في النزعة الإنسانية والانفصال عن الإله وصولاً إلى قتله سوف يدعو هذا المبدأ الانفصالي سواء كان مع "العقل أو الذات أو الإله" إلى انبثاق صروح فكرية تهدف إلى أن تجعل من علوم الإنسان ومواضيعه، دقيقة وصارمة تراوحت بين تنفيذ دور الذات والمتجلية في صورة التقويض الهايدغري للميتافيزيقا والدعوة إلى تجاوزها وفي النقد الانثروبولوجي مع كلود ليفي ستروس Claude Lévi-Strauss والتحليل النفسي مع جاك لا كان Jacques Lacan وإعادة القراءة الماركسية مع لوي التوسير Louis Althusser، ففيما تمثّلت ظنون ميشال فوكو، حينما تتبأ باختفاء الإنسان وزواله من المشهد العلمي والفلسفي؟ فأبي موت يقصده فيلسوفنا؟

وهل يعد هجران ميشال فوكو للبنوية وتجاوزها نتيجة لعدم تلائم مقاساتها ومشروعه الأركيولوجي؟ أم انه وجد ضالته الفلسفية مع الصرح الجينيولوجي النيتشوي، ليكشف عن المصير المجهول للإنسان؟ هل هو تحرر من طغيان المنهج وقيود النسق نحو إعادة صياغة لثقافة جديدة؟

على ضوء هذا الإشكالية نطرح بعض التساؤلات:

- فيما تتمثل الملامح الكبرى للتفكر الفلسفي الفوكوي؟
- ما مفهوم الأركيولوجيا وفيما تتمثل علاقتها بالمناهج الأخرى؟ وفيما يكمن شكل العلوم الإنسانية عند ميشال فوكو؟
- فيما تتمثل الانقطاعات الأبيستمولوجية عند ميشال فوكو؟

- ما مفهوم السلطة عند ميشال فوكو، وفيما تكمن علاقتها بالمعرفة والخطة التأديبية والجنس؟
- كيف كان حضور الفلسفة الاركيولوجية الفوكوية في الفكر العربي والغربي فيما بعد؟

أهمية الموضوع:

إن هذه الأطروحة حول "مقولة موت الإنسان في الفكر البنوي المعاصر، من النسق إلى ما بعد المنهج ميشال فوكو أنموذجاً" "The death of Man" in contemporary structural thought, from the system to beyond the method Michel Foucault as a model تأتي أهمية اشكاليته في أنها تستجمع الأدوات الاركيولوجية والجينية والانتولوجية، بحثاً عن المسوغات التي دفعت الفيلسوف ميشال فوكو إلى الانخراط في الحزب النيتشوي وهجران الحقل البنوي مستكملاً مشروعه النقدي الجامع بين استنطاق مظاهر الإكراه والقمع والسلب اليومية واستكشاف مواطن الصمت واللاشعور.

تكمن أهمية الموضوع كذلك في تقديم قراءة جديدة لبنية العقل الغربي وأقول النزعة الإنسانية، والتي يمكننا أن نقسمها إلى ثلاث مراحل أولها مرحلة التنفيذ جاءت مع (تاريخ الجنون، وميلاد العيادة) ثانيها مرحلة النعي وإعلان اختفاء الإنسان (الكلمات والأشياء) ثالثها مرحلة العودة والارتداد إلى الذات (تاريخ الجنسية)، في الأخير تكمن أهمية قضية "موت الإنسان" في كونها عبرت عن ذروة التمزق الإنساني في تلك الفترة، فقد أصبح إنسان ما بعد الحداثة هو مشروع إنسان جديد.

أسباب اختيار الموضوع:

إن من أهم الدوافع الأسباب التي دفعتنا إلى اختيار موضوع بحثنا: أولها: أسباب موضوعية شكلت النزعة الإنسانية الهم الفلسفي قديماً وحديثاً وإلى غاية يومنا والتي تراوحت قراءتها بين النقد والتقويض والتفكيك فارتأينا إلى اختيار النموذج

الفرنسي ميشال فوكو نظرا لاتسام كتاباته بالجددة والحيوية، إنها صفحات تلامس حياتنا اليومية والواقعية، كذلك اقتحام ميشال فوكو لمساحات حضرت وهمشت من خلال استعانتة بعلبه الأدوات "boite à outils" للحفر في أرشيف المؤسسات الصحية والسجون والمعتقلات ومقرات الشرطة أما عن الأسباب الذاتية فترجع مقاصدها إلى الرغبة في مواصلة البحث في بنية وفهم العقل الغربي ، بدايتها كانت مع مذكرة الماستر الموسومة بـ "جدلية الفن والحقيقة عند فريدريك نيتشه"، فقد كان اهم نموذج ذكرته من خلال حضور الفكر النيتشوي في الفلسفة المعاصرة هو "ميشال فوكو" والذي طمح إلى مواصلة المشروع الجينيالوجي النيتشوي والذي وجد فيه الفيلسوف الاركيولوجي ضالته، مستعينا بالأساليب التدميرية والتفجيرية والجريئة ليكمل بذلك المسائلة الارتيازية النيتشوية، كما صرح في احدى مؤلفاته "أنا نيتشوي بامتياز."

المنهج:

قد توسلنا بجملة من الإجراءات المنهجية التي تراوحت بين أدوات المقاربة التحليلية والنقدية والمقارنة.

مثلا استخدمنا آليات المقارنة في الفصل الأول في المبحث الثاني لتبيان الفرق بين المنهج الاركيولوجي والمناهج الأخرى، كتحليل الأفكار والمنهج الجينيالوجي أما عن أدوات المنهج التحليلي فكانت مرافقة على مدار البحث وعن المنهج النقدي فاستعنا به في المبحث الثالث من الفصل الثالث والذي قمنا فيه برصد بعض القراءات الغربية والعربية لفلسفة ميشال فوكو.

الدراسات السابقة:

بناءً على ما سبق بيانه، كانت الحاجة للبحث عن إشكالية "موت الإنسان في الفكر البنيوي المعاصر من النسق إلى ما بعد المنهج ميشال فوكو أنموذجا" إلى دراسات سابقة والتي بدورها قد أعطتنا أفكار جديدة، كما أنها نبهتنا إلى العديد من التساؤلات فأضفت

معلومات مهمة ومفيدة ساعدتنا في هيكلة عملنا ومن الأجدر أن نستهل هذه الدراسات بالبحوث الأكاديمية من الأقدم إلى الأحدث.

أولها: كتاب "موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر (هيدغر، ليفي ستروس، م فوكو) للأستاذ عبد الرزاق الدواي والمختص في الفلسفة المعاصرة بكلية الآداب الرباط بالمغرب، حيث أثار هذا المؤلف إشكالية النزعة الإنسانية في الفلسفة المعاصرة من خلال تحليل مظاهرها وملابساتها، قام بتقديم ابرز نماذج فلسفية معاصرة، كان لها الموقف المعادي و المقوض لدور الذات وللنزعة الهيومانية، بداية مع الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه والذي أشار إليه الدكتور الداوي انه ينتمي إلى الحقبة الحداثية إلا انه حتما وضروري الإشارة إليه لما تحمله فلسفته الثورية فهي تعد نقطة محورية في تاريخ التفكير الفلسفي، ثم انتقل إلى النقد الأنثروبولوجي البنيوي عند ليفي ستروس، أما ما يخصنا نحن هو الفصل الثالث من الكتاب والذي جاء تحت عنوان "نهاية النزعة الإنسانية عند ميشال فوكو" تكمن أهمية هذه الدراسة في أن ميزتها هي التحليل و الوضوح والتي يمكننا من خلالها استيعاب فلسفة موت الإنسان عند م . فوكو داخل مكونات الحقل الثقافي الغربي، أشار الأستاذ إلى نقطة مهمة وهي انتماء مشروع ميشال فوكو الى مناخ مهيم عليه ثقافة جديدة مناهضة لدور الذات والتاريخ ولللسفات الميتافيزيقية والطوباوية انها هيمنة مطلقة للغة واللاشعور، ثم توضح لنا ميزة الطرح الاركيولوجي النقدي للنزعة الإنسانية والفكر الجدلي والتي يكمن في استكشاف ابستيمي بنية العقل الغربي من خلال نشأة العلوم والمعارف والشروط المحكمة فيها عازلا إياها عن الحياة والبشر والتاريخ، ليوضح تلك الثوابت القبلية التي تتحكم في إنتاج المعارف.

ومن المهم أن نذكر رسالة دكتوراه للأستاذ ريس زاوي أستاذ بجامعة بلعباس الموسومة بـ"إشكالية موت الإنسان في خطاب العلوم الإنسانية لدى ميشال فوكو بكلية العلوم الاجتماعية قسم فلسفة والتي جاءت تحت إشراف أ. د مولفي محمد (2010)-

2011) رام الباحث فيها إلى استعادة المراجعات الفلسفية والابستمولوجية والاركيولوجية التي خاضها ميشال فوكو لبلورة إشكالية موت الإنسان من خلال تسليط الضوء على تاريخ المؤسسة موضحا بذلك فهم فوكو للعلوم الإنسانية من خلال مفهوم التبدل في الخطاب ومعرفة الذات بين المرئي واللامرئي، تخص هذه الرسالة دراسات في مقولة "موت الانسان" من خلال ظهوره في النسق والتحدث عن تلك الانقطاعات الاسبتمولوجية التي حدثت في بنية العقل الغربي، وتكمن كذلك أهمية الدراسة في الحديث عن الموت المؤسساتي والاجتماعي من خلال علاقات السلطة بالمعرفة والسلطة والجنس ومؤلفه الصادر سنة 2014 المعنون بـ"في فلسفة ميشال فوكو بين الانسان والحيوان خط رفيع" تدور محاور هذه الدراسة حول الإرتسامات التي جعلت من موت الإنسان وشيكا مع فوكو ابتداء من الستينات، حيث كان الإعلان عن موت الإنسان في سياق الدعوة إلى تهوير التراث الفلسفي الميتافيزيقي وما خلفه موت الإله من فراغ والذي تهابه العلوم الإنسانية، تراوحت فصول هذه الدراسة بين الجنون والكوجيطو من البحث عن الهوية والتي ساعدتنا على فهم النظرة الطبية الاركيولوجية وما تعلقها بتاريخ الجنون، أشار الكاتب إلى نقطة مهمة متمثلة في انهيار مسرح العلوم الإنسانية والسبب راجع إلى عجزها عن تحليل وفهم المرض والمريض، كما يتبدى لنا كتاب للدكتور الزواوي بغورة الموسوم بـ"الخطاب بحث في بنية وعلاقاته عند ميشال فوكو" دراسة ومعجم" الصادر سنة 2015 الذي قدم فيه مقارنة جديدة لموضوع الخطاب مستعينا بأدوات التحليل والنقد والمقارنة معالجا بذلك علاقات الخطاب سواء كانت مع اللغة او المعرفة او السلطة أو الأخلاق وهنا تكمن أهمية هذه الدراسة، حيث وضحت لنا الفرق بين الممارسات الخطابية والممارسات غير الخطابية من خلال تشخيص الحاضر، كذلك عملية الانتقال التي قام بها ميشال فوكو انطلاقا من اللغة سواء كانت معرفية نقدية أو طبية عقلية أو نفسية مرورا باستكشاف آليات المنع التي تمارسها السلطة وصولا إلى المرحلة الأخيرة المتمثلة في العودة إلى

الاهتمام بالفرد والانهمام بالذات، أشار الكاتب كذلك إلى نقطة مهمة من خلال جملة النتائج الأساسية التي توصل إليها والتي قسمها إلى ثلاث مستويات أولها مع اللغة فقد بين لنا غفلة الباحثين عن الاهتمام بالمستوى اللغوي رغم أهميتها إلا أنها احتلت مكانة منسية ومهمشة ارتبطت بميزة اللغة الفوكوية بشخصيته التي تصبو نحو الاختراق والتدمير والتقويض، ثانيها مع مستوى الخطاب والذي حظي بمكانة مميزة في مشروع ميشال فوكو الفلسفي هذا ما جاء في كتابيه "اركيولوجيا المعرفة" و"نظام الخطاب" أما المستوى الثالث جاء مع العلاقات (علاقة المعرفة بالسلطة) (علاقة السلطة بالخطة الأدبية) (علاقة الجنس بالسلطة). وثمة دراسة أخرى جماعية، جديدة بالذكر نظرا لأهميتها وهي مجموعة من المقالات تمثلت في ملف موضوعي للمشروع الفلسفي عند ميشال فوكو قام بجمعه وتنسيقه الأستاذ "بن شرقي بن مزيان" نشرت في مجلة التدوين العدد 04 بتاريخ 2012، تكمن أهمية هذه الدراسة في الانفتاح نحو إشكالات جديدة..

تراوحت حقول هذه الدراسة الجماعية بين الاركيولوجيا وعلم الاجتماع والتاريخ والرسم والتمثل والسلطة من منظور الفيلسوف ميشال فوكو انقسم مؤلفوا هذا العمل الجماعي إلى ثلاث أقسام منهم من عاصروا م. فوكو مثل: ألان بروسا/ باتريس فروموران/ سيفيان دويد.

أما القسم الثاني فيحتوي باحثين ومفكرين من العالم العربي كما هو الحال مع بغوره زاوي عبد العزيز العيادي، مصطفى لعويصة عبد الله عبد اللاوي مختار برياح، ومن الباحثين الجزائريين أمثلة العربي ميلود، زهير مدوش، بلخير بو محراث، اولاجي واسيني، رايس زاوي.

أما عن أهمية هذه الدراسة تكمن في كونها أصبحت مرجعية أساسيا فتحت لنا الحوار مع مواضيع ميشال فوكو وساهمت وبشكل جلي في هيكله عملنا، مثلا مقال للدكتور: عبد اللاوي عبد الله الموسوم بـ "المشروع الاركيولوجي و الفلسفي عند ميشال

فوكو، الذي أشار فيه إلى علاقة وانتساب ميشال فوكو للبنىوية في بداية مساره الفكري والفلسفي موضحاً بذلك الارتسامات الأركيولوجية للعلوم ثم تحليله لجدلية السلطة والمعرفة مسلطاً الضوء على كيفية إعادة قراءة مفهوم السلطة التقليدي موضحاً آلياتها الخفية المجسدة في المؤسسة السياسية والاجتماعية والمدرسة مفنداً القول باحتكار الفكر السياسي لمفهوم السلطة كذلك نذكر مقال للدكتور زواوي بغورة المعنون بـ مكانة الأنطولوجيا التاريخية في الفلسفة الكانطية" ليقدم لنا المؤلف قراءة سلسلة لحضور كانط Kant في المتن الفلسفي الفوكوي موضحاً الملامح الفلسفية الكانطية التي مثلت مرحلة من مراحل مسيرته الفكرية والذي صنف بالكانطي الجديد كذلك مقال للأستاذ العربي ميلود الذي جاء تحت اسم "ميشال فوكو بين التاريخ والفلسفة" فيلسوف اللامألوف يقدم لنا قراءة لمغامرة ميشال فوكو الجينيولوجية المتراوحة بين الجنون والهامش والجسد وتقويض العلوم الإنسانية مفجراً بأساليب الديناميت الوحدات والمركزيات واستبدال علم الإنسان بعلم النسب.

خطة البحث:

من أجل معالجة هذه الإشكالية وما تتضمنه من تساؤلات فرعية، اعتمدنا على هيكلية هذا العمل المتفرع إلى ثلاث فصول:

تقرّد الفصل الأول الذي جاء تحت عنوان "الارتسامات الأركيولوجية وشكل العلوم الإنسانية عند ميشال فوكو" تطرقنا في المبحث الأول إلى "الأصول المرجعية التي كان لها الأثر في الأفق الفلسفي والثقافي عند ميشال فوكو"، تراوحت بين مدرسة الحوليات والفلسفة الارتيايية (ماركس، فريد، نيتشه) والابستمولوجيا القطائعية عند كل من (غ.باشلار، كانغليام) أما المبحث الثاني الموسوم "بالمنهج الأركيولوجي... مشروع الثقافة الجديدة" تحدثنا فيه عن مفهوم الأركيولوجيا وهدفها النقدي ثم خطواتها (أشكال التقرير، الاحتفاظ، الذاكرة، التنشيط)، فيما بعد مبادئها (الندرة، الخارجية، التراكم، القبلي التاريخي) ثم قواعد المنهج (التكوين، التحول) في الأخير انتقلنا إلى تبيان علاقات الأركيولوجيا

بالمناهج الأخرى (تاريخ الأفكار، التحليل اللغوي، الهيرمينوطيقا)، في المبحث الثالث تطرقنا إلى شكل العلوم الإنسانية عند ميشال فوكو والتي يبرز لنا فيها كيفية نشوء هذه العلوم وفيما تتحدد مجالاتها والسطوح الثلاث المتحركة فيها (اللغة، البيولوجيا، الاقتصاد) ثم أبرزنا موقفه من التحليل النفسي والاثنيولوجيا والتاريخ.

أما الفصل الثاني فقد اختص "بالفضاء الاستيمولوجي-البنوي عند ميشال فوكو" تحدثنا في المبحث الأول عن علاقة ميشال فوكو بالبنوية ومفهوم البنية والممارسة الخطابية وعناصر الخطاب وعلاقة المنطوق بكل من (اللغة، الإشارة، الجملة، فعل الكلام، القضية)، أما المبحث الثاني تطرقنا إلى الانقطاعات الاستيمولوجية لبنية العقل الغربي من خلال قراءة ميشال فوكو الحفرية لاستكشاف ابستيمي كل حقبة والتي قسمها إلى ثلاث، عصر النهضة والذي تحكمه مقولة التشابه والتماثل وله الرتبة أشكال (التوافق، المنافسة، القياس، التعاطف)، أما العصر الكلاسيكي فلغته كانت النظام والنموذج الرياضي الديكارتي وله قواعد عامة يركز عليها (نظرية الفعل، التمثيل، التعيين، الاشتقاق)، أما عن مبادئه فهي متمثلة في البنية والخاصية، أما العصر الحديث أبرزنا فيها كيفية قراءة فوكو لهذه الحقبة والتي يسميها عصر التاريخ والإنسان، أما المبحث الثالث فقد اختص بالنظرة النفسية والطبية العقلية في خطاب كل من الجنون والمرض عبر العصور الثلاث (النهضة، العصر الكلاسيكي، الحديث)، ثم نظرة فوكو للمستشفيات العربية.

أما الفصل الثالث فقد تفرّد بـ"الانعتاق من النسق والعودة إلى الذات" جاء في المبحث الأول والمعنون بـ"من اركيولوجيا العلوم الإنسانية إلى جينولوجيا السلطة" تحدثنا فيه عن الخلفية الفكرية والتاريخية في بلورة مفهوم السلطة عند ميشال فوكو ثم انتقلنا إلى تبيان جدلية السلطة بالمعرفة والآليات المتحركة فيها ثم ذكرنا علاقة السلطة بمظاهر الإكراه العقابي والرقابي عند ميشال فوكو موضحين مؤسسة الإنسان الانضباطي والمتمثلة

في (الجنذب الأحصنة، النفي والتهجير، التعويض بالغرائم المالية، القصاص) ذكرنا في هذا المطلب موقف فوكو من الخطة التأديبية ثم انتقلنا إلى علاقة السلطة بالجنس موضحين بصمات السلطة في تاريخ الجنسانية والتي قسمها ميشال فوكو إلى ثلاث أقسام اختصت كل مرحلة بتقنيات الموظفة لرقابة الجنسانية بالاعتراف والتفنين العيادي ومنهج التأويل، أما المبحث الثاني جاء تحت عنوان "العودة إلى الذات في شكلها الأخلاقي والجمالي" بعدما حدد فوكو مشكلة السلطة والمتمثلة في أبعادها الثلاث (المعرفة، الخطة التأديبية، الجنس) انتقل إلى البعد الثالث وهو عبارة عن دعوة إلى الاهتمام بالفرد الذي اندثر في المجتمع، تعد هذه مرحلة انتقالية بمثابة فن العيش أو صناعة الذات من خلال العودة إلى اليونان لإبراز القانون الأخلاقي والجمالي الذي كان يحكم تلك الحقبة، أما المبحث الثالث المعنون بـ "قراءات نقدية عربية وأخرى غربية" تطرقنا فيه إلى حضور الفلسفة الأركيولوجية - الجينيولوجية عند ميشال فوكو في الفكر العربي (محمد اركون، ادوارد سعيد، محمد عابد الجابري) أما الغربية نذكر منها (مايكل دفران، روجيه جارودي، جاك دريدا، جون بول سارتر). وفي الختام قمنا باستخلاص جملة من النتائج والتوصيات.

الصعوبات:

وقد صادفتنا بعض الصعوبات أثناء إعدادنا لهذا البحث، وليست كل الصعوبات هي عوائق، بل هناك منها ما يدعو إلى التحفيز والتحدي فهناك صعوبات اقترنت بتشعب الحقل المعرفي والفلسفي عند ميشال فوكو ما بين التاريخ وعلم النفس وعلم الإجرام والأدب والانتروبولوجيا ولكل موضوع له مفاهيمه ومصطلحاته وارتكازاته وأدواته فقد نجد مثلا تغير في الأسلوب اللغوي في كتاباته الأولى خاصة "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" و"الكلمات والأشياء" مقارنة بكتابه الأخيرة كالمراقبة والعقاب و"تاريخ الجنسانية" هذه الدراسات الأخيرة اتسمت بالسلاسة والوضوح والتبسيط

في الأخير لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الجميل للأستاذة المشرفة "دراس شهرزاد" على ما قدمته لي من توجيه علمي ومنهجي طيلة سنوات البحث، ثم أتوجه بالشكر إلى اللجنة العلمية.

ولا يسعنا إلا أن نقول والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

الفصل الأول:

الارتسامات الأركيولوجية وشكل العلوم

الإنسانية عند ميشال فوكو

المبحث الأول: الأصول المرجعية في الأفق الفلسفي الفوكوي

المبحث الثاني: المنهج الأركيولوجي مشروع الثقافة الجديدة

المبحث الثالث: شكل العلوم الإنسانية عند ميشال فوكو

المبحث الأول: الأصول المرجعية للفكر الفوكوي

ومما لا شك فيه أن الباحث في حيثيات الفكر الفوكوي، نجده ممتدا لفلسفات سابقة، رغم اقتحامه للمجالات الجديدة. وطرحه لموضوعات مميزة طالما همشت وقبرت. فقد حاولنا أن نلمس بعض ملامحه الفكرية من خلال الطرح الإشكالي: يعد فوكو عند البعض من المفكرين، متطرفا هذا لدفاعه عن الأقليات من المجتمع إلا أن هذا الأمر جعله الأكثر حضورا ومتابعة، خلف الفيلسوف مقارنة كونية لعدة مواضيع جديدة كالجنس والجنون وعلم النفس الإكلينيكي.

يبدو فوكو ماركسي، بنيوي حسب بعض القراءات، مقابل البعض الآخر الذي يرى فيه أنه بنيوي بلا بنيات، فوكو كغيره من المفكرين الباريسيين الذين تجذبهم المواضيع المعقدة والمختلفة والمتغيرة، مع فوكو لا يمكننا أن نكون في حقل واحد. نجده في ابستمولوجيا العلوم الإنسانية تارة، وتارة أخرى مع الدراسات الفيلولوجية والجينولوجية، ثم مع سوسيلوجيا العقاب، إنها ربما مصادر تمثل أو لا تمثل طبقات متنوعة عند الفيلسوف فوكو أو انه عضو دائما فيها. ففيما تتمثل الملامح الكبرى التي تعد تأصيلا مرجعيا للمفكر ميشال فوكو؟ وما مدى تأثير تلك الدراسات السابقة على الأفق الجديد الذي اقتحمه؟

1. فوكو ومدرسة الحوليات:

وصف العالم الشهير الأنثروبولوجي "د جورج دوميزيل"* ميشال فوكو بالفيلسوف متعدد الأفتعة والوجه، نجده تارة مع البنيوية، وتارة أخرى مع ما بعد البنيوية، ثم نجده في علم التاريخ والآثار، وفي الطب النفساني والمصحات والمستشفيات لا يمكننا الإمساك به. أعجب فوكو بكل ما هو ثوري، مغاير، مختلف وجديد هذا ما يوضح لنا ارتباطه الشديد وإعجابه "بمدرسة الحوليات**"، التي بدورها كانت تختص بمناهج الكتابة التاريخية الحديثة، «ظهرت سنة 1929، بتأسيس المجلة التاريخية، الاقتصادية، الاجتماعية التي قام بتأسيسها أستاذان شابان هما لوسيان فيفر ومارك بلوك، حيث قرّر الرجلان أن ينفخا في دراسة التاريخ روحا قوميا جديدا، بحيث ستأخذ الكتابة التاريخية أبعاد جديدة، سوسيولوجية ولسانية وجغرافية وديمغرافية وتحول التاريخ إلى دراسة كل ما له علاقة بالإنسان»¹.

جاءت مدرسة الحوليات كغيرها من علوم ومذاهب الحقبة المعاصرة، حاملة لواء التغيير، مستحدثة أساليب ومناهج وقراءات جديدة، كانت تهتم بالزمن الراهن والقضايا المعاصرة، المعاشة، كذلك الأوضاع الاجتماعية خاصة الإيديولوجيات الجديدة في تلك الفترة كالنازية والفاشية.

*: جورج دوميزيل هو الفيلولوجي والمؤرخ وعالم الاجتماع فرنسي واحدا ابرز الأكاديميين المعاصرين الذي احدث انتاجه الفكري طفرات بارزة في مجال فهم التاريخ القديم، خصوصا التاريخ الهند أوروبي فاتحا بذلك افاقا جديدة لدراسة ذهنية الانسان بناء على مقارباته التي مزجت بين الفيلولوجيا والتاريخ وعلم الاجتماع الديني استطاع اعادة الراهينة الى الميثولوجيا المقارنة بعد ان خيم عليها الركود نتيجة ابحاث فريدريك ماكس فولر (البنية الذهنية ونظرية الوظائف الثلاث عند جورج وميزيل، ياسين اليحاوي مجلة عمران العدد 2017/5/19).

** : مدرسة الحوليات: هي من أشهر المدارس الفرنسية، بلغ صيتها إلى و.م.أ، كانت تسعى إلى تجديد مناهج علم التاريخ، ومصطلحاته وأدواته أسست أول مرة في مدينة ستراسبورغ في العشرينات على يد مورفين أمثلة مارك بلوخ ولوسيان فيفر، ثم استمرت في التصاعد إلى عام 1980، دافعت وكسرت التاريخ التقليدي، الذي أعقل المنظور المادي والجغرافي والاجتماعي واهتم بحياة الملوك والعظماء.

¹: عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص 187.

ارتبط اسم فوكو بالرؤى الثورية التقدمية، كانت لغته التغيير، فلسفته القطائعية الانفصالية، جعلته شديد الإعجاب بهذا النوع من المدارس، وهذا ما نجده متجلياً في كتابه "حفريات المعرفة": «...حيث يعتمد فوكو بوضوح "التحليل التسلسلي الذي يتأسس على مفهوم الانفصالية وضبط القطائع والشروخ الدالة والتميز بين الطبقات الزمنية التي تناسب مستويات مختلفة من الواقع»¹.

تأثر فوكو بالتاريخ التصنيفي للأحداث، خاصة المؤرخ بروديل "F-Braudel" من خلال منهجه الأركيولوجي، لكون «الحياة وتاريخ العالم وكل التواريخ الخاصة تعرض لنا على شكل تصنيف الأحداث... فالقاسم المشترك بينه وبين الحوليات هو تحديد وتشكيل كل هذه الشبكة من المعارف التاريخية منها خاصة والقوانين التي تسيروها ووصف علاقتها ببعضها البعض»².

طمحت مدرسة الحوليات إلى الانفتاح على كل حقول المعرفة، مع إبقاء كل علم على خصوصياته. هذا ما ساعد فوكو بالإلمام بالمعارف السابقة وتحديد آلياتها للوصول إلى الحقيقة، حيث يصفه المؤرخ "بول فاين"³، الحدث الفكري الأكثر أهمية مع قرننا، إلا

¹: سيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة، دار المنتخب العربي، ط 1، بيروت، لبنان 1994، ص ص 76-77.
* فرنارد بروديل: (24 اغسطس 1902 - 27 نوفمبر 1985) مؤرخ فرنسي وزعيم من زعماء مدرسة أنال (بالانجليزية) في التاريخ ركزت دراساته على ثلاث مشاريع أسئلة تمثل كل منها عدة عقود من الدراسة المكثفة - البحر الابيض المتوسط (1923-1949) ومن ثم (1949-1966) الحضارة الرأسمالية (1955-1979) والهوية الفرنسية غير المكتملة (1970-1985) يعتبر اكبر مؤسسي مدرسة الفرنسية الجديدة لكتابة التاريخ (الحوليات).

²: زواوي بريس، الفضاء الإبيستيمولوجي للعلوم الإنسانية لدى فوكو: السلطة المقاومة والحقيقة، إشراف: أ.د. مولفي محمد، مشرف مساعد: ابن عمار سواريت، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، 2004-2005، ص 108.
* بول فاين، من مواليد عام 1930 في قرية صغيرة بجنوب فرنسا في كنف أسرة «متواضعة». جدّه كان مزارعاً يعمل في الأرض، ووالده كان موظفاً «صغيراً» في أحد البنوك. ومن الأشياء التي يرددّها «بول فاين» بكثير من الاعتزاز، أنه كان الفرد الأول من عائلته كلّها الذي حصل على شهادة الدراسة الثانوية.

أظهر خلال مسيرته الدراسية تفوقاً ملحوظاً دفع به إلى كبريات المدارس الثانوية الفرنسية، قبل أن يصبح عام 1951 أحد طلبة مدرسة المعلمين العليا ذات المكانة العلمية الرفيعة في التاريخ الفرنسي الثقافي، والتي تخرج فيها كبار مفكري وفلاسفة وأدباء فرنسا.

أنه يرفض قراءة فوكو بنيويا، «إن الحدث الأساسي لفوكو ليس الخطاب ولا البنية ولا القطيعة بل الندرة la rareté بالمعنى اللاتيني: أي أن الوقائع الإنسانية، نادرة لا تظهر، داخل اكتمال العقل، بل يحيط بها فراغ، وترتبط بوقائع أخرى قد لا يخمننا تفكيرنا فما هو كائن قد لا يقع، فالوقائع الإنسانية اعتباطية إنها ليست بديهية ولا شفافة وإن بدت كذلك»¹.

ارتبط مفهوم التاريخ التقليدي، بالسرد والتركيز على الشخصيات البطولية والملوك والعظماء، أما مع مدرسة الحوليات اتجه الاهتمام إلى الطبقة العاملة، الكادحة المهمشة، بالتالي وجد فوكو مناخه مع هذه المدرسة، كذلك انشغالها بالوثيقة والكشوفات الأثرية، من هنا أراد فوكو تجسيد هذا المنهاج الجديد على أرض الواقع من خلال تقربه للعلوم الإنسانية، «يرى بول فاين أن فوكو هو الفيلسوف الذي أحدث شرخا في التصورات للتاريخ ولعلوم الإنسان بتغييره وإضفاء سمات جديدة للفكر ولأطر المجتمع وتاريخه»².

أراد فوكو تقويض العقلانيات والاهتمام بالممارسات الفعلية هذا ما نجده متجسد في فلسفته التاريخية سواء في تاريخ الجنس والمصحات والسجون من هنا كانت العلاقة الوثيقة بين الرؤية الفلسفية والممارسة التاريخية. كانت الرؤية الفوكوية للتاريخ ليست سردا للأحداث وإنما وصفها وتصنيفها من خلال الجانب السوسيولوجي والسياسي وربطها بالتاريخ وبالممارسة الفعلية وتجسيدها اجتماعيا حيث أراد كغيره من مثقفي عصره إصلاح المجتمع وكشف حقيقته.

إن المنهج التصنيفي للأحداث هو الكفيل في نظر ميشال فوكو باحتواء المعرفة التاريخية حيث قدم قراءة جديدة لفلسفة التاريخ من خلال تفكيك أنساقه وانفتاحها على إشكالات جديدة. إلا أن فوكو تعرض إلى عدة انتقادات «فقد أثار جدلا واسعا في صفوف

¹: سيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، ص 78.

²: الرئيس الزواوي، الفضاء الاستيمولوجي للعلوم الإنسانية لدى ميشال فوكو، السلطة المقاومة والحقيقة، ص 111.

المؤرخين وقد هاجمه ليونار في مقالة لاذعة اتهمه فيها بجهد كثير من التفصيلات والوقائع المعروفة لدى المؤرخين كالإصلاحات القضائية في عهود الثورة والإمبراطورية. واتهمه كذلك بالميل إلى القفزات الكبرى وتجاوز دقائق الأمور¹ حتى أنه «كان البعض يعيب على منهجه من نقائص كونه اهتم بما هو ظاهري وتتاسى الجزئيات، لكن نقول أن فوكو لم يتتاسى عمدا هذه الجزئيات بل غفل عنها ونساها»².

إلا أن فاين يشيد بدراسة فوكو الجديدة للتاريخ التي تعود جذورها الفلسفية إلى نيته، من خلال تقويض العقلانيات واستخدام الثوابت، لأنه لا توجد حقائق في التاريخ ومعنى الحقيقة في العصر الكلاسيكي ليس نفسه في الحقبة المعاصرة، فمعرفةنا بالطب والجنس والسلطة وتشريع القوانين ليست أبدا تحمل حقائق بل تأويلات.

إن تاريخية فوكو بمثابة فلسفة جديدة للممارسة الوقائية، كتشف من خلالها مستوى جديد، حيث أن كل ممارسة تولد موضوعا مناسباً لها إن تشكيك فوكو في المواضيع الطبيعية ليس لإنكار وجود تلك المواضيع بل انه يذكرنا بأنه ليست هناك حقائق ثابتة وأزلية.

2. فوكو والفلسفة الارتياحية:

1.2. ماركس وثنائية الكثرة:

«افتتن ميشال فوكو بدراسة "ماركس"، هذا راجع لتأثره بأستاذه ألتوسير، أخذ فوكو يقرأ أعمال ماركس تحت تأثير ألتوسير إلى درجة إنخراطه في الحزب الشيوعي عام 1950، ثم تعلق "بهوسرل وهيدغر"»³.

¹ : سيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة، ص 77.

²: المرجع نفسه، ص 111.

³: محمد علي الكردي، وجوه وقضايا فلسفية (بيدرون بطاي، فوكو)، دار مطابع المستقبل، الإسكندرية، ط1، 1998، ص 52.

إن إنسان فوكو هو إنسان ماركس، من خلال ميلاده الحديث الذي لا يقل عن مائتي سنة، ظهرت الآفاق الجديدة لعلوم الإنسان، من خلال تفويض الرواسب التي خلفها الدين والميتافيزيقا والفلسفة الكلاسيكية.

هدف فوكو هو تصفية الفكر من الخضوع إلى التعالي وتحريره من كل نرجسية ومن دائرة الأصل المفقود.

إن نهاية الذات التي أعلن عنها فوكو في كتابه الضخم "الكلمات والأشياء" قد استحوذت اهتمام المثقفين في تلك الحقبة، بما فيهم التيار الماركسي، حتى وأنهم كانوا يصفون كتاب فوكو كمهدد للمتن الماركسي أمثلة فرانسوا وول روجيه جارودي، دومينيك لوكوخ. إن في تتبعنا للمرجعية الفوكاوية خاصة مع ماركس يمكننا أن نخصها في مرحلتين: الأولى مع الأركيولوجيا والثانية مع الجينيولوجيا.

اعتبر فوكو كل من ماركس، نيتشه، فرويد، روادا أعادوا تقنيات التأويل الجديد في القرن العشرين، ذلك الشرح الذي حدث في تاريخ الفكر، هو بمثابة طفرة إبستيمولوجية، إنها هيرمينوطيقا جديدة، كشف لنا فوكو من خلال قراءته لكتاب الرأسمال عن ماركس النيتشوي، بعدما كان التأويل مجرد توضيح، صار صراعا، يقول فوكو: «نرى ذلك عند ماركس الذي لا يؤول تاريخ علاقات الإنتاج ولكنه يؤول علاقة تقدم نفسها سلفا كتأويل، بما أنها تقدم نفسها كطبيعة»¹.

يحاول فوكو من خلال مشروعه الطموح، أن يلم بابستيميات كل من عصر النهضة والحديث، إلى يومنا هذا، كل حقبة منفصلة عن غيرها فتاريخ الأفكار عنده قائم على القطيعة، بنى تلك الإيبستيميات انطلاقا من إشكالية اللغة والحياة والعمل في الممارسات الخطابية ما نخصه نحن هنا هو الجانب الاقتصادي، حيث يعتبر ماركس متمم لأعمال

¹ :Michel Foucault Nietzsche, Freud, Marx, dit et écrit (1954 1999) tome I, NRF Gallimard, Paris, 1994, P46.

ريكاردو من خلال "مقولة العمل"، قبل ذلك ادم سميث حيث شهد المجال الاقتصادي منعرجا جديدا يقول فوكو «... وإبتداءا من آدم سميث لم يعد زمان الاقتصاد زمانا دوريا، زمن الاقتصاد والاعتناء، لم يبق كذلك نموا خطيا لسياسات ذكية، يرفعها من عدد النقود الرائعة تزيد في عجلة الإنتاج بصورة أنجع، مما دفع لرفع الأسعار، بل سيغدو الزمن الداخلي لتنظيم ينمو تبعا لضرورته الخاصة ويتطور تبعا لقوانين ذاتية نوعية وهو زمن من الرأسمال ونظام الإنتاج»¹.

إن كل من مقولات "الحياة واللغة والعمل" بمثابة شروط لتشكل المعارف وضعها فوكو، كأنها على النحو الكانطي "شروط ترنسندنتالية" هي مقولات موحدة للظواهر كنظام واحد.

تسمح مقولة "العمل" عند ريكاردو، بربط حبل الوصل مع ماركس إلا أن هناك اختلاف بينهما في «تشاؤمية ريكاردو ووعد ماركس الثوري»². أصبح الاقتصاد علما قائما بمفهومي "الندرة والعمل" يوجه فوكو نقده للماركسية، حيث أنها نظرية صالحة لعصرها فقط يقول: «...لم تحدث الماركسية على المستوى العميق للمعرفة الغربية أي شق فعلي، بل استقرت بسهولة، كصورة كاملة، هادئة ومريحة وبالواقع، مرضية لعصرها (هو عصرها)... فالماركسية في فكر القرن التاسع عشر كالمسكة في الماء: أي أنها تتوقف عن التنفس في أي موضع آخر»³.

رغم الانتقادات التي وجهها فوكو للماركسية، قادت تلك السجلات التي ثارت عليه، والتي اندلعت مع نشر كتابه "الكلمات والأشياء" فقد قام بتعديلات، هذا ما نجده في مقابلة مع رايمون بيلور يقول: «وبالمقابل يمكن أن نفترض أن ماركس أدخل إلى وعي

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي وآخرون مركز الإنماء العربي، بيروت، لبنان، 1990، ص 196.

²: المصدر نفسه، ص 223.

³: المصدر نفسه، ص 224.

الناس التاريخي والسياسي قطيعة راديكالية وأن النظرة الماركسية حول المجتمع دشنت فعلا حقلا إبستمولوجيا جديدا كل الجدة، يحمل كتابي عنوانا فرعيا هو أركيولوجيا العلوم الإنسانية"، وحتى قبل التقدم كثيرا في هذا العمل، يبدو لي أن القطيعة الكبرى يجب أن تتموقع في فكر ماركس»¹.

تحدث فوكو في النص السابق عن إبستمولوجية جديدة مع ماركس هذا الأخير الذي سوف يسمح بيزوغ "المادية الجدلية"، الذي وعد التوسير بإتمامه، أحدث ماركس من خلال القراءة الفوكوية أثرا مضاعفا في الخطاب، هو مؤسس الممارسة الخطابية البرهانية وبعد تبجيل الماركسية للعامل الاقتصادي سيأتي التوسير ليحرب حظه بنقد النزعة الإنسانية.

يدعو فوكو إلى استعمال النقد الماركسي من أجل بناء نسق نظري يواكب العمل السياسي بدلا من الانتماء، والتناول الشمولي، يقول فوكو: «استشهد بماركس دون قراءته، دون وضع أقواله بين مزدوجتين وبما أنهم عاجزون عن التعرف على نصوص ماركس، فأنتني أصير في نظرهم ذلك الذي لا يستشهد بماركس»².

يستشهد فوكو من خلال كتابه "المراقبة والعقاب" خاصة في مقولتي: السلطة والمعرفة ليحدد من خلالها ثنائية الكثرة*. والرأسمال يقول: «إن التقنيات التي تجعل الكثرة التراكمية من الناس مفيدة، فإنها تسرع حركة تراكم رأسمال وعند المستوى الأقل عمومية،

¹ : Raymond Bellow le livres des aunâtes, édition de hermès, P 192.

² :M. Foucault, entretien sur la prison, le livre et sa méthode, Magazine littéraire, N° 101, Juin 1975.

* ثنائية الكثرة: إشارة إلى الجيش، الأمة، المدرسة، الأسرة... إلخ.

غدت التحولات التكنولوجية في الجهاز الإنتاجي وتقسيم العمل وإعداد وسائل انضباطه، مجملا من العلاقات المتلاحمة جدا»¹.

يعد الرأسمال بالنسبة إلى فوكو أحد المراجع الفكرية المهمة عنده، حيث استتبط الثروة والإنتاج والعمل وربطه بعلوم الإنسان وجعلها أحد الركائز الثلاث التي تعد بني وإبستيميات الفكر الغربي.

رغم تملّص فوكو من التيار الماركسي، فإذا ذهبنا إلى مفهوم التاريخ عند ماركس نجد انعكاسات وارتسامات ماركسية في الفكر الفوكوي، حيث أنّ مقولة التاريخ عنده تقوم على الصراع والممارسة خاصة مع أحداث 1968، كانت هذه الحقبة مشبعة بالروح الثورية والوعي والحرية يقول في هذا الصدد: «...كان قد قوبل بصمت كبير في اليسار الثقافي الفرنسي ولم تتل هذه المسائل دلالتها السياسية إلا حوالي 1968...»².

يدعو الفكر الماركسي إلى التحرر من الفكر الديني، الميتافيزيقي، واللاستمرارية في التاريخ، ذلك التاريخ القائم على الاتصال والتسلسل يقول فوكو: «إن التاريخ على العكس من ذلك، يمكن أن يفهم وينبغي أن يملك حتى أصغر تفاصيله، لكن تبعا لفهم الصراعات والاستراتيجيات والتكتيكات»³.

كانت الماركسية قبل مظاهرات 1968 عبارة عن تلك السمكة التي تخرج من الماء تلقى حتفها إلا أنه بعد تلك الأحداث أصبحت مركز ومبعث الوعي والثورة والتحرر وكسر التقليد والتبعية، كذلك إيمان فوكو بالقطائع التاريخية، وجد ضالته مع ماركس ونييتشه، فإنسان فوكو حديث الولادة هو إنسان ماركس، الذي فتح لأفق جديد في فضاء العلوم

¹: ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، ولادة السجن، تر: مطاع صفدي مركز الإنماء العربي بيروت لبنان، 1990، ص 226.

²: ميشال فوكو، نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، التنوير للطباعة والنشر، ط3، بيروت، لبنان 2012، ص 67.

³: المصدر نفسه، ص 70.

الإنسانية، لا يمكن أن ننسى الإشارة إلى أهم مقولة وهي مقولة "العمل" تلك الإستراتيجية الجديدة التي لم تحظى بها علوم الإنسان إلا مع العصر الحديث مع ريكارد وماركس في نفس الوقت في أحد السطوح الثلاث لإبستمية كل عصر.

2.2. فوكو وجينالوجيا السلطة:

قراءة في الأفق النيتشوي:

كان عام 1970 بمثابة الاختمار والاكتمال الفكري للفيلسوف ميشال فوكو، ذهب فيها إلى تعلم الألمانية، هذا ما أمكنه من الإطلاع على نصوص الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه F. Nietzsche، هذا راجع إلى اهتمام فوكو بقضايا السلطة والقوة والثورة وتقويض الميتافيزيقا، هذا المنعرج الفكري بمثابة انزياح فوكو من الأركيولوجيا* إلى الجينالوجيا** هنا نطرح تساؤلنا: فيما تتمثل الإرتسامات النيتشوية في الفكر الفوكوي؟

*: «الأركيولوجيا: مصطلح الأركيولوجيا يقابله باللغة العربية (علم الآثار) والمصطلح في الأصل يوناني يتألف من كلمتين هما: Archaïos وتعني القديم وlogos وتعني علم، ومعناها في حقلها الأصلي المتداول هي العلم الذي يدرس الماضي البشري أساسا وتحاول تغييره من خلال المعالم والشواهد و الآثار الحضارية المندثرة والتي يكشف الحفر عنها والتقيب وعادة ما يعتبر هذا العلم فرع من فروع التاريخ». (عبد الله عبد اللاوي، المشروع الفلسفي والأركيولوجي عند ميشال فوكو، مجلة التدوين، ديسمبر 2012، العدد 4، ص12).

** : الجينالوجيا: Généalogie يرتبط مفهوم جينالوجيا Généalogie في أصوله ب: شجرة الأصول، ويدل على دراسة سلسلة تدرج النسب الذي يصل الأعقاب بالآباء والأجداد؛ لكن هذا المفهوم لم يقتصر على تقصي تسلسل الأنساب، بل استعمل -أيضاً- في تعقب أنساب الآلهة وجينالوجيا الأفكار والقيم؛ ففي منظومته التيوغونية théogonie يتتبع هزيود Hesiode (في القرن الثامن عشر ق.م) نشوء الآلهة، ويبحث في تحدرهم وفي أصولهم وفصولهم وأنسابهم وأعقابهم، بصورة تتيح معرفة مراتبهم ومظاهر سلطتهم ونفوذهم على الأشياء؛ كما قام جان جاك روسو J.J. Rousseau. في دراسته لأصل التفاوت الاجتماعي بمقاربة جينالوجية، ترمي إلى تلمس أصول وفصول شقاء الأفراد وتفاوت رتبهم؛ وفي بحثه عن أصل الأنواع، قام شارلز داروين بمحاولة الإمساك بالخيوط الجينالوجي الذي يصل بين الأنواع، ويجعلها تنحدر من بعضها بعضاً، انطلاقاً من عضويات بسيطة، إلا أن الجينالوجيا لم تأخذ ملمحها الفلسفي الحقيقي إلا مع فريدريك نيتشه (1844-1900 م) F. Nietzsche حيث أصبحت عنده وصفاً للأحداث والعوارض التي أفضت إلى تشكل مراتب القيم وسلطتها المعيارية .

يصف نيتشه كتاباته ونصوصه بالقسوة والوعرة كشف عن شفرات ورموز وقضايا طالما ظلت ملتبسة حيث حرض على الرجوع إلى الأصل استهوته الكتابة الشفوية، يقول هنا واصفا كتاباته «من يعرف كيف يتنفس من الهواء الذي يملأ كتاباتي يدرك أنه هواء أعالي، هواء شديد قاس»¹.

يعتبر نيتشه من بين الفلاسفة الأقوى أثرا على الفكر الفوكوي، لأن نيتشه أول من طرح سؤال "من المتكلم"؟ من هذا الإنسان؟ بطرحه هذا أراد أن يقضي على الإنسان البسيط، العادي، الذي يرضخ لأوامر القطيع، بل ذهب إلى أعماق من ذلك وأعلن عن موت الإله يقول فوكو هنا: «الخطاب ليس الحياة: زمنه غير زمنكم وفيه لن تتصالحوا مع الموت، قد تكونون قد قتلتم الإله تحت ثقل كل ما قلتم ولكن لا تتصوروا، مع كل ما تقولون، أنكم ستخلقون إنسانا يعيش أطول مما عاش»².

إن نيتشه بالنسبة إلى فوكو هو المنفذ يقول «هو من أيقظنا من سباتنا الجدلي والأنثروبولوجي وليست مقولات "المأساوي" و"ديونيزوس"* و"مطرقة الفلسفة" و"الإنسان الأعلى" و"العود الأيدي" سوى أصوات جديدة للتحليل تعوض الأنساق الميتافيزيقية الأكثر عراقية، إنها المقولات التي ترسم خط فلسفة الاختراق والعدمية الذي تتبعه اليوم قمم الفكر الجديد أمثال "بطاي" و"بلانشو" و"كلوسوسكي"³ يعتبر نيتشه بالنسبة لفوكو محطة بارزة في تاريخ الفلسفة، بمثابة نقطة محورية في التفكير الفلسفي أعاد نيتشه صياغة أمثلة الفلسفة ورهاناتها إلى جانب فرويد وماركس حيث قلب هؤلاء الثلاثة نظام التأويل ذاته. يقول فوكو في حديث اجري له: «أنا ببساطة نيتشوي أحاول بقدر الإمكان أن أرى

¹: فريدريك نيتشه، هذا هو الإنسان، تر: على مصباح، منشورات الجمل، د.ط، د.س ص8.

²: جون ستروك، البنيوية وما بعدها، تر: محمد عصفور، مؤسسة السلسلة، د.ط، الكويت، 1990، ص117.

*: ديونيزوس Dionysos : هو إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنشوة، ومن أشهر رموز الميثولوجيا الإغريقية، وتم إلحاقه بالأوليمبيين الاثني عشر، أصوله غير محددة لليونانيين القدماء، إلا أنه يعتقد أنه من أصول آسيوية، كما هو حال الآلهة آنذاك. كان يعرف أيضا باسم باكوس أو باخوس.

³: سيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، ص70.

بخصوص عدد من النقاط بمساعدة نصوص نيتشه ولكن مع ذلك مع أطروحات مضادة نيتشه (وإن كانت مع ذلك تشويه) ماذا يمكن أن نعمل في هذا المجال أو ذاك لا أبحث عن أي شيء آخر ولكنني ابحث عن هذا بحق»¹.

كشف نيتشه بضربات المطرقة عن تلك الأفتنة التي طالما لبستها القيم السامية والضمير الخلقى، نبذ فوكو القضايا الكلاسيكية هذا ما جعله يفتن بنيتشه الذي قام بتحطيم الأوثان التي جمدت الفكر واستحوذت عليه، من ثم شكلت عوائق وأقحمت الفكر الغربى في عدمية مظلمة.

كان الدرس النيتشوي بالنسبة لفوكو مهم جدا، من خلال الكشف «عن الجذور المعيارية للمقولات العقلية والدوافع النفسية والحيوية للمنطلقات العقلية حتى أكثرها ايغالا في الصورية والتجريد»².

افتتن فوكو كذلك بمواضيع جد حساسة، اقترحها نيتشه كالحب، الشهوة، الوعي، الحرية، القيم، تاريخ العقوبة: «إن القارئ لكتابات فوكو سيدرك العلاقة الخاصة التي تربطه بالفيلسوف نيتشه إذ لا يشك إن البحث في جذور الأخلاق عند نيتشه يماثل إلى حد كبير تساؤلات فوكو عن أنساق المعرفة، فقد كان نيتشه يتعرض لمسألة قيمة القيم وأيضا للظروف الاجتماعية والأوساط الثقافية التي سمحت بتكوينها»³.

ندرك من النص السابق كل الطاقة المزعزعة التي استعملها فوكو من فلسفة نيتشه ومن أفكاره المدوية، كذلك قراءة "بطاي" لنيتشه أثرت بصورة حاسمة على مسار التفكير عند فوكو من خلال إلهامه بالتصور الجديد للغة وتقويض الذات والعمل على خلخلة

¹: سيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، ص 69.

²: المرجع نفسه، ص 71.

³: عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة، دار المعارف، مصر، د.ط، 1989، ص 16.

أنطولوجيا الهوية، إننا مع نيتشه أمام كينونة جديدة للغة، أمام مشروع تتدرج تحته فلسفة وأفق جديد، دشن فيها إستراتيجية مقوضة للميتافيزيقا.

حدّد فوكو هدفه من خلال فكرة "تحرير الإنسان من الشوائب الأنثربولوجية، فوجد ملاذه مع رواد الارتياب "ماركس، فرويد نيتشه" خصوصا مع نيتشه الذي واصل فوكو مشروعه الفلسفي، فكان وفيما لمساره الجينيالوجي.

كان إيثار فوكو للمنهج الجينيالوجي، هدفه البحث عن البدايات والإرتسامات الأولى للمعرفة، من خلال استنتاج ابستيمياتها باعتماده على الوثائق المادية والمعنوية، من خلال السطوح الثلاث: البيولوجيا، الاقتصاد، اللغة. يظهر هذا مع فقه اللغة بتأثير من نيتشه استعار فوكو هنا منهج التأويل في عمق المعرفة «...من نافل القول، ربما يكون نيتشه في دراساته للعلوم الجينيالوجية بالبحث عن كنه المعرفة، هو من الأسباب التي دفعت فوكو إلى استقراء المعرفة والعلوم في عصر معين بالاعتماد على المنهج الأركيولوجي كتاريخ للمعارف والعلوم، ابستيميا، تمفصليا ومن هذا يمتد المد النيتشوي تأثير في فكر فوكو في تأويله وبحثه عن أصل ومبادئ العلوم الإنسانية والحقيقة والنظر إليها بأنها علوم لم تتضح بعد»¹.

تعد المقولات النيتشوية الصاخبة، بمثابة تفسير وإحتفاء للتفكير الفوكوي إلا أننا لا نغفل على أن هناك محطات اختلاف بين هؤلاء القطبيين؛ «نيتشه يفهم ويفسر السلطة خارج عن الحقيقة، في حين نجد فوكو يفسرها بثنائية الربط (الحقيقة- السلطة)»².

إن بزوغ الإنسان الأعلى يستند إلى صوت الإله في نظر نيتشه، كان العدو اللدود للمسيحية ولرجال الكنيسة: «...وتظهر قوة التظليل المسيحي لغرائز الإنسان الأوروبي

¹: ريس زاوي، الفضاء الإبتيمولوجي للعلوم الإنسانية لدى فوكو، ص 99.

²: المرجع نفسه، ص 99.

كونها تدعو إلى قيم سائدة، فهي أعطت لغريزة الشفقة قيمة الفضيلة إنها تعطي للحياة نفسها مرأى كئيباً ونجاحاً مشكوك فيه»¹.

تجذرت العدمية وانغمست في طيات الثقافة الغربية، فتسربت في أشكال متعددة، كالأخلاق والفن والحقيقة والدين، فالمتدين ورجل الدين نفسه هو الفوضوي، المتطرف غايتها التخريب، يقول «بين المسيحي والفوضوي يمكن أن ترسم موازاة كاملة، وغايتها وغريزتها، ترمي فقط إلى التخريب»².

إن تلك الثقافة الجديدة التي سوف يتبناها فوكو هي المعارضة للفكر الجدلي والنزعة الإنسانية والتي بدأت مع نيتشه عندما أعلن عن موت الإله والذي بدوره سوف يعني بموت الإنسان وأقول عهده. جاء فوكو ليقنني خطوات نيتشه في سبيل تصفية النزعة الإنسانية من شوائبها صوب ذلك الإنسان الواعي، المالك هو مخلوق غريب حديث العهد، «إن ما يعلنه فكر نيتشه هو انفجار وتشظي صورة الإنسان... هو الاختفاء النهائي للإنسان»³.

كانت الإحالة قسرية لزمّن طويل وفي نهاية القرن التاسع عشر جعلها نيتشه تومض مرة أخرى بإحراقها، لقد تناول ثانية نهاية الأزمنة، ليجعل منها موت الإله، وتيهان آخر للبشر»⁴.

¹: بلعقروز عبد الرزاق، نيتشه ومهمة الفلسفة، الدار العربية للعلوم، ط1، 2010، ص 105.

²: نيتشه فريديريك، عدو المسيح، تر: ميخائيل جورج ديب، دار الحوار، ط2، دس، ص171.

³: عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر فوكو وآخرون، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1992، ص168.

⁴: فوكو ميشال، الكلمات والأشياء، ص 224.

3.2. فرويد ووهم الحضارة:

شهد التحليل النفسي طرفاً أساسياً في الفلسفة خاصة منها المعاصرة، مع تلك الهزة التي أحدثها سيغموند فرويد "S.Freud" * من خلال مشروعه العلمي النفسي قام هذا العالم بخلخلة التصور الأنثوري عن الذات، التي طالما تغنت بوعيها ومعرفتها ومركزيتها، بلور فرويد Freud تصور جديد في التحليل النفسي، إلا أنه صرّح في كتابه "مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي قائلًا: « لقد سنحت لي في عام 1909، للكلام لأول مرة أمام جمهور عام، من على منبر جامعي أمريكي، عن التحليل النفسي وقد صرحت يومئذ، إدراكاً مني لما يكن أن يكون لهذا الحدث من تأثير على الأهداف التي أنشد أنني لست أنا الذي أبتكر التحليل النفسي وأن هذا الفضل إنما يعود إلى جوزيف بروير "J.Breuer" ¹ دخلت الفلسفة المعاصرة في حوار واسع وممتد مع التحليل النفسي، مع التصور الجديد هو اللاشعور "inconscient"، حيث اعتبر مساحة الوعي ضيقة ومظلمة مقارنة مع رقعة اللاشعور، هي الحقيقة عند فرويد، إن مسكن الذات ومأواها هو اللاوعي. تأثر فرويد تأثيراً كبيراً بجوزيف بروير Josef Breuer * جرّاء تلك الصداقة التي ربطتهما، فقد كان بروير ملهمه، الذي اكتشف بدوره أثناء علاج الفتاة مصابة بالهستيريا، وعرضه لتلك القصة على صديقه فرويد، فأعجب بنجاح تلك الطريقة وهي "الإيحاء التنبؤي في معالجة المرض"، هنا كان إلهامه بالتحليل النفسي.

*: فرويد (مايو 1856): طبيب اعصاب نمساوي، اشتهر بتطوير نظريات التحليل النفسي وتقنياته والتي تشكل الأساس الذي تعتمد عليه معظم طرق علاج الأمراض النفسية طور علم التحليل النفسي وهو عبارة عن أسلوب يتبعه المحلل النفسي لاكتشاف الصراعات اللاشعورية.

¹: سيغموند فرويد، مسائلة في مزولة التحليل النفسي، تر: جورج طرابشي. دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1992 ص 46.

** : جوزيف بروير Josef Breuer (1842-1925): طبيب نمساوي وفيلسوف ومحلل نفسي وعالم وظائف الأعضاء، تعلم بجامعة فيينا في تخصص الطب، اشتهر في ثمانينيات القرن التاسع عشر بعمله على حالة أنا المرأة التي عانت من شلل في أطرافها، اشتغل مرشداً لسيغموند فرويد وساعد في صقله في مهنة الطب، صفحة عريق.

يقول الدكتور أحمد طريبق في مقال له "فرويد والفلسفة والعلوم الإنسانية" «أعتقد أن الإنجاز الذي حققه فرويد يعادل قيمته ثروة كوبرنيكوس فاكتشافه للتحليل النفسي خصوصاً مفهوم اللاشعور "inconscient" جعلنا نقتحم أكثر المناطق خطيرة وصعبة بالنسبة للفكر والمعرفة»¹.

إن فرويد جعل من التحليل النفسي مشروعاً الضخم. يمكن أن نلخص أهم منجزات التحليل النفسي الفرويدي في أربع نقاط متباينة أولها: «اللاشعور inconscient هو الذي يحدد أسباب السلوكات ويفسر معانيها ودواعيها. ثانيهما: التداعي الحر association libre حيث يفسح المجال للإنسان للتحدث دون قيود عند دواخله، ثالثها: الحلم rêve بوصفه تعبيراً عن الكبت ومادة للتأويل، رابعهما: التصرفات غير الإرادية les actes involontaires هي تلك الزلات سواء قلم أو نكت أو لسان»².

دفعت تلك الخصومات والمشاحنات والهجمات التي تلقاها فرويد مع اكتشافه الجديد إلى توسيع دائرة بحثه، من خلال دراسته الأشكال الأخرى من الأمراض النفسية العصابية بربطها مع الغريزة الجنسية حيث ربط كل الأمراض والعقد النفسية بمرحلة مهمة هي مرحلة الطفولة، يقول في كتابه "الكبت" التحليل النفسي «...إن كل العقد النفسية و بمعنى آخر كل الانحرافات الجنسية التي تظهر في حياة الإنسان مردها الطفولة»³.

تعد مرحلة الطفولة أصعب مرحلة في حياة الإنسان شبهها فرويد «بالعجينة التي تتأثر بما يحيط بها من نزاعات فإذا كانت عوامل البيئة والنشأة الطبيعية، نشأ الطفل ونضج كما تنشأ وتتضج الشجرة بين أحضان الطبيعة، مستقيمة العود، صلبة البنيان نامية مورقة، أما إذا لابس طفولته ظروف غير عادية انحنى عوده وعجز المستقبل عن

¹: أحمد طريبق، فرويد والفلسفة والعلوم الإنسانية، 23 مارس 2015، ص 02.

²: المرجع نفسه، ص 02.

³: سيغموند فرويد، الكبت تحليل نفسي، تر: علي السيد حضارة، المكتبة الشعبية، القاهرة، مصر، دس، ص 13.

تقويم ذلك الاعوجاج (...). فالشذوذ الجنسي والتهور العصبي والاضطرابات العاطفية والانحرافات النفسية مردها الطفولة»¹.

نطرح تساؤلاً هنا هل بالإمكان أن التحليل النفسي عند فرويد له وقع وأثر على اللامفكر فيه عند فوكو؟ هل نجد صدى فرويدي على تلك الفضاءات الفكرية والعلمية التي تأثر بها فوكو؟ «يضع فوكو كل من ماركس، نيتشه، فرويد في إطار واحد ذات أهمية واحدة التي ساهمت في تغيير المنظور والتصوير الإنساني، فقد جاءت مختلف العلوم من البيولوجيا والاقتصاد واللغة إلى العلوم الإنسانية للتأكيد على أهمية هذا الأمر الذي يقود إلى نسبية الإنسان وتناهيته وهذا ما قصده فوكو حينما تحدث عن موت الإنسان»².

عرض مشروع "المائدة المستديرة" على ميشال فوكو، حيث قبله وعنون مداخلته "تقنيات التأويل عند ماركس، نيتشه فرويد" يقول فوكو: «إذا كان تطور الفكر الغربي خلال القرنين السابع والثامن عشر قد ترك تقنيات التأويل التي عرفها القرن السادس عشر معلقة وإذا كان النقد الذي وجهه بيكون وديكارت للتشابه قد لعب دوراً كبيراً في وضع تلك التقنيات بين قوسين فإن القرن التاسع عشر وعلى الأخص ماركس نيتشه، فرويد قد طرحوا أمامنا إمكانية أخرى للتأويل أنهم أسسوا إمكانية قيام تأويل جديد»³.

عاشت الثقافة الغربية ثلاث تآزمت وجروح نرجسية مع الثورة الكوبرنيكية والاكتشاف الدارويني والتحليل النفسي الفرويدي، حيث تعرضت مركزية الإنسان إلى ثلاث إهانات من خلال سعيهم في تقويض نرجسية الإنسان وقتله. كان ميشال فوكو سباقاً في الكشف عن تلك الفلسفة الإرتيابية التي وجدها في كل من ماركس، فرويد

¹: أحمد طريبق، فرويد والفلسفة والعلوم الإنسانية، ص 13.

²: المرجع نفسه، ص 04.

³: ميشال فوكو، جينالوجيا المعرفة نيتشه، فرويد، ماركس، تر: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ص 301.

ونيتشه وهذا النص يلخص قصد قولنا «... وعلى كل حال وهذه هي النقطة التي سأقترح عليكم حولها بعض الأفكار يظهر لي أن ماركس ونيتشه وفرويد لم يضيفوا دلائل جديدة للعالم الغربي، انهم لم يضيفوا معنى جديدا على أشياء لم يكن لها معنى، وإنما غيروا في الحقيقة طبيعة الدليل وبدلوا الكيفية التي كان بإمكان الدليل أن يؤول بها»¹.

أراد فوكو من خلال طرحه هذا أن يوضح لنا تلك التغيرات التي أحدثها هؤلاء الإرتيابيين خاصة مع الدلائل والعلامات التي كانت في عهد قديم خاصة مع القرن السادس عشر تتصف بالتجانس «فدلائل الأرض كانت تحيل إلى السماء ولكنها كانت ترد في الوقت ذاته إلى عالم ما تحت الأرض إنها كانت تحيل من الإنسان إلى الحيوان ومن الحيوان إلى النبات والعكس»². أصبحت الدلائل والعلامات «مع القرن التاسع عشر تتدرج في مكان متفاوت الأجزاء وحسب بعد يمكننا أن نطلق عليه بعد الأعماق»³.

يحيلنا فوكو إلى التحليل النفسي الفرويدي نفس الإحالة إلى اللامفكر فيه *l'impensée*، يعني أن فوكو ربط اللاوعي بعلوم الإنسان لأن مساحة اللاشعور هي أهم التقنيات لفهم ذلك الكائن الغريب. يقول فوكو في كتابه "الكلمات والأشياء": «فإذا كان فرويد قرب أكثر من أي سواه معرفة الإنسان من نموذجها اللغوي إلا أنه أول من حاول أيضا أن يلغي جذريا التمييز بين الايجابي والسلبى (السوي والمرضى)»⁴.

كانت دراسات فرويد التحليلية حول العصاب *névrose* لكي يميز بين السوي واللاسوي (المرضى)، هنا أعطى ضربة أطاحت من سلطة الملجأ لأنه بتقنيته الذكية حددت العلاقة بين العقل واللاعقل، هذا الأمر نجده حاضرا في دراسات فوكو حول "تاريخ الجنون": «اعتبر بينال المجنون بأنه معزول عن الفقراء والمجرمين وهو ما كان مجسدا

¹: ميشال فوكو، جينالوجيا المعرفة نيتشه، فرويد، ماركس ، ص301.

²: المصدر نفسه، ص301.

³: المصدر نفسه، ص 303.

⁴: ميشال فوكو الكلمات والأشياء، ص 295.

وقائما خلال القرون الوسطى والقرنين السادس عشر والتاسع عشر وهكذا يكون بينال بهذا التفسير قد ألزم المجنون لسلطة التعذيب المعنوي وهو ما رفضه فرويد وفوكو من خلال فعل السلطة كتقنية وإستراتيجية محكمة لممارسة الفعل وليس قمع وجهاز هيمنة»¹.

خلق فرويد في التفكير الفوكوي اهتماما بالغا متمثل في البحث في الجنس وعلاقته بالسلطة والمعرفة، حيث لم يعد ذلك الإنسان منحصرًا في تلك الهوية المغلقة والمبهمة والمسدودة، أصبح موضوعا للمعرفة أي أنه أضحي دارسا ومدروسا انه لم يعد تلك الشخصية الرزينة والسوية، بل انه مجموعه من الرغبات والنزعات والشهوات.

«إن إعجاب فوكو بالتحليل النفسي وطريقته المجدية في المعالجة واستعارته لفعل الاعتراف والانكباب على الذات اكسب هذا المشروع الشرعية الطبية بل والسياسة كفعل تقني وسلطة، وبهذا يجد فوكو في طب الهستيريا والطب العقلي مأوى وملاذ لتحقيق إدارة محكمة من التقنيات»².

قدم كل من ماركس ونييتشه وفرويد إمكانية ضخمة في التأويل، لأن الفكر مع هؤلاء الفلاسفة الارتيابيين، قد غادر أرض الميتافيزيقا وأدخل الفهم مع المعنى لكي يتمكنوا من التأقلم والتعامل مع كل أنواع الهزات والمنعرجات والإلتواءات المتعلقة بالخطابات، لأن الإنسان في نظر فوكو هو صانع الموضوع وفي ذات الوقت هو الموضوع المراد درسه.

إن السمة الأخيرة للتأويل وحسب تعبير نييتشه، أنه لا توجد حقائق إنما هناك تأويلات مالا نهاية لها. حيث يتناول التأويل ذاته من جديد في حالة صيرورة دائمة ومبدأ التأويل لا المدلول كما عهدناه إنما هو الكائن المؤول.

¹: ماريكوز، فوكو، الانغلاق الكبير أو محادة الجنون، سترة عبد الرزاق الجيلاي، دراسات عربية، العدد 11، 12، 25 أكتوبر 1989، ص 101.

²: زواوي الرايس، الفضاء الإيستيمولوجي للعلوم الإنسانية لدى ميشال فوكو، ص 104.

أبرز فوكو الدور الحقيقي الذي لعبته الفلسفة الارتياحية على ساحة الفكر الفلسفي والنفسي والاقتصادي مقوضين بتلك التقنيات الجديدة العقل الأنواري والميراث الغربي التقليدي ومقولات المنطق والعقل، فلقد كان موت الإنسان صدى لصرخة نيتشه وإعلانه عن موت الإله الذي استطاع بدوره أن يجرد الواقع من قيمته ومعناه وحيويته ويقدمه بحلة جديدة.

3. فوكو انطولوجيا الحاضر:

كانط*:

كان لب الحداثة وفكر عصر الأنوار هو «استقلال الذات» من تسلط الكنيسة وكان أكبرهم الأنواريين أمثلة فولتير Voltaire ومونتيسكيو Montesquieu وجان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau وإيمانويل كانط Emmanuel Kant، هو تحقيق التقدم العلمي والاقتصادي وتعزيز القيم الأخلاقية ونشر كل مقومات الحرية والديمقراطية بمعزل عن أي وصاية حسب قول كانط: "إنه خروج الإنسان من وضع الحجر الذي هو نفسه مسؤول عنه وهذا الحجر يعني عجز الإنسان عن استعمال عقله دون وصاية غيره" «هو خروج الإنسان من حالة القصور»¹.

دافعت الحداثة على النزعة الإنسانية تلك الذات الواعية، العاقلة، العارفة والأخلاقية، المبدعة والفعالة والمسؤولة، كان عصر الأنوار مشعبا بالروح النقدية التي ترفض الوصاية والتبعية والتحجر، خاصة مع الفيلسوف الألماني كانط صاحب المذهب والنزع النقدي

*: كانط Kant (1724-1804): فيلسوف وعالم الماني برز في المجالات التالية (فيزياء فلكية، رياضيات، جغرافيا، علم الانسان) اعتبر عموما احد اكثر المفكرين المؤثرين في المجتمع الغربي والاوربي الحديث والفيلسوف الرئيسي الاخير لعصر التنوير، كان لكانط تأثير حاسم على الرومانسية والمثالية فلسفات القرن التاسع عشر، كما شكل عمله نقطة بداية لفلسفة القرن العشرين. اهم مؤلفاته: نقد العقل المحض، مشروع السلام الدائم، نقد العقل العملي.

¹: Emmanuel Kant, Qu'est les lumières ? in critique de la faculté du juger, Paris, Gallimard, 1985, P497.

يقول في مقدمة الطبعة الثانية من "نقد العقل الخالص": «إن النقد هو الإعداد الذي لا غنى عنه لتقدم الميتافيزيقا الميتة من حيث هي علم»¹.

كان مطلب الفلسفة الكانطية هو نقد المعرفة لأنه لا توجد معرفة أو علم صحيح يفترق للنسق، ذلك النظام الذي يضع مبادئ المعارف والحقائق القبلية. ارتبطت قضية الأنوار عند كانط بالعقل والحرية « حاولت الفلسفات الإجابة عن سؤال من نحن؟ كان كانط وفيخته وهيغل، نيتشه، ماكس فيبر، هوسرل، هيدغر، مدرسة فرانكفورت، هؤلاء جميعا حاولوا الإجابة عن هذا السؤال وانخرطي في هذا التوجه دفعني إلى البحث عن الإجابة بالعودة إلى تاريخ الفكر»².

اقترن سؤال "ما الأنوار" بالفيلسوف كانط يقول فوكو في هذا الصدد: «... لقد اعتبر هذا النص منذ مدة طويلة ولا زال نصا قاصرا mineur نسبيا لكنني لا يمكنني منع نفسي من اعتباره مدهشا وهاما في آن واحد، إذ لأول مرة يقترح فيلسوف كمهمة فلسفية لا تحليل نظام المعرفة العلمية وأسسها الميتافيزيقية فقط، بل تحليل حدث تاريخي حدث راهن عندما طرح كانط سؤال ما الأنوار؟ سنة 1784 فإنه أراد القول ما الذي يحدث في هذه اللحظة؟ ما الذي يحدث لنا؟ ما هو هذا العالم وهذه الحقبة وهذه اللحظة التي نعيش فيها؟»³.

إن الطرح الكانطي هو بمثابة أرض ومحطة فلسفيه جد مهمة "ما الأنوار؟" يدعونا هذا الصرح الفلسفي الكانطي الجديد، الى الخروج من رقعة التحجر والوصاية وكسر القيود وأقول الأصنام، انه بمثابة إبراز العلاقة بين العقل والسلطة أو بمعنى آخر بين الإرادة والسلطة من خلال استخدام العقل.

¹ : مراد وهبه، المذهب عند كانط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1974، ص 07.

² : Michel Foucault, Dits et écrit, éd établis sous la direction et François Ewals, Gallimard, Paris, 1981, P 814.

³ : مصطفى الحناوي، (فوكو والسياسة)، ط1، منشورات الاختلاف، 2003، ص 38.

يعتبر كانط الوجه الأبرز للحدثة الفلسفية بمختلف اشكالاتها ومبادئها، يبدأ أنه «جعل من النقد شعارا أساسيا فقد أبى الفلاسفة اللاحقون عليه إلا أن يكونوا أوفياء لها إما بتوسيع مفاهيمه أو تجاوزها»¹.

كان إعجاب فوكو بالفلسفة الكانطية من خلال طرح مشكلة الفلسفة وعلاقتها بالحاضر يقول فوكو: «موضوع الفلسفة ليس تأمل أبدي ولا تأمل التاريخ بل تشخيص صيرورتنا الآتية»². تعد محاولة كانط الفلسفية هي تلك السمة -حسب رأي فوكو- المميزة لعصر الأنوار. حيث يرى فوكو «أن الحاضر بالنسبة لكانط ليس عصرا من عصور العالم تنتمي إليه بل حدثا نستشق علاماته، إنه الحاضر كـمخرج»³.

عرفت الأنوار سؤال واستشكالا جديدا مع الطرح الكانطي، هو ربط الفلسفة بالآنية من خلال خروج الإنسان من قصوره وسباته الدوغمائي، إنه التفكير في الحاضر هذا ما يصبو إليه فوكو يقول: «إن الهدف الرئيسي اليوم للفلسفة دون شك لا يكمن في اكتشاف ما نحن عليه، بل رفضه، إذ يتوجب علينا تخيل وبناء ما يمكن أن نكونه من أجل التخلص من هذا النوع من الإكراه المزدوج: السياسي الذي هو الفردنة في المجتمع والتجميع المتزامنين لبنيات السلطة المعاصرة»⁴.

كان إلهام فوكو بكانط لدرجة اعتبره أول فيلسوف اقتحم الفلسفة الحديثة، ودخل تاريخ الفكر، بسؤاله ما الأنوار؟ الذي طُرح في عام 1784، وما زال حاضرا إلى الآن حسب رأي فوكو. إن التفكير الفلسفي الكانطي حاضر مع الفلسفة المعاصرة ومع استشكالاتها، وحده القادر على دخوله حقبة فلسفية جديدة لأنه طرح سؤال ما الأنوار؟

¹: سمير بلكيف (هابر ماس والارث الكانطي)، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، العدد 3، جامعة وهران2، قسم فلسفة سبتمبر2015، ص 2.

²: المرجع نفسه، ص 20.

³: مصطفى الحسناوي، (فوكو والسياسة)، ص 39.

⁴: فوكو ميشال، (ما الأنوار)، تر: حميد طاس، مجلة فكر ونقد، العدد 5، يناير 1998، ص140.

الذي سار عليه معظم الفلاسفة، إلا أن طريقته في الطرح مخالفة تماما، ليقدّم لنا إجابة مميزة يقول فوكو هنا: «... إن كانط يعرف الأنوار بطريقة تكاد تكون سلبية تماما يعرفه كـ «ausgang» "كخروج" "كمنقذ" (...). إن ذلك السؤال ما الأنوار؟ في هذا المقال يهتم بالوضع الراهن الخالص انه لا يسعى إلى فهم الحاضر انطلاقا من كلية ما أو اكتمال مستقبلي انه يبحث عن الاختلاف: ما هو الشيء المختلف الذي يضيفه الوضع الراهن بالمقارنة ما أتى به الأمس؟»¹.

كانت جرأة كانط وشجاعته الفلسفية وروحه النقدية، جد مهمة للإجابة عن السؤال الضخم ما الأنوار؟ يتميز ذلك الخروج من ذلك التحجر بين ما هو حدث وما هو مهمة. يحمل الإنسان المسؤولية عن حالة القصور الذي يعيشها. يجب على الإنسان أن يتعلم الشجاعة والجرأة في بحثه عن المعرفة هو ذلك الكائن الفعال، المختلف، المنتج يقول فوكو: « وبعودتي إلى نص كانط كنت أتساءل لماذا لا يمكن أن نعتبر الحداثة كموقف عوض اعتبارها حقبة من حقبة التاريخ وأعني بالموقف شكلا من العلاقة مع ما يحدث في الوضع الراهن واختيارا واعيا يقوم به البعض وأخيرا نمطا من التفكير والإحساس وطريقة في السلوك والإجابة التي تدل على انتماء معين وتظهر كمهمة يجب فعلها»².

وضع كانط - حسب فوكو - أساسين كبيرين للنقد هما الشروط الممكنة لإقامة معرفة حقبة، أما الأساس الثاني طرحه حول الحالة الراهنة والآنية، وهنا كان الهام فوكو وإعجابه بكانط وفلسفته النقدية، يقول فوكو: «إن الاختيار الفلسفي الذي يواجهنا الآن هو إما إمكانية تبني فلسفة نقدية تقدم نفسها كفلسفة تحليلية للحقيقة بصفة عامة، أو إمكانية تبني فلسفة نقدية تشكل انطولوجياتنا "انطولوجيا الحاضر" وهذا الشكل هو الذي أسس من هيجل ومدرسة فرانكفورت ونييتشه وماكس فيبر شكلا من التفكير حاولت أن اشتغل

¹: ميشال فوكو، (ما الأنوار)، مجلة الجابري، العدد 5، 15/ 11/ 2015، ص 09.

²: ميشال فوكو، (ما الانوار)، مجلة فكر ونقد، ص 03.

عليه¹ إن التتوير باعتباره تفكيراً في الراهن هو إيقاظ من سبات أنثروبولوجي لأن أجوبة القرن الثامن عشر هي نفسها أسئلة القرن العشرين، لكن الاختلاف في أن كانط بشر "بأننا سنكون أسيادا" أما فوكو قال: "لا اعتقد بأننا سنكون أسيادا فكثير من الأشياء في تجربتنا تقنعنا بان الحدث التاريخي للأنوار لم يجعل منا أسيادا". أراد فوكو أن يقدم نقداً آخر غير النقد الكانطي باعتباره من السباقين والنقاد الأوائل في القرن العشرين، نقداً جينياولوجي- أركيولوجي، ليس نقداً لكي يجعل الميتافيزيقا ممكنة، وإنما نقداً ليُجعل الذات كتشكل تاريخي ضمن في خطابات وابستيميات.

4. القطائع الابستيمولوجية في الأفق الفوكوي:

غاستون باشلار* وجورج كانغليام**:

يرتكز الإرث الباشلاري على فكرتين أساسيتين هما «مفهوم القطيعة الإبستمولوجية الذي يخترق كل المناهج البنيوية وتصور بنائي constructivisme للعلم: تتعلق به مقولات الإشكالية problématique وشبه انهيار المعقولة حيث تترك مكانها تصورا مجردا لمفهوم الممارسة العلمية»².

كانت تحتوي فلسفة باشلار Bachelard متمحورة في تقويض الفلسفة الديكارتية، التي تنص على أن كل الحقائق العلمية ثابتة وأولية هذا ما رفضه باشلار بشدة، من ثم عرفت

¹: ميشال فوكو، (ما الانوار)، ، مجلة فكر ونقد ، ص04.

*: غاستون باشلار Gaston Bachelard (1884-1962): فيلسوف فرنسي، احد العلامات البارزة في الفلسفة الفرنسية المعاصرة اثر في العديد من الفلاسفة الفرنسيين اللاحقين ومنهم ميشال فوكو، ولويا لتوسير ودومنيك لوكور، درس الفيزياء والكيمياء وأصبح فيلسوفا في وقت متأخر من حياته، ركز باشلار على ضرورة القيام بنوع من المراجعة النقدية لبعض المفاهيم التقليدية الموروثة من الفلسفة حول المعرفة اما الجزء الأخير من حياته فذهب موضوع اخر وهو عمل المخيلة والإبداع الشعري. موقع اراجيك 2018/07/03.

** : جورج كانغليام Georges Canguilhem (1904 - 1995) : هو فيلسوف وطبيب فرنسي متخصص

في نظرية المعرفة ، وفلسفة العلم وخاصة علم الأحياء.

²: سيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة عند ميشال فوكو، ص 74.

فلسفته بالفلسفة القطائعية أو الاستيمولوجيا الانفصالية، ينظر إلى باشلار كابستيمولوجي جعل من مفهومية القطيعة «ميكانزيم يحرك فلسفته في شقيها العقلاني والجمالي، ضمن رواد العقلانية المعاصرة لتطبيقه مفهوم العقلاني التطبيقية بعيدا عن العقلانية المتعالية».¹

إننا إذا اقتفينا آثار وأعمال باشلار ضرورة وإلزاما نذكر الفيلسوف كانغليام الذي بدوره يتزعم فلسفة القطيعة الاستيمولوجية واللاتسلسل العلمي، هو كذلك أراد أن يخلص الأستيمولوجيا من الوهم الديكارتي وأسطورة اليقين في العلوم من خلال تقويض كل عمل ميتافيزيقي - دوغمائي، لأنه مسؤول على وضع ذلك السقف الحديدي المتحجر.

«إن فوكو يقر بجلاء في نصوص عديدة بهذه الصلة الوثيقة وبالأخص بإشكالية تاريخ العلوم كما رسمها جورج كانغليام وقد اعترف بهذا الدين في قوله: إليه يعود الفضل (كانغليام) في فهمي، لأن تاريخ العلوم ليس خاضعا لضرورة الاختيار بين بديلين التدوين التاريخي المتسلسل للمكتشفات والإشكال والآراء التي تحيط بالعلم من حيث منشؤه غير المضبوط أو من حيث استطالاته الخارجية».²

يظهر الأمر جليا في تأثر فوكو بالفلسفة القطائعية عند جورج كانغليام كونه باحثا في تحليل الخطابات العلمية والعوائق التي يمكن أن تتعرض لها العلوم، من خلال الحفر والتقيب في خبايا المسارات العلمية، واستقهاطات الأفكار وتسلسلها تاريخيا. «اتخذ فوكو من الاستيمي مرجعا منهجيا في تحليلاته واستقصاءه للمعرفة، إلا أنه آثر الجانب الأركيولوجي كونه يقوم على نقد فكرة المعقولة نفسها واستقلاله بمواضيعه عن كل علم. إن الأركيولوجيا هي البحث في التكوين التاريخي للعلوم الإنسانية كمعارف والاستمرارية».³ بحث كانغليام في تاريخ العلوم من خلال اهتمامه بالبيولوجيا والطب

¹: بن زينب الشريف (غاستون باشلار وكوجيتو التعلم)، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، العدد 2، جامعة وهران 2، قسم فلسفة 2020/02/16، ص 55.

²: المرجع نفسه، ص 74.

³: زواوي الرايس، الفضاء الاستيمولوجي للعلوم الإنسانية لدى فوكو، ص 106.

والاقتصاد على عكس معاصريه، اهتموا بدراسة وتحليل تاريخ العلوم من خلال الفيزياء والكيمياء لأنها تتصف بالدقة والموضوعية، هنا يمكننا أن نرصد ملامح ونقاط التشابه متضحة المعالم بين اركيولوجيا العلوم عند فوكو وتاريخية المفاهيم الابستيمولوجية عند كانغليام.

يعترف فوكو بتأثره بأعمال كانغليام يقول: «إن الفكرة أتتني بدون شك مما كان أمام ناظري من أعمال مؤرخي العلوم وخاصة كانغليام فالإيه يعود الفضل في فهمي بتاريخ العلوم باعتباره ليس خاضعا لضرورة الاختيار والاستمرارية»¹.

وطئ فوكو حقلا جديدا من خلال الفطنة التي أتته من فلسفة كانغليام، الذي بدوره انطلق من البيولوجيا والفيزيولوجيا لدراسة العلوم، فتطور العلوم وسيرورتها مرتبط ارتباطا وثيقا بتمفصلاتها وانقطاعاتها، هذا ما ألهم فوكو من خلال دراسة ابستيمي كل عنصر وتحديد مقولات كل حقبة التي تقوم على اللااستمرارية الابستيمية. يفهم فوكو العلوم الإنسانية على أنها معارف تقوم على التحول والانفصال، ومنهج الأركيولوجي يقوم على أن الإنسان حديث العهد ضف إلى الفيلولوجيا والعمل والبيولوجيا، ورغم تأثره بالفلسفة القطنائية إلا أنه هناك اختلاف بين مبادئ الأركيولوجيا ومبادئ الابستيمولوجيا من تحليلهما للمعقولية لأن «الأركيولوجيا تعلن استقلالها إيزاء كل علم وتعمل على نقد فكرة المعقولية ذاتها فالتاريخ الأركيولوجي يقيم الاقتراقات المفهومية في مستوى المعرفة وبالتالي لا يعطي امتيازاً لسؤال الحقيقة المعياري بقدر ما يقيم نظاما زمنيا مرجعيا انطلاقا من المعقولية العلمية الحالية»².

¹: بغورة الزواوي، مفهوم الخطاب في فلسفة فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، ص 185.

²: سيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، ص 76.

المبحث الثاني: المنهج الأركيولوجي مشروع الثقافة الجديدة

ينصرف فوكو بمنهجه الأركيولوجي من النص الى المسكوت عنه، حيث يتم استنهاض المخفي والمستور، فكان لمصطلح الأركيولوجيا عنده أهمية خاصة من بين أهم المفاهيم والمصطلحات التي أبدعها، فما المقصود بأركيولوجيا؟ وما الذي تمارسه؟

« يرى الفيلسوف دومينك لكور (Dominique Lecourt) أن ميشال فوكو قد شرع في كتابة "أركيولوجيا المعرفة"، في شكل مقدمة لكتابه "الكلمات والأشياء" ولكن عندما عرضها على أستاذه جورج كانغيلام (Georges Canguilhem) وجان هيبوليت (Jean Hyppolite)، طالبا منه تأجيل نشرها، وذلك من أجل إثرائها وتطويرها، ومن ثم نشرها في صيغة كتاب منهجي مستقل وهو ما حصل بالفعل»¹.

ظهر مصطلح الأركيولوجيا أول مرة في كتاب " تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"، ثم جاء كعنوان فرعي في كتاب "مولد العيادة" الذي عنونه فوكو "أركيولوجيا النظرة الطبية"، أخذ كذلك عنواناً فرعياً في كتابه العملاق "الكلمات والأشياء"، موسوم بـ "أركيولوجيا العلوم الإنسانية".

يصرح فوكو في جريدة (Le monde) قائلاً: « لقد استعملت هذا اللفظ للدلالة على وصف الوثيقة « الأرشيف»، ولم أقصد به مطلقاً اكتشاف بداية أو الكشف عن العظام الرميمة»²، يُشتهر على أن الأركيولوجيا هي علم ومنهج يختص بدراسة الحضارات القديمة من خلال التنقيب في آثارها والبحث في أسرارها، استلهم فوكو هذا المنهج، فأراد استخدامه بمضمون مختلف ومغاير للمعنى التقليدي للأركيولوجيا، حيث نفهم من خلال تصريحه السابق، أن "وصف الوثيقة" هو ما أراد فوكو الوصول إليه، يقول في كتابه

¹: الزاوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، دراسة ومعجم، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 2015، ص 95.

²: المرجع نفسه، ص 96.

أركيولوجيا المعرفة" « بإمكاننا استنادا إلى قانون الألفاظ أن نطلق على تلك الأبحاث اسم أركيولوجيا. وهو لفظ لا يتضمن أي محاولة للجري وراء البدايات كما لا يقترن التحليل بأي تنقيب أو سبر جيولوجي، بل يدل على الفكرة الأساسية والمحورية العامة لوصف هدفه، استنتاج الما قبل Apriori في مستوى وجوده، وفي مستوى الوظيفة المنطوقية التي تمارس عليه والتشكيلة الخطابية التي ينسب إليها الأركيولوجيا تصف الخطابات بوصفها ممارسات محددة في عنصر الأرشيف»¹.

نتقدم من خلال نص فوكو السابق أن الأركيولوجيا لا تعني البدايات والاثار ولا تهتم بالجيولوجيا، بل يذهب فوكو لفكرته المحورية والأساسية ليوضح مهام الأركيولوجيا كالوصف والاستنتاج فهي وصف للتشكيلات الخطابية التي نجدها في الارشيف، واستنتاج الوظيفة المنطوقية، إلا أننا يجب أن نتوقف عند استشكل مهم : ما المقصود بالأرشيف؟ وهل الخطاب هو الأرشيف؟

يقول فوكو: « أعني بالأرشيف جملة الأشياء التي قيلت في ثقافة ما وعن الناس بحفظها وارتفع قدرها عندهم واستعملوها من جديد، ووقع تكرارها وتحريرها، باختصار: كل هذه المجموعة المنطوقية التي صنفها الناس بحفظها وارتفع قدرها عندهم، واستعملوها من جديد فوق تكرارها وتحريرها، وباختصار كل هذه المجموعة المنطوقية التي صنفها الناس واستغلوها في تقنياتهم ومؤسساتهم ونسجوا سجادهما من وجودهم وتاريخهم»².

يرى فوكو أن الارشيف هو عبارة عن جملة النصوص والوثائق التي تحتفظ بثقافة كل عنصر لكن لا يقتصر الارشيف على النصوص والوثائق فقط بل كذلك يتضمن المنطوقات الكلامية، لأنها عبارة عن التشكيلات المادية.

¹: الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 96.

²: المرجع نفسه، ص 97.

«فالأركيولوجيا هي الوصف المنهجي والمنظم للخطاب باعتبار موضوعها. إنها تستلهم بان خطاب المعرفة يمكن أن يدرس كظاهرة موضوعية مستقلة (...) الأركيولوجيا التي يقترحها فوكو تبحث عن الأسس لا عن النشأة والتكون والتطور خلال الزمن، فهي بدلا أن تكون بحثا وعملا في أحد ميادين التاريخ كما يوحي بذلك اسمها، لأن فوكو من خلالها يحاول اثبات وجود نظام وراء ظهور ونشأة المعارف في عصر معين»¹.

وضع فوكو منهجه الأركيولوجي ليرسي خطته التي تعتمد على تحليل الأداء اللفظي فموضوعها «تحليل خطاب المعارف في راهنتها»، انتقل فوكو هنا إلى ثقافة جديدة حيث يقوم بحفر خطابات المعرفة لفترة تاريخية معينة، ليكشف عن كيفية نشوء المعارف وما هي الشروط التي تجعل العلوم والمعارف ممكنة؟ ولماذا تظهر في هذه الفترة ولماذا تختفي؟ خطة فوكو الأركيولوجية تتجرد من كل مقولة «انسان أو تاريخ».

كان مبتغى فوكو استنادا لمنهجية الأركيولوجي، نقد مقولات الثقافة الغربية وتقويض الميتافيزيقا وتفكيك الأسس التي ظلت لفترة طويلة تمثل الحقيقة، ومن جهة أخرى أراد أن يكشف عن ابستيمي* كل عصر، الذي يساهم بدوره في تأسيس خطاب كل طبقة معرفية ليبلغ مبدأ العلمية. يرى فوكو أن المناهج المعتادة أصبحت قاصرة وغير قادرة على وصف الخطاب وتحليل ممارساته وانطلاقا من هنا يقول فوكو «فقد سبق وأن وجدت مناهج كثيرة قادرة على وصف اللغة وتحليلها بحيث لا يمكن لأي كان أن يزهو بنفسه ويعجب بها، مدعيا أنه يضيف منهاجاً جديداً إليها»². لم يكن فوكو راضياً عن ثقافة

¹: عبد الله عبد اللاوي، المشروع الفلسفي والأركيولوجي عند ميشال فوكو، مجلة التدوين، ديسمبر 2012، العدد 4، ص 12.

*: الابستيمي: «مجموعة علاقات التي بإمكانها أن توحد في فترة معينة بين الممارسات الخطابية التي تفسح المجال أمام أشكال الأبيستمولوجيا، إنما النمط الذي يتم حسب الانتقال داخل تشكيلة خطابية.
²: المرجع السابق، ص 13.

عصره التي تعتمد على كل ما هو مألوف وسهل كلها ثقافة تفتقر إلى الابداع وتخشى المجهول والمختبئ، فماذا ستقدم لنا أركيولوجيا فوكو؟

يسعى النقد الأركيولوجي إلى تحليل الخطابات من خلال ظهوره وأفوله، لأن التاريخ في نظر فوكو عبارة عن حلقات منقطعة ومنفصلة، التي لم تعرف الاتصال ابدا لأن كل حقبة معينة لها خصائصها ومميزاتها التي تجعلها مختلفة ومتميزة عن باقي المراحل الأخرى، بالتالي تتجه الأركيولوجيا نحو التقطع والانفصال.

يعبر الابستيمي على مجموعة تلك العلاقات المترابطة ليحدد المهمة الجوهرية للاركيولوجيا حيث عمد فوكو من خلال منهجه، إلى تتبع مختلف المعارف ليكشف عن البنى الداخلية، على هذا الأساس أراد فوكو أن يصف مختلف الانظمة المعرفية ويدرس الانقطاعات الابستمولوجية.

1. في خطوات المنهج:

اعتاد المؤرخون والفلاسفة، على وصف التاريخ، وصفا تقليديا، لا يتسم بالعلمية حيث أن دراستهم تفتقر إلى الروح العلمية، فهي عقيمة لاتملك الشجاعة للخوض في موضوعات طالما همشت كالجنون والجنس والمرض والخطاب والمتقف والسلطة. إن الأركيولوجيا هي أنطولوجيا العناصر ولتحقيق ذلك، وضع فوكو جملة من القواعد أو خطوات لكي يصف الارشيف وأهمها:

- **حدود و أشكال التقرير (Débilité):** « يتطلب الأمر في هذا المستوى أن نعرف من أي شيء يتشكل ميدان خطاب معين؟ و ما هو نوع الخطاب الذي تم توجيهه نحو ميدان ما من ميادين الخطاب؟»¹.

¹: الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقته عند ميشال فوكو، ص 99.

- **حدود و أشكال الاحتفاظ (Conversation):** «إن الغاية من هذه الخطوة هو معرفة المنطوقات المتجهة نحو الاختفاء وتلك التي يجب الاحتفاظ بها وتثبيتها في الذاكرة بطرق مختلفة كالتعليم على سبيل المثال، تلك المنطوقات المستبعدة أو المقصية أو الممنوعة وإن طريقة حفظ المنطوقات تقوم على نوع من الانتقاء والاختيار والاصطفاء»¹.

- **حدود و أشكال الذاكرة (Mémoire):** « لا تختلف هذه الخطوة عن الخطوة السابقة إلا من حيث ارتباطها بالذاكرة الجماعية أو الفردية التي تتكون عادة من منطوقات مقبولة ومنطوقات مرفوضة. وتلك المنطوقات التي يتم اهمالها و تهميشها واستعادتها لتصبح غريبة»².

- **حدود و أشكال التنشيط (Réactivation):** «تبين هذه الخطوة أنه أمام مختلف خطابات الحقب التاريخية والثقافات المغايرة أو الأجنبية علينا أن نعد إلى الاحتفاظ ببعض المنطوقات التي نقيمها ونحاول إعادة تأسيسها وتكوينها ونعمل على تطويرها وتحويلها بواسطة التعليق (Commentaire) أو التفسير (Exégèse) أو التحليل (Analyse) ولعل أفضل مثال على ذلك ما يعرف في الثقافة العربية بمشاريع التراث»³.

- **حدود وأشكال التملك (Appropriation):** «نحاول في هذه الخطوة أن نعرف نوعية الافراد أو الجماعات أو الطبقات التي تنتظم في خطاب ما أو تنتسب اليه. وكيف تتحدد الطبيعة القانونية بين الخطاب ومن يملكه؟ وكيف تتحدد العلاقة بين الخطاب والمؤلف؟ وكيف تحدث مختلف الصراعات بين الطبقات والأمم والجماعات اللسانية والعرقية من أجل امتلاك الخطاب»⁴.

¹: الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقته عند ميشال فوكو، ص 99.

²: المرجع نفسه، ص 99.

³: المرجع نفسه، ص 99.

⁴: المرجع نفسه، ص 100.

طرح فوكو عدة اشكالات ليكشف كيف للأمم وطبقات الجماعات العرقية ان تستحوذ على الخطاب، فالأركيولوجيا تنص على وصف التقرير والخطاب ومن ثم البحث في الجو الملائم الذي يساعد على ظهور الخطاب على عكس البنيويين، لأن مع فوكو أصبحت الممارسات الخطابية تنتمي إلى الميدان العلمي الخاص بها، أركيولوجيا فوكو لم تهتم ببناء القواعد ولا نظام اللغة، إنما اهتم بوصف الأحداث ما الذي جعلها ممكنة فقد كان لمنهجه عدة مبادئ وجب اعتمادها، ففي ما تتمثل هذه المبادئ؟

2. مبادئ المنهج:

«إن كل من أشكال التقرير والاحتفاظ والذاكرة والتنشيط والتملك خطوات تحكمها مبادئ سوف نتطرق إليها الآن»:

- الندرة: ما يعرف على النصوص أنها تذهب إلى الوفرة والكثافة. « أما تحليل العبارات والتشكيلات الخطابية، فيسير في اتجاه مخالف تمام المخالفة، فهو يريد تحديد المبدأ الذي يتحكم في ظهور المجاميع الدالة وحدها والتي تم التلطف بها، كما يسعى إلى سن قانون الندرة»¹.

يتخذ قانون الندرة عدة اتجاهات وأوجه، هذا ما يسعى إليه تحليل المنطوقات والتشكيلات الخطابية، نبدأ بالوجه الأول « قانون الندرة يستند إلى أن الكل لا يقال أبدا اذ العبارات مهما بلغت كثرتها، تبقى بالنظر إلى ما كان بالإمكان عنه في اللغة الطبيعية، وبالنظر إلى امكانية التركيب المتناهي للعناصر اللسانية، ناقصة ولا تعني بالحاجة وانطلاقا من النحو والثروة اللفظية التي تتوفر عليها في فترة معينة، لا نعثر اجمالا إلا على عدد زهيد نسبيا من الاشياء التي قيلت»².

¹: ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان 1987، ص 110.

²: المصدر نفسه، ص111.

أراد فوكو أن يحفر في حقل العبارات والصيغ الممكنة، مثل ما تقدمه اللغة لأن التشكيلة الخطابية عبارة عن تقطع وتشابك وتبعثر وفراغ. يعني أنها موزعة ومنتشرة بين مجالات عدة، بالتالي لا وجود لنص خفي يتميز بالكثرة، يبحث تحليل التشكيلة الخطابية في ذلك النقص، وتحديد صورتها النوعية، يعني « لا يبقى الخطاب كما اعتقد الموقف التفسيري: كنزاً مليئاً لا ينفذ، نستخرج منه باستمرار ثروات جديدة لا تعد ولا تحصى، لا تبقى عناية الإهية تنطق دوماً قبل الكلام، وإذا احسنا الإصغاء إليها استمعنا وحياً نزل في الماضي، بل إنه سيغدو ثروة متناهية ومحدودة ومرغوبة ومفيدة لها قوانين ظهورها وأيضاً شروط تملكها واستثمارها»¹ يقوم تحليل الخطاب على مبدأ الندرة والانفصال يعني دراسات المنطوقات كممارسة خطابية متقطعة، باستبعاد مبدأ الاتصال الذي اعتمده التاريخ التقليدي أو مبدأ الكلية.

- الخارجية:

هناك خاصية أخرى تميز تحليل التشكيلة الخطابية ألا وهي "الخارجية" (Extériorité) يعني دراسة الخطاب من خلال ظاهره، يقول فوكو هنا « ... فقد جرت العادة في الوصف التاريخي للأشياء المقولة أن ينطلق فيها ضمناً من التمييز بين الداخل و الخارج، وأن يستبد به هاجس الاتجاه من الخارجية التي ليست في اعتقاده سوى جواز واحتمال أو محض ضرورة مادية أو جسد مرئي أو ترجمة غير صادقة نحو النواة الجوهرية الداخلية»².

ينظر التحليل الأركيولوجي للخطاب على أنه انتظام خارجي لاستكشافه الذي تتوزع فيه الأحداث ولا يتطلب هذا العمل إلى إرجاع المنطوق للذات بل إلى البنى الخارجية فإذا كان تاريخ الأفكار يدرس الوثيقة ليكشف معناها داخلياً وخارجياً، فإن هدف الأركيولوجيا

¹: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص 112.

²: المصدر نفسه، ص 113.

الامساك بلحظة ظهورها المبالغت ولا يستدعي إلى أي شكل من الأشكال الداخلية لأن المهمة لا تتطلب النواة الداخلية إلى الذات بل « تتطلب هذه المهمة منا ألا ننظر إلى حق العبارات كما لو كان (ترجمة وانعكاسا) » لإجراءات وتطورات تجدي خارج (في فكر الناس في وعيهم أو لا وعيهم، في منطقة التكوين الترنسنتالي (...)) تتطلب كذلك ألا نحيل هذا الميدان العباري إلى ذات فردية، أو إلى أي شيء كالشعور الجماعي ولا إلى ذات ترنسنتالية، بل إن نصفه كحقل مجهول الهوية وغفل من الاسم يحدد انتظامه المكان الذي يمكن للذوات أن تشغله»¹.

ينص فوكو من خلال السياق السابق على أنه علينا أن نكف عن تحديد وتحليل العبارات والمنطوقات من خلال النظر إلى الذات المطلقة، بل ضروري لنا الاتجاه إلى فكر الناس البراني وتكوينه المتعالي، دون الرجوع إلى الكوجيطو، يجب أن نصف تحليل الخطاب على أنه حقل مجهول الهوية، لأنه وصف يجد ضالته في الخطابات والأقوال المبنية للمجهول «فهو تحليل لا يطرح مسألة: من يتكلم؟ ومن يتجلى أو يختفي في ما يقال؟ من يمارس حرته المطلقة حينما يتكلم، أو من يخضع دون علم منه لضغوط لا يدركها ولا يكون على دراية جيدة بها، فهو تحليل مجهول الهوية يتكلم بالضرورة عبر الخطابات الفردية، بل هو مجموع الأشياء المقولة والعلاقات والانتظاميات والتغييرات التي نستطيع معاينتها بصدها والميدان الذي تشير بعض أشكاله وبعض تقطعاته إلى المكانة الفردية لذات متكلمة والتي هي اشكال وتقطعات يمكن أن يطلق عليها اسم المؤلف أي كان يتكلم، غير أن ما يقوله، لا يقوله حيث ما شاء، لهذا فهو يقع بالضرورة تحت رحمة لعبة خارجية»².

¹: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص 113.

²: المصدر نفسه، ص 114.

- التراكم:

أما السمة الثالثة لتحليل التشكيلات الخطابية من خلال الوصف الأركيولوجي أطلق عليها فوكو " التراكم " « لأن الارشيف ذاته هو التحليل الاشكال تراكم الخطابات»¹ .

« فقد جرت العادة أثناء تحليلنا للخطابات تمت فعلا، أن نعتبرها خطابات تعاني من قصور ذاتي و عطالة جوهريين: وأن الصدفة وحدها هي التي احتفظت لنا بها كما رعتها عناية البشر وأوهامهم تلك الأوهام التي يكونونها عن أقوالهم فتذهب بهم إلى اعطائها قيمة واستحقاقا يرفعها إلى مستوى الخلود»² . « يتطلب النظر إلى المنطوقات من حيث هي أثر مستمر، يتخلف ويبقى بعد زوال باعته وسببه واستمرار ذلك ليس استمرارا لمصدره إمكانية استرجاع الباعث الماضي الذي أحدث الصياغة وإحيائه من جديد»³.

يعد التراكم المبدأ الثالث من مبادئ التحليل والنقد الأركيولوجي لأن كل شكل من اشكال المنطوقات لها منهجية وأسلوب في التجميع والتكديس. ولهذه السمة ميزة استكشاف وتقويض للموضوعات « التي تمت بصلة إلى السبات والنسيان والأصل الضائع و استكشاف نمط الوجود الذي يميز العبارات»⁴. وضع فوكو لمبدأ التراكم ثلاثة متطلبات ليتم التحليل بطريقة صائبة:

أولاً: الأثر المستمر « يتطلب هذا التحليل النظر إلى العبارات من حيث هي أثر مستمر يختلف ويبقى بعد زوال باعته ولسببه (...) واستمرار ذلك ليس استمرارا مصدره امكانية استرجاع الباعث الماضي الذي أحدث الصياغة و احيائه من جديد»⁵.

¹: الزواوي بغورة، الخطاب، بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 102.

²: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص 114.

³: المرجع السابق، ص 102.

⁴: المصدر السابق، (حفريات المعرفة)، ص 115.

⁵: المصدر نفسه، ص 115.

يقصد فوكو بالاستمرارية في الانبعاث حتى و ان زال السبب لا يكون مرتبطا بالذاكرة و كيف لها أن تحتفظ بتلك العبارات بل انها تحافظ على نفسها وفقا إلى دعائم و ركائز مادية « كأنواع معينة من المؤسسات (من بينها خزينة الكتب) وبعض الصيغ القانونية والتي ليست صيغا واحدة و متماثلة حينما يتعلق الامر بنص ديني أو تنظيم قانوني أو حقيقة علمية»¹.

ثانيا : الصورة الجمعية : « (...) والملاحظ أن تجمع العبارات المتتالية ليست بالفعل واحدة في كل الحالات و لا تأتي أبدا نتيجة لتكديس وتراكم أو تجاور عناصر متعاقبة فالعبارات الرياضية لا تجتمع في ما بينها على غرار النصوص الدينية أو الأحكام القضائية (فهذه لها جميعا أسلوب خاص في الاتلاف والتنافر والتناوب والتكامل والإجماع في زمر ذات خصائص متميزة إلى حد ما)². يوضح فوكو مطلب التراكم في صورته الجمعية في تلك النصوص الدينية والقواعد القضائية لما لها من نمط معين من التراكم من خلال التنافر والتكامل والاجتماع.

أما المطلب الأخير لسمة التراكم هو الاستعادة « فكل عبارة تفترض حقا من العناصر السابقة عليها، كما يتحدد الموقع بالنسبة لها»³. يعني أن العبارات من خلال تراكمها تكون لها القدرة على استعادة عناصرها السابقة من خلال اعادة التنظيم والتوزيع، فتكون ذاكرة وتاريخ خاص بها وتربطه مع ما سبقه من عناصر بين العبارات، بالتالي ترسم امكانية جديدة وتستعيد الماضي. « إنها تطرح ذلك الماضي العباري كحقيقة مكتسبة، أو كحدث وقع أو كشكل قابل للتحوير و كمادة قابلة للتحرير، أو ككلام يمكن الكلام عنه، (...) بالتالي يصبح

¹: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص 115.

²: الزواوي بغورة، الخطاب، بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 115.

³: المرجع نفسه، ص 116.

النسيان والتذكر واستكشاف المعنى أو قمعه، مجرد اشكال فريدة، عوض أن تصبح قوانين أساسية»¹.

وضع فوكو ثلاثة مطالب للتراكم وهي الاستمرارية، الصورة الجمعية، الاستعادة ضف إلى الندرة والخارجية، حيث أن التحليل والوصف الأركيولوجي للتشكيلات الخطابية يضطر إلى التحرر من القيود التقليدية لا للنظر التحليل الأركيولوجي لحظة مفارقة أو بعودة ثانية بل يدرس العبارات في سمك تراكمها. إن الوصف الأركيولوجي لا يسعى إلى الكليات المغلقة بل يذهب إلى التنافر والتقاطع والاستمرارية ولا إلى استكشاف الأصل ولا لحظة البدء الأول، لأن دراسة مجموع العبارات والانجازات اللفظية لا بد وضروري من تحليل الندرة ووصف التبعثر الخارجي البراني.

القبلي التاريخي:

ذكرنا سابقا أن الوصف الأركيولوجي للتشكيلات الخطابية لا يهتم و لا يعنى بالبحث في الجذور والأصول ولا الحفر في الآثار والبقايا، فهو لا يهتم بالكشف عن عظام رميمة - حسب قول فوكو - بل تبحث في القبلي التاريخي في مستواه الانطولوجي. « لا أعني بذلك مجموع النصوص التي حافظت عليها ثقافة ما وتوجد بحوزتها كوثائق تدل على ماضيها الخاص، أو كشاهد على هويتها الأصيلة والمصونة، لا أقصد به المؤسسات التي تعمل في مجتمع ما على حفظ و خزن خطاباته قصد الاحتفاظ بها و اللجوء إليها عند الحاجة»².

من النص السابق يتضح لنا مفهوم (القبلي التاريخي) عند ميشال فوكو، فهو لا يعنى بالوثائق التي تحتفظ بالنصوص ولا المؤسسات المسؤولة على التخزين بل هدفه الكشف عن شروط انبثاق تلك المنطوقات، لا علاقة لتحليل فوكو الأركيولوجي بالمسائل المنطقية

¹: الزواوي بغورة، الخطاب، بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 16.

²: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص 120.

أو اللغوية بقدر ما له علاقة بالبحث عن الأسباب التاريخية لظهور الخطابات « و لا يستند تشخيص هذا من هذا القبيل في البرهنة على إثبات هويتنا إلى الأعيب التمييز و التفريق. بل يبرهن أننا في (اختلاف) وأن عقلا هو اختلاف خطاباتنا و أن تاريخنا هو اختلاف الأزمنة و أننا اختلاف في الأفعنة »¹.

يوضح فوكو نظريته في (القبلي التاريخي) ليفند التعريف التقليدي لمصطلح التاريخ. فنحن نعيش في تبعثر تام واختلاف في عقولنا ونمط في تفكيرنا، إن التاريخ عند فوكو قائم على الاختلاف والتناثر والتبعثر، هدفه استنطاق ما قيل في المستوى الانطولوجي وكذا في مستوى الوظيفة العبارية التي تمارس عليه، بالتالي يقوم الوصف الحفري على عنصرين " الاحتفاظ والظهور".

3. قواعد المنهج:

آمن فوكو بالقطعية التاريخية والاستمرارية، فوجد في فلسفة "باشلار" ملاذه، كما رفض النظرة الشمولية والكلية للتاريخ، ليحي النص المبتور والمسكوت عنه فيصبح النص واقعة راهنة وحاضرة وليس خبر ماضي، لأن الأركيولوجيا فوكو لا تبحث عن الصحيح أو الخطأ و لا تسعى إلى تحديد الأفكار المحورية و الأساسية في خطاب ما بل تذهب لتستتق العمق وتجعله سطحي فتحلل الخوارق والاختلافات.

تحدد الأركيولوجيا قواعد عامة للوصف الحفري للخطابات هم (التكوين والتحويل وأخيراً الترابط).

1. التكوين:

« يشير هذا المعيار إلى أن خطابا كخطاب الاقتصاد السياسي لا يتقرد بناء على وحدة موضوعاتها ولا على أساس بنيته الشكلية ولا انسجام مفاهيمه ولا على اختيارات نظرية أو

¹: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص 121.

فلسفية ولكن على أساس قواعد تكون موضوعاته فلوجود تشكيلة خطابية متفردة، يجب تحديد قواعد تكوينها»¹.

2. التحول: « لا يمكن الحديث عن وحدة خطابية كالتاريخ الطبيعي، ما لم نحدد الشروط التي توفرت في لحظة ما لموضوعاته ونظرياته ومفاهيمه وتشكلها وتحولها في التاريخ»².

الترايط: « يمثل الطب العيادي على سبيل المثال، تشكيلة خطابية مستقلة إذا استطعنا أن نحدد مختلف علاقاته بالخطابات الأخرى، كالخطاب البيولوجي والكيمائي، أو بالممارسات غير الخطابية، كالمؤسسات والعلاقات الاجتماعية»³.

إن المنهج الأركيولوجي من خلال قاعدتي التكون والتحول التي نجدها في مجال التاريخ، وقاعدة الترايط المنتمية إلى التحليل البنيوي، يتضح لنا أن فوكو أراد أن يأخذنا بمنهجه إلى أرضية فلسفية جديدة، إلى أنطولوجيا الحاضر، ليجعل المنطوق راهني، هذا ما يفسر لنا أوجه فوكو الفلسفية، تارة مع البنيوية وتارة أخرى مع ما بعد البنيوية، ثم بعد ذلك إلى الجينالوجيا وإلى الممارسات غير الخطابية.

4. المنهج الأركيولوجي مقابل المناهج الأخرى:

1.4 المنهج الأركيولوجي ومنهج تاريخ الأفكار:

يذهب فوكو إلى « أن تاريخ الأفكار فرع معرفي يتناول البدايات و النهايات و يهتم بوصف ألوان الاتصال المبهمة وألوان العودة و بإعادة انشاء التطورات الخطية المتعاقبة للتاريخ »⁴.

¹: الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص، 103.

²: المرجع نفسه، ص103.

³: المرجع نفسه، ص103.

⁴: المرجع نفسه، ص 104.

يتتبع علم تاريخ الأفكار نشأة وميلاد منطوقات وأعمال تكونت وفي نفس الوقت كيفية تكون تلك الأشكال الكبرى فهو علم « يتتبع، انطلاقاً من تلك المبادلات التي تتم بين الميادين المعرفية و هجرة الأفكار بين بعضها البعض، وذلك من خلال كيف تنتشر المعرفة العلمية وتكون مناسبة لولادة مفاهيم فلسفية »¹.

إلا أن التحليل الأركيولوجي يهتم بالانفصاليات لا الاتصالات، كذلك الانقطاع لا البدايات و لا النهايات، فتاريخ الأفكار تاريخ معرفي يصف الأشكال و الألوان، أما الأركيولوجيا: « فهي تخلي مطلق عن تاريخ الأفكار و رفض منهجي لمسلماته و طرقه و محاولة لإقامة تاريخ آخر لما قاله البشر »².

إن تاريخ الأفكار يسعى لتحليل الولادات كما يصفها فوكو بالصمّاء، يهتم هذا العلم بالنشأة و الاتصال والكلية « أما الأركيولوجيا فهي لا تسعى إلى تحديد الخواطر والتمثيلات والصور و الأفكار المحورية و الموضوعات الأساسية التي تختفي و تظهر في الخطابات فهي لا تنظر إلى الخطاب على أنه وثيقة و لا تعتبره علامة أو إشارة تحيل إلى شيء آخر... »³؛ تذهب الأركيولوجيا بعيداً على أي مبحث تأويلي فهي رافضة تماماً لا تكون باحثة في المعنى الحقيقي خلف المعنى الظاهر.

ترتكز الأركيولوجيا على أربع أساسيات ما يجعلها مخالفة لتاريخ الأفكار كمفهوم الحدث، السلسلة، الاطراد، وشرط الإمكان مقابل الإبداع والوحدة والأصالة والدلالة. هذا يعني أن تاريخ الأفكار يتعارض بشكل جلي مع الأركيولوجيا، انها ليست مبحثاً مجازياً.

لا تهتم الأركيولوجيا كذلك بترصد اللحظة التي ولدت فيها الخطابات ولا حتى نهاياتها بل: « ينحصر المشكل بالنسبة لها في تحديد الخطابات في خصوصياتها و إبراز كيف أن

¹: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص 127.

²: الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 104.

³: المرجع نفسه، ص 104.

القواعد التي تخضع لها تلك الخطابات لا يمكن إرجاعها إلى شيء آخر... فحفریات المعرفة لا تسير ببطء و بتقدم حثيث متتبع الانتقال الذي يتم من اللا علم إلى العلم، أي من الحقل المبهم للرأي إلى خصوصية المنظومة»¹.

إن الأركيولوجيا لا يمكن اعتبارها دراسة تسعى وراء صحة الآراء وفسادها، بل غايتها التحليل داخل صيغ الخطاب. لا يسعى هذا المنهج إلى أن يكون دراسة نفسية و لا اجتماعية و لا حتى بحثا انطولوجيا للإبداع، فالأركيولوجيا لا تهدف إلى البحث على تلك اللحظة التي يبرز فيها الأثر، فهو بالنسبة لها « لا يشكل نصا ملائما وثيق الصلة بالموضوع الذي تهتم به، حتى في الوقت الذي يتعلق فيه الأمر بمحاولة رده إلى سياقه العام و إلى شبكة الأسباب والشروط التي تحدده، بل تسعى إلى تحديد أنماط وقواعد الممارسات الخطابية التي تحكم الآثار الفردية، و توجهها أحيانا توجيهًا كليًا»².

إن الأركيولوجيا كمنهج « لا تسعى إلى إبراز ما فكر به البشر و ما أرادوه أو شعروا به، أو رغبوا فيه، في اللحظة التي كانوا يصوغون فيه خطاباتهم، لا تبغي كشف الغطاء عن تلك النواة حيث يبدو تماثل المؤلف و أثره و تطابقهما و حيث يبقى الفكر أقرب من ذاته، لم يمسس صورته بعد أي تغيير و حيث اللغة لم تنتشر بعد في تبعثر فضاء الخطاب و تعاقبه»³.

لا تحاول الأركيولوجيا إعادة ما قيل من خلال التعمق في ماهيته و هويته : « إن حفریات المعرفة، ليست شيئًا أكثر من كتابة ثانية: أي تحويلًا منظمًا لما كتب لا تتعدى

¹: ميشال فوكو، حفریات المعرفة، ص 128.

²: المصدر نفسه، ص 129.

³: المصدر نفسه، ص 129.

الشكل البراني، فهي ليست عودة أو رجوعاً إلى سر الأصل ذاته، بل إنها وصف منظم لخطاب، يجعل منه موضوعه¹.

في الأخير يمكننا القول أن المنهج الأركيولوجي يختلف تمام الاختلاف مع تاريخ الافكار لا من حيث الموضوع ولا من طريقة التحليل ولا من جهة المفاهيم و الأهداف. إن الأركيولوجيا لا تخشى الحديث عن الانشقاقات والقطائع والتصدعات، بل تسعى إلى فك الرموز.

2.4 الأركيولوجيا والتحليل اللغوي:

يختلف مفهوم فوكو للمنطوق عن القضية المنطقية والجملة اللغوية، فإن أول من حول البحث إلى بحث اللغة هو الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه"، هذا ما يوضحه فوكو في كتابه "الكلمات و الأشياء" « إن نيتشه أول من قرّب المهمة الفلسفية من حدود التفكير الجذري في اللغة»².

يشكل فقه اللغة أو كما يطلق عليها الفيلولوجيا، المكانة الرئيسية في دراسة اللغة وتحتل المرحلة الثانية بعد النحو والمنطق. يعد "نيتشه" من أبرز معالم فقه اللغة الذي جمع بين فقه اللغة و الفلسفة حسب قوله: « ضروري أن كل نشاط فيلولوجي، يجب أن يوجه و يؤطر ضمن تصور فلسفي للعالم»³.

إن التدريب الذي تلقاه نيتشه كمفكر كلاسيكي ولد عنده شغفا عميقا بالأدب الإغريقي و شغفا ممالا "بهوميروس" و ثنائية "ديونيزوس" و "أبولون" فقد كان نيتشه «

¹: ميشال فوكو، حفریات المعرفة، ص 129.

²: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 254.

³: فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، تر: شاهر حسن عبيد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية، سورية، 2008، ص 129.

أول فيلسوف كبير في عصرنا، قام بعملية هدم كاملة للفلسفة منطلقاً من اعتبارات لغوية نيتشه جاء للفلسفة من فقه اللغة»¹.

إن الفكر النيتشوي هو ما أنقذ الفكر الغربي من سباته الانثروبولوجي إلا أن ما نخص به الذكر، هنا هو نقاط الاختلاف بين المنهج الحفري والتحليل اللغوي، يقول فوكو « إذا كان السؤال يطرحه تحليل اللغة بصدد الحدث الخطابي يتعلق بالقواعد التي وفقها ينشأ هذا المنطوق المحدد وأن هذه القواعد التي وفقها بنشأة هذا المنطوق المحدد وأن هذه القواعد قد تسمح بنشأة منطوقات أخرى مماثلة، فإن وصف أحداث الحدث يطرح سؤالاً مغايراً: ما الذي يجعل منطوقاً ما يظهر دون أن يظهر منطوقاً آخرًا بدلاً عنه»².

إن ما يطرحه التحليل اللغوي صوري، مقارنة بالطرح الأركيولوجي، هذا الأخير يذهب ليستتق الوقع والراهن ويكشف ويحفر في خبايا التاريخ، فالتحليل اللغوي ما يهيمه هو التناسق بين الدال والمدلول أما الأركيولوجيا وظيفتها الممارسة الخطابية وغير الخطابية. فإذا كان التحليل الأركيولوجي لا يهتم بالتحليل المنطقي للقضايا إلا أنهما يلتقيان في الانجازات اللفظية مع أن الأركيولوجيا مجالها الأساسي التاريخ وليس المنطق « رغم اعتماده على وحدات لغوية كالمنطوق/ الخطاب/ المماثلة للأفعال الكلامية»³.

3.4 بين الأركيولوجيا والهيرمينوطيقا (التأويل وفنه):

لا يمكننا الحديث عن المنهج الأركيولوجي دون الولوج لمنهج التأويل الفلسفي*، يقول فوكو في هذا الصدد: « إن التأويل أسلوب من أساليب الكلام بمناسبة النقص ورغمًا عنه،

¹: جورج زيناتي، الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، مركز الانماء العربي، 1986، ص 708.

²: M. Foucault, l'Archéologie du savoir, Op, Cite, P 186.

³: زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 108.

*: التأويل الفلسفي: تفيد المعاجم أن لفظ (Harmonica) يعني الشرح والترجمة والتعبير ويحيل إلى الإله "هرمس" Hermès، اله الرسائل الذي يحيا متقللاً بين الالهة و البشر و يرمز إلى تداول المعاني و الأفكار.

أما تحليل التشكيلات الخطابية فيفي البحث عن قانون ذلك النقص وقياس و تحديد صورته النوعية «¹.

إن الأركيولوجيا مقارنة مع التأويل لا تهتم بالمعنى ولا التفسير ولا تذهب إلى الوسط اللغوي كباطن للخطاب. إن الهيرمينوطيقا تسعى لتجعل الخطاب ثروة لا متناهية وفيضا من المعاني والدلالات، إلا أن الأركيولوجيا عكس ذلك تذهب إلى (الندرة). فالأولى تهتم بالشرح والتفسير من لفظ واحد نحصل على عدة ألفاظ، أما الثانية فتهتم بالحدث الواقعي الراهن، رغم أن الفيلسوف "باسكال" يوضح لنا نقطة مهمة وهي « إن التأويل ليس منهجا بل ممارسة»².

تكتفي الأركيولوجيا بالوقوف عند المنطوق عكس المؤول الذي يقوم بالتفسير والشرح والافصاح، ففوكو حاول أن يميز بين المنهج الأركيولوجي والمنهج التأويلي خاصة في كتابه " حفريات المعرفة" لكنه «عدّل من موقفه قليلا من التأويل وذلك عندما حاول تحليل سلطة الخطاب بالاستناد إلى الجينيالوجيا كما أسسها نيتشه»³.

تطرقنا فيما سبق إلى عدة تباينات بين المنهج الأركيولوجي ومناهج أخرى، أولها: تاريخ الأفكار، فوجدنا التعارض يكمن في أربعة نقاط أساسية كمفهوم الحدث يقابله الابداع كذلك السلسلة تقابلها الوحدة، ثم الإطاراء تقابله الأصالة، وأخيرا شرط الامكان تقابله الدلالة. فالأركيولوجيا لا تهتم لا بالنهايات و لا البدايات عكس تاريخ الأفكار، كذلك لا تسعى إلى إبراز الحياة الاجتماعية و لا النفسية للبشر في تلك الحقبة، بل تسعى إلى فك الخيوط و كشف الغموض. أما ثاني المناهج التي قمنا بذكرها في هذه المقاربة "التحليل اللغوي" فهذه تهتم بالتناسق المنطقي واللغوي، أما الأركيولوجيا فهي تسعى إلى استنتاج

¹: زواوي بغورة، الفلسفة واللغة نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2005، ص117.

²: زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 108.

³: المرجع نفسه، ص 108.

الراهن والواقع، وظيفتها مع الممارسات الخطابية وغير الخطابية، رغم تلاقيهما في اعتماد الأركيولوجيا على وحدات لغوية كالمنطوق والخطاب والمماثلة والأفعال الكلامية.

أما ثالثاً منهج هو " التأويل الفلسفي " يقوم هذا المنهج بالشرح والتفسير يسعى إلى جعل الخطاب ثروة غزيرة المعاني و الدلالات عكس الأركيولوجيا التي تكتفي بمجرد ما قيل والوقوف عندها فقط، حيث تعتمد على ندرة المنطوق و تراكمه و خارجيته.

لا ننسى مقابلة الأركيولوجيا مع التحليل الألسني البنيوي و الذي سوف نتطرق إليه في الفصل الثاني؛ لإبراز دور البنيوية في بلورة الفكر الفوكوي، فهي محطة جد مهمة في حياته الشخصية و الفكرية و ما نجدها متجلية في كتابه " الكلمات و الأشياء".

أما مقابلة الأركيولوجيا مع الجينالوجيا سوف نتناولها في الفصل الثالث لنبرز التحول الفكري في مسار فوكو الفلسفي، أو كما يطلق عليه "رابينوف و دريفوس" في كتابهما " فوكو مسيرة فلسفية " ب " الفشل المنهجي للأركيولوجيا " .

المبحث الثالث: «شكل العلوم الإنسانية عند ميشال فوكو»

يكشف التحليل الأركيولوجي أن بروز العلوم الإنسانية و نشوئها، هو من خلال انحسار الرياضيات، فسمح ببروز تلك العلوم و انغلاقها على "عمل، الحياة، اللغة" يقول فوكو: « إن البعد الرياضي هو الأقل اشكالا بين الأبعاد الثلاثة التي تفتح العلوم الانسانية مجالها الخاص، و تهيئ لها المكان الذي تتكون فيه، أو على الأقل قمع هذا البعد بالذات تقيم العلوم الانسانية أوضح علاقتها و أكثرها صفاء و شفافية»¹.

يحدد فوكو مجال العلوم الإنسانية من خلال الأبعاد " العمل، الحياة، اللغة" لأن تلك العلوم تتجه إلى الإنسان من حيث أنه كائن ينمو ويتطور لديه حاجيات و غرائز كذلك هو كائن ينتج و ينطق، فمن خلال البيولوجيا يقول فوكو: « هو ذلك الكائن الذي كوّن داخل الحياة ينتمي إليها بكل جوارحه تمثيلات يعيش بفضلها و يمتلك من خلال تلك القدرة الغريبة على تمثيل الحياة بالذات»².

أما عن كونه كائن يتجه إلى الجانب الاقتصادي يقول فوكو : « إنه ذلك الكائن الذي حظي بتلك الأهمية الكبيرة، لديه الانتاج و التوزيع و الاستهلاك، أما عن اللغة قال: « هو الكائن الوحيد الناطق، فليس من غير علم الإنسان بشي أن نعرف التحولات الصوتية و قرابة اللغات و قواعد الانزلاقات الدلالية، و بالمقابل يمكن أن نتحدث عن علم لإنسان ما، نحاول تفريق الطريقة التي بها يتمثل الأفراد والمجتمعات، والكلمات و استعمالهم لصيغها و معانيها»³ ، بالتالي موضوع العلوم الإنسانية هو اتجاه لذلك الإنسان الذي يمثل داخل لغته، من نطقه لمعاني الكلمات و الأشياء.

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 288.

²: المصدر نفسه، ص 289.

³: المصدر نفسه، ص 290.

ظهرت العلوم الإنسانية أركيولوجيا مع العصر الحديث، بعد أن فقد الفكر قدرته على التمثيل و الصرامة و الدقة، فميراث العصر الكلاسيكي لم يشكل المناخ الملائم لظهور علوم الإنسان، لأن علم الحياة واللغة و العمل لم يعرفوا بعد.

فقد العقل الإنساني القدرة على التمثيل و إقامة الروابط، بالتالي لم يظهر ذلك الكائن الإنساني بوصفه ذات وموضوعا للمعرفة، الا مع بداية القرن التاسع عشر، شهدت المعرفة منعرجا قد أثر في مسارها، من خلال تصدع انظمتها يقول فوكو: « يتجلى المجال الابستمولوجي للقرن التاسع عشر في أبعاد ثلاثة : في البعد الأول يمكننا أن نضع العلوم الرياضية و الفيزيائية و في الثاني نضع العلوم الأخرى(مثل علوم اللغة و البيولوجيا و الاقتصاد).... أما البعد الثالث فيتمثل في التفكير الفلسفي الذي ينشأ باعتباره حصيلة تفكير معبر عن الذاتية و الذي يكون مجالا مشكوكا مع أبعاد العلوم اللغوية و البيولوجية والاقتصادية»¹.

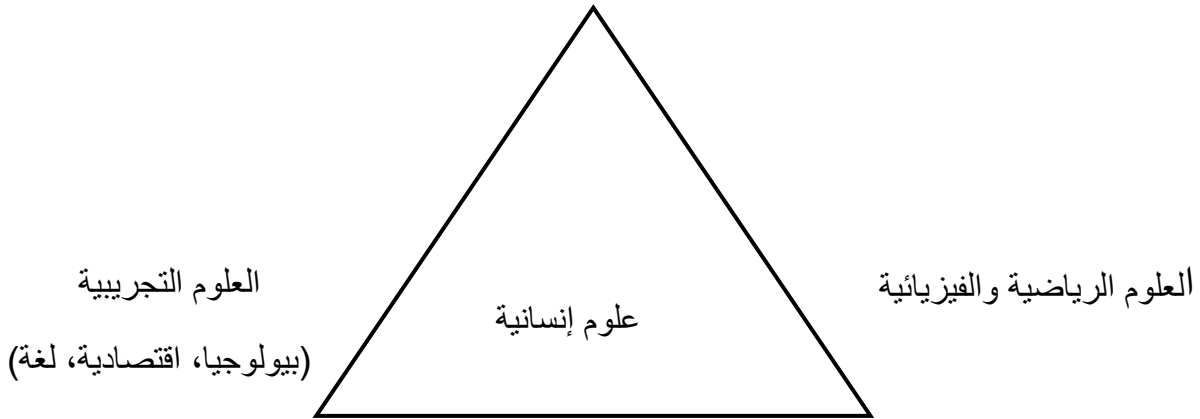
تتوجه العلوم الإنسانية إلى الإنسان من حيث كونه كائناً حياً، يتكلم إلا أنه لا يمكن أن نعتبرها علوماً بمعنى الكلمة، حيث أنها لم تبلغ بعد صفة الصرامة والدقة العلمية. تتعلق العلوم الإنسانية بالإنسان من حيث كيفية العيش، كذلك الفيلولوجيا والعمل والانتاج. مع العصر الحديث، ظهر مفهوم آخر للإنسان ذلك الكائن المسيطر من قبل الأبعاد الثلاثة، التي سوف تحدد بذور فنائه.

إن بروز العلوم الإنسانية يشترط تجاورها مع البيولوجيا و الاقتصاد والفيلولوجيا، من خلال انفصالها عن حقل الرياضيات « إن أول شيئاً يمكن ملاحظته هو خلو العلوم الإنسانية من التناقض المنطقي و جعلها ممكنة المعرفة هو ارتباطها بثلاثية الأبعاد فالعلوم الإنسانية إذا لا موضع لها إلا داخل هذه العلوم و المقولات»².

¹ : ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 358.

²: ريس زواوي، النظام المعرفي للعلوم الإنسانية ميشال فوكو، صفحات، ط1، دمشق، سوريا 2015، ص 81.

التفكير الفلسفي¹



1. القطاع السيكلوجي:

إن ما جعل العلوم الإنسانية ممكنة هو مجاورتها للأبعاد الثلاثة (اللغة، الحياة، العمل) و تمركزها داخل تلك العلوم جعلها تظهر اهتماما بالإنسان الكائن ذات موضوعا، إلا أن تألقها بالدقة و الوضوح العلمي يجعلها تتجرد من خصوصيتها، « فهي في نظره لا تتعدى كونها من الخطابات تتمحور حور الإنسان الحديث، وتتخذ منه موضوعا لها، ولا فائدة من اعتبارها فقط علوما زائفة فهي ليست علوماً على الإطلاق »².

إن كل الحقب التاريخية من النهضة إلى العصر الكلاسيكي حتى الحديث والمعاصر تحكمهم ابستيمية مميزة عن الأخرى خاصة بها، فمع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، انبثق هذا الكائن البشري، إن عمره لا يتجاوز قرنين فقط من خلال المضامين الثلاث. تُعد جاهزية الابستيمية العامة، هي المصدر الموثوق لتنشية العلوم

¹: عمر مهبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط3، 1993، ص 88.

²: الدواي عبد الرزاق، موت الانسان في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 165.

الإنسانية فهي المسؤولة على بناء الإنسان وتكوينه « فكل علم اذا درس على المستوى الأركيولوجي وكشفت أرضية وضعيته يبرز دائما الاطار المعرفي الذي يجعله ممكنا»¹ .

تحدث فوكو عن العلوم الإنسانية واتخذ من منهجه الأركيولوجي الأرضية الخصبة لتحديد ابستيمية كل عصر وكل حقبة تاريخية واعتبرها علوما خاطئة كونها تتألق إلى العلوم الدقيقة والموضوعية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث اعتبرها ليست علوماً على الإطلاق، إلا أنه أشار إلى الأبعاد الثلاث التي جعلها ممكنة زيادة على التحليل النفسي و الاثنولوجيا، يقول فوكو: « يحتل التحليل النفسي و الاثنولوجيا مركزا مرموقا في معرفتنا لأنها ارست وضعيتها بشكل أفضل من أي من العلوم الانسانية الأخرى، أو حققت مشروعها القديم بأن تصبح علمية عن حق؛ بل بالأحرى لأنها تُشكل من دون أي شك كنزاً لا يفنى، على تخوم كل المعارف الإنسانية من الخبرات والمفاهيم»².

أسفرت حفريات فوكو عن صوغ مفاهيمهم ومقولات جديدة من خلال الكشف عن المهمش واللامفكر فيه، فوجد أن علم النفس أو بالأحرى "التحليل النفسي"، الأقرب إلى الدقة والموضوعية مقارنة مع العلوم الإنسانية فوصفه بـ "الكنز الذي لا يفنى" عاد فوكو إلى الأرشيف كونه الأثر الباقي، من خلال خطابات العلماء والفلاسفة والمفكرين و المحللين النفسانيين، لكي يكشف امكانية قيام تلك العلوم فوجد "علم النفس" الأجدر بتسميته علماً.

« إن التحليل النفسي يتركز في بعد اللاوعي (...) يعني أنه يسعى قدما ليتخطى التمثيل ويفيض عنه من ناحية التناهي (...) ليبرز الامكانية العادية لوجود نظام و قاعدة ومعيار»³.

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 298.

²: المصدر نفسه، ص 304.

³: المصدر نفسه، ص 305.

يوضح قول فوكو السابق أن قطاع التحليل النفسي يرتقي إلى التمثيل هذا ما يجعله مغلق على نفسه، بالتالي يذهب هذا العلم في الاتجاه المعاكس، « نحو اللحظة الممتعة تحديدا على كل معرفة نظرية في الإنسان (...) خلافا للعلوم الإنسانية التي تبقى على الدوام في حيز ما يمكن تمثيله بالرغم من سيرها القهري نحو اللا وعي »¹.

إن تجربة اللا وعي التي يتكلم عنها فوكو هي : الموت " أو " رغبة الموت " التي بدورها لا نجد لها مكان داخل حقل الإنسان التجريبي إلا أنها العائد التي تحدد شروط المعرفة الممكنة للإنسان يقول فوكو: « يهيمن الموت على كل وظيفة سيكولوجية وينصب فوقها باعتبارها معيارها الوحيد والمدمر عندئذ نتعرف إلى الجنون في شكله الحاضر »².

2. الاثنولوجيا:

إذا كان التحليل النفسي يذهب إلى التمثيل من خلال القانون والقاعدة والدلالة زد على الرغبة و الموت ليرسم بذلك أرضيته التي تجعله ممكنا فإن الاثنولوجيا « تركز نفسها داخل العلاقة المميزة التي يقيمها العقل الغربي مع سائر الثقافات، ومن ثم تتبدي من خلف التمثيلات، المعايير التي انطلقا منها يقوم البشر بتنفيذ وظائف حياتهم »³.

يُعد كل من التحليل النفسي والاثنولوجيا علمان قائمين يسعان إلى بلوغ الحقيقة و كشف الغموض الذي تلبسه الطبيعة البشرية، إلا أن فوكو لا يقصد هذا التحليل وهذا المفهوم فالأجدر الاهتمام بهذين المجالين « لأنهما يتوجهان خارج الإنسان نحو ما يسمح بتكوين معرفة وضعية حول ما يقع داخل قطاع الوعي أو يفلت منه (...) يمكن من هنا فهم بعض الوقائع الحاسمة وعلى رأسها إن التحليل النفسي و الاثنولوجيا ليسا علمان انسانيين إلى

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 305.

²: المصدر نفسه، ص 307.

³: المصدر نفسه، ص 307.

جانب سواهما، بل هما يعبران كل قطاعاتها و يحركان كل مجالها وينتشران في كل مكان من مفاهيمهما»¹ .

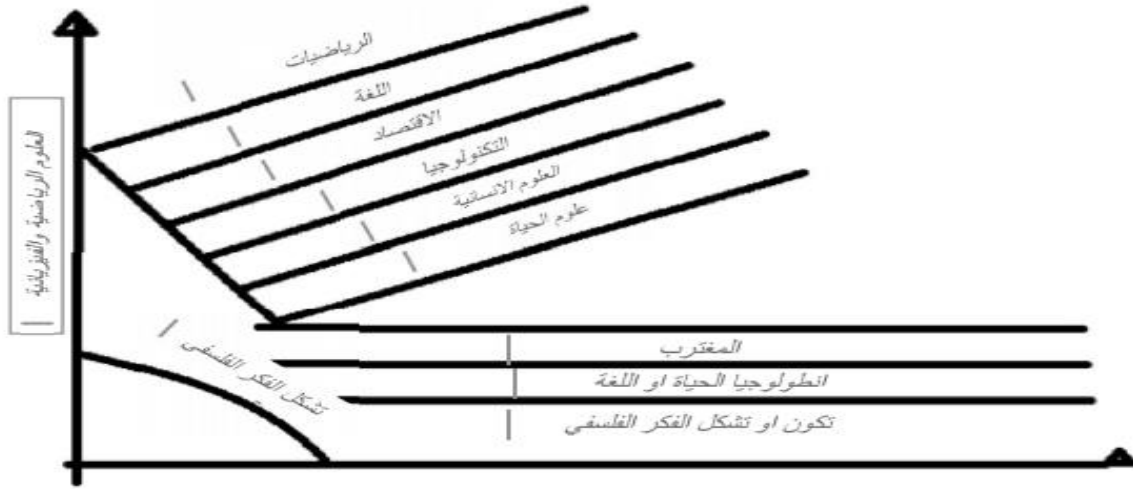
لا يمكن أن ندرس أو نفهم علوم الانسان دون هذين العلمين (التحليل النفسي والاثنولوجيا) إنهما علوما مضادة، تذييان الإنسان حسب قول "لوفي شتراوس"، فهما علمين يتجهان دائما نحوى حدوده (الإنسان) الخارجية، تلك المساحة الغابرة، المهمشة اللا واعية، فهما علمان يرتقيان للإنسان ليعيدانه إلى قاعدته المعرفية، من خلال تفكيكه والكشف عن لا وعي ثقافته ولا وعي تاريخيته يقول فوكو : « يعيد التحليل النفسي والاثنولوجيا، العلوم الانسانية إلى الوضعيات المحيطة بها، فالتحليل النفسي يعيد معرفة الإنسان إلى التناهي الذي يبررها »².

إن النماذج الثلاثة (العمل، الحياة، الفيلولوجيا) تكون دائما في تفاعل في ما بينهم من خلال استعانتها بمفاهيم (المعيار، القاعدة، الدلالة، النظام) و من وجهة أخرى هناك مناطق أخرى تستعين بها كالتحليل النفسي والاثنولوجيا فهي في علاقة تأثر وتأثير فمثلا في المجال البيولوجي، يلتقي الإنسان مع صفات متعددة الأوجه، ثقافية أو اجتماعية أو فيزيولوجية لأنه فرد في ذلك المجتمع، يستجيب ويتكيف ويؤثر ويتأثر، أما على المستوى الاقتصادي فهو كائن له رغبات و حاجيات، يسعى دائما لتحقيقها، تعد محطّ ارضائه. كذلك الجانب اللغوي، لأن العلوم الانسانية تتجه اليه كونه كائن يتكلم.

إن هذا المخطط يوضح الابعاد التي تشكل العلوم الانسانية و يوضح مكانتها الذي قامت بوضعه الباحثة "آني جيديه" Annie Guedia .

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء ، ص 308.

²: المصدر نفسه، ص 10.



من خلال الرسم التوضيحي¹ الذي قامت به الباحثة "آني جيديه"، يبين لنا المكانة التي خصصها فوكو للعلوم الإنسانية على أنها علوم مبهمة وملتبسة، وغامضة، و خاطئة أو إلى أبعد من ذلك علوم لا وجود لها أصلاً لأنها لا تتصف بالعلمية والدقة اليقينية فهذا ما يجعلها تختفي و تضمحل « إن العلوم الإنسانية ليست علوماً بمعنى الكلمة، حيث أنها لم تبلغ بعد من الدقة والتحديد العلميين ما يجعلها قادرة عن التقدم و التطور ولا تزال لحد الآن تشغل وضعاً يسميه فوكو بالوضع ما بعد الأبيستمولوجيا «Méta Epistémologique»².

3. التاريخ:

تندرج فلسفة فوكو، ضمن فحص ومسألة العقل الغربي، من خلال تقويض وتفكيك والحفر في مسلمات الحداثة، بإعادة التفكير في قضاياها واستنطاق المسكوت عنه والمهمش في أغوار التاريخ متبعاً لطريقتين؛ الوصف والأرشفيف.

عمد فوكو من خلال مشروعه الأركيولوجي على خلخلة منظومة المعرفة التاريخية تحدث عن العلوم الإنسانية، فحرص على تبيان خصوصية الخطاب في كل حقبة تاريخية، كذلك رسم حدود المعرفة من سيكولوجيا وسيبولوجيا والميثولوجيا، علاوة على

¹: عمر مهبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 88.

²: المرجع نفسه، ص 88.

الأبعاد الثلاثة، إلا أن موقفه من التاريخ موقف أمثاله من البنيويين، يقول فوكو: « صحيح أن التاريخ قد ظهر قبل نشوء العلوم الإنسانية، فقد قام منذ أقدم عصور اليونان، بعدد كبير من الأدوار الكبيرة في الثقافة الغربية، فكان ذاكرة، أسطورة و نقلا للكلمة والمثل، موصلا للتقاليد، واعياً نقدياً للحاضر، استشفافاً لمصير الإنسانية استباقاً للآتي و وعداً بالعودة، إن ما يميز هذا التاريخ - أو ما يمكن على الأقل أن يحدده في خطوطه العريضة بالمقارنة مع تاريخنا نحن- (...) لكن كنا نتمثل تاريخاً كبيراً أملس متناسق في كل جوانبه، يجر في تيهانه، في سقوطه أو في صعوده، في دورته، كل البشر و معهم الأشياء، الحيوانات، الكائنات الحية أو الجامدة»¹.

من خلال النص السابق يمكننا أن نستوعب موقف فوكو من التاريخ، فهو لا ينكر مكانته ودوره في الثقافة، إنه الذاكرة، الموصل للأحداث والتقاليد والثقافات «إن التاريخ عند ميشال فوكو هو تجاوز الموجود لنفسه في حركة الزمن»² إلا أن نظرتة إلى التاريخ وخاصة منه الغربي، نظرة مخالفة للتقليد الفلسفي، من خلال محاورة منهجية الأركيولوجيا للمناهج التاريخية الكبرى بغية تعريتها والكشف عن نقاط الضعف والنقص فيها.

اختلف فوكو مع الفلسفة الديكارتية، واعتبرها المسؤولة على تكوين نرجسية الإنسان وتعالیه كذلك في جعل الذات قادرة على أن ترتقي بمعرفتها الإنسانية إلى دقة الرياضيات وصرامتها، ثم اختلف مع كانط في لفظه أن الذات قادرة على التوحيد المرئي والملفوظ على أنها صور قبلية وكلية « حيث لم تعد ثمة حاجة لإحالة عبارة ما إلا الكوجيطو ارجاعها إلى ذات ترنسندننتالية تملك شروط امكانها أو اعتبارها من ابداع أن يتلفظ بها

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 300.

²: Frédéric Gros, Foucault et la folie, Puf, Paris, 1997, P23.

للمرة الأولى أو يستعيدها أو القول بأنها تعكس "روح عصر ما"، تحتفظ بها وتنتشرها وتُعيد تقطيعها»¹.

إن فوكو يقف في اتجاه معاكس، متحديا كانط، في نقطة القبلي و الكلي، لأن في حقيقة الأمر، حسب رأي فوكو، أن المرئي والملفوظ هما نتاج لواقع معاش، فسيرورة الإنسان تتغير حسب شروط، مثلا العمل له أنماط تتطور ورأسمال يصعد وينزل و أسعار تتأرجح و تتبدل وبالنسبة للغة التي تولد وتنمو ثم تفقد نشاطها وتهرم وتموت، كذلك الحال في المجال البيولوجي، كلها « صور بيانية مستوحات من البيولوجيا لا تهدف إلى تدويب تاريخها في زمن هو زمن الحياة، بل إلى التأكيد على أنها تخضع هي أيضا لقوانين وظيفية داخلية، وأن تاريخها يتطور وفق زمن مرتبط بالدرجة الأولى بتنافسها المميز»².

انتقد فوكو وبشدة التاريخ، الشمولي، الكلي القبلي، موضحا بذلك على أن كل حقبة زمنية لها ابستمية خاصة بها. إنه الواقع المعاش، إن التاريخ الذي يقوضه فوكو، هو تاريخ متعالي، فردي، إن النظرة الاتصالية للتاريخ هي في حقيقتها نظرة ضعيفة وهشة فقد قام فوكو بزعزعة تلك المعقولية التي رسمت لنفسها الأصل والتعالي للوصول إلى المطلق واليقين.

إن النقد الذي وجهه فوكو للفلسفة التاريخية، العقلانية، الشمولية، ليس هو الغاء للعقل وسيادة الغرائز والعواطف، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، إلى فك الرموز والتناقضات واستنطاق الأرشيف هذا ما شفع له بإيجاد مشروع جديد أو ثقافة جديدة، خاصة في موقفه من التاريخ أو فلسفة التاريخ التقليدية، نخص بالذكر هنا مرجعه الفكري للفلسفة القطائعية خاصة الباشلارية منها.

¹: جيل دولوز، المعرفة والسلطة مدخل إلى قراءة فوكو، تر: سالم يفوت، بيروت المركز الثقافي العربي، 1987،

ص 37.

²: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء ص 300.

يقوّض فوكو فكرة "الحدثية" ويستبدلها بالفكر اللا حدثي « ومنه تبرز أعماله كمؤرخ يهتم بالسجون ومرض الجنون والرغبة هذه المواضيع هي التي تفتح الباب و الآفاق لتاريخ اللا حدثي، التي تبرز فيه الفرديات والتي تغيب من الكلّي في الخطاب التاريخي»¹.

يوضح فوكو من خلال نقده الفلسفات التاريخية التقليدية، التي تعمل على تحويل التاريخ إلى علم قائم بذاته، تضبطه قوانين صارمة، محكمة، فالتاريخ حسب رأي فوكو يقوم على الانقطاعات و الانفصالات، لأن « التاريخ في ثوبه الكلاسيكي، كان يفترض الانفصال معطى لكنه غير قابل لأن يفكر فيه، إنه يظهر في صورة أحداث مبعثرة كالقرارات والحوادث والمبادرات والاكتشافات وما كان ينبغي الاحاطة به عن طريق التحليل بغية الغائه ومحوه و اقصائه كي يظهر اتصال الأحداث»².

بهذا ظل فوكو مجابها لفكرة الكليانية والشمولية التاريخية، بقدر ما هو واقع معاش، حدث مبعثر في حقب زمنية منقطعة ومنفردة برموزها، من خلال حركات التاريخ التي لا تقوم على شكل خطي، بل من خلال الممارسات الخطابية التي تحدد مكانها ودوامها وزوالها وفنائها. إن الأبيستمولوجيا الفوكوية هي باشلارية، تؤمن بالاعتبات والعوائق التي تحد وتقطع الطريق أمام لا محدودية المعرفة فالانقطاع هو الذي يحدد ابستيمية كل عصر، ويعين الحقل الذي تولد فيه.

« أما القيم الخيالية التي اكتسبها الماضي، و تلك الهالة الوجدانية التي احاطت به في تلك الحقبة ووعي التاريخ والاهتمام الحماسي بالوثائق أو الآثار التي خلفها الزمن وراءه، كل ذلك يوضح للعيان بكل جلاء أن الإنسان قد وجد ذاته مفرغا من التاريخ»³.

إن هذا النوع من الإنسان التاريخي، يجد نفسه مفرغا من التاريخ أصلا؛ لماذا؟

¹: بومحراث بلخير، (الخطاب و التاريخ في فلسفة ميشال فوكو)، مجلة تدوين، العدد 4، ديسمبر 2012، ص 72.

²: المرجع نفسه، ص 73.

³: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 301.

يجيب فوكو على تلك التاريخية الملتبسة، لأن الإنسان لا يدخل حيز العلوم الوضعية بما في ذلك تاريخه، لكن إذا اتصل بالأبعاد الثلاثة يوضع التاريخ في الحيز المعرفي « فبما أن الإنسان التاريخي هو الإنسان الحي، العامل، الناطق، فكل ما يتضمنه التاريخ أيًا كان فإنه يتعلق بالسيكولوجيا أو السيسولوجيا أو فقه اللغة، لأنه لا يمكن لأي من المضامين المدروسة في العلوم الإنسانية أن يبقى مستقرا في ذاته أو أن يُفقد من حركة التاريخ »¹.

يحتل التاريخ مكانة مميزة بالنسبة للعلوم الإنسانية، إنه يحدد الحدث الزمني و الانتماء الجغرافي، هو الذاكرة التي تنقل المثل والعادات و الأعراف و التقاليد، هو استشرافاً للمستقبل ووعياً للحاضر، و ناقلاً للماضي، إنه الموطن و المسكن، إلا أن فوكو لا ينتقد هذا النوع من التاريخ، بل يقصي سؤال العلمية الذي أراد أن يؤسس على إثره فلاسفة التاريخ الكلاسيكيين، بحيث يجعلونه علما صارما مثله مثل الرياضيات والفيزياء.

اقترح فوكو منهجه الأركيولوجي لتفسير ظاهرة التاريخ، من خلال سعيه في سبر أعماق المعرفة للكشف عن المسكوت عنه واستنطاقه، من خلال تعرية تلك الثوابت والأسس التي تتحكم في تنظيم المعارف في كل حقبة معينة، يقوم فوكو بعملية الحفر في الخطاب المعرفي ليصل إلى تلك القواعد التي تجعل من المعرفة ممكنة أو كشرط امكان هو ما يجعل تلك المعارف تظهر وما يجعلها تختفي، لأنه أصلا لا توجد حقيقة مطلقة بل هناك تأويلات - حسب رأي نيتشه- فلا وجود لحقائق كامنة، لأن ما يقال اليوم سوف يؤول بطريقة أخرى ومختلفة في يوم آخر «أصبحت العلوم الإنسانية تشكل عند ميشال فوكو على أنها ليس لها القدرة على تجاوز سياقات الخطابات المتحكمة فيها لأن الآليات السلطوية أضحت لها دور متعالي في تشكيل المعرفة»².

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 303.

²: jurgen Hebermas, le discours philosophique de la modernité, tard : Christian Bouclind homme, Gallimard, 1980, P 323.

اقتحم فوكو مناطقاً مظلمة، فاشتغل على خطاباتها من خلال الحفر في طبقاتها وتفكيك بنياتها متجاوزاً ثنائية الصحة والخطأ إلى مرحلة جديدة وهي « المفكر واللا مفكر فيه»، أراد فوكو أن يكشف التمثيل بين الكلمات والأشياء بين الممارسات الخطابية وغير الخطابية بين التشكيلات والأنساق المعرفية.

أصبحت الحقيقة عند فوكو عبارة عن هموم، فهي لا تكمن في القبض على جوهر الماهيات المحضة بعقول مطلقة، ولا هي سلسلة من المعارف المتواصلة، بل هي تفكك وتبعثر واختلاف من عصر إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. ذهب فوكو إلى أرض الواقع الحي والمعاش، كان شغله الشاغل يتمحور في الكيفية التي تشكلت بها المعارف والشروط الممكنة التي تتحكم فيها، لأن المعارف تتواصل وتتوالد وتتحوّل وتؤثر في بعضها البعض لكن كيف؟ ما الذي يتحكم في زمام التحولات والانفصالات لتلك العصور والحقب، كذلك في تلك الثقافات التي تقوم على الاختلاف؟

الفصل الثاني

الفضاء الإستيمولوجي-النبوي عند ميشال فوكو

المبحث الأول: مفهوم البنية والنسق.

المبحث الثاني: الانقطاعات الاستيمولوجية لبنية العقل الغربي قراءة فوكوية.

المبحث الثالث: النظرة النفسية والطبية- العقلية في خطاب ميشال فوكو.

المبحث الأول: مفهوم البنية والنسق

ابتداءً من 1966، أصبحت البنية "La structure" بمثابة موضة بعدما أعلن فريدريك نيتشه عن موت الاله. جاء فلاسفة البنيوية ليعلنوا بدورهم عن " موت الإنسان رغم اختلاف مشاربهم الفكرية إلا أنهم يشتركون في محاكمة النزعة الانسانية.

إن البنيوية هي عصر احتضار الإنسان بعدما كان الفلاسفة لا يتحدثون إلا عن "الوجود" أو "الذات"، "الإنسان" التاريخ"، أصبحوا الآن لا يؤمنون إلا بـ "البنية" و"النسق" النظام، "اللغة"، ترفض البنيوية "الوجود" و"الفيينومينولوجيا"، لأن كليهما يؤمنان بالعلاقة الاتصالية بين المعاش و الواقعي.

ترفض البنيوية كذلك ، كل من المنهج التاريخي والوظيفي يعرفهما العالم النفساني السويسري "جان بياجيه" Jean Piaget: « إن البنية هي نسق من التحولات، له قوانينه الخاصة باعتباره نسقا (في مقابل الخصائص المميزة، للعناصر)، علما بأن من شأن هذا النسق أن يظل قائما ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم به تلك التحولات نفسها دون أن يكون من شأن هذه التحولات أن تخرج عن حدود ذلك النسق، أو أن تهب بأية عناصر أخرى تكون خارجة عنه»¹.

لم تعد البنيوية مجرد تصور علمي، فلسفي ، بل تعدت الحدود؛ « أصبحت المفتاح العمومي "Passe-Portrait"، الذي يهيب به رجل الأعمال والنقابي وعالم الاقتصاد والمربي والنحوي والناقد الأدبي والمخرج السينمائي ورجل الإعلام والقصاص ومصمم الأزياء و المهتم بشؤون الطهو»².

¹: زكريا ابراهيم، مشكلة البنية، أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، القاهرة، مصر، د. س، ص30

²: المرجع نفسه، ص8.

إن كلمة البنية، واسعة المعالم، رقعتها تتسع إلى أكثر من مجرد أنها تيار علمي أو فلسفي، لها قوانينها التي يضبطها داخل نسق مغلق، تحركه مجموعة من العلاقات والتحويلات فيما بين تلك العناصر.

« أصبحت البنية تحمل طابع العصرية (...) بل أن لفظ " البنية" يحمل في تضاعفه تحقيق حلم العقل البشري الذي طالما وضع اليد على الموضوع من أجل احتباسه في شباك نظامه العقلي»¹.

جاءت البنيوية كتيار و مذهب نقدي، لتقوّض النزعة الإنسانية التي افترت في إنسانيتها، تسعى إلى تحليل الظاهرة وتفكيكها إلى عناصر من أجل فهمها وإدراكها.

يتراوح مصطلح البنيوية بين المذهب والمنهج، فقد « تكرر كثيرا القول أن البنيوية ليست مذهبا بل هي منهج: إذ لا يمكن للمرء أن يصبح بنيويا بالطريقة التي كان يمكن له يصبح بها وجوديا فليست ثمة نوادي بنيوية على الجانب الأيسر من النهر، وليس ثمة ملابس بنيوية ترتدي أو أسلوب حياة يتبع، لأن البنيوية ما هي إلا منهج بحث، طريقة معينة يتناول بها الباحث المعطيات التي تنتمي إلى حقل معين من حقول المعرفة بحيث تخضع هذه المعطيات - فيما يقول البنيويين - للمعايير العقلية»².

ظهور البنيوية لم يكن فجأة، لأن ما حدث في باريس في الستينات هو تحويل هذه المادة العلمية إلى موضحة فكرية ذاع صيتها في ذلك الوقت البنيوية من خلال مبادئها إلى تحقيق العلمية والدقة الموضوعية في البحث تضاهي دقة وعلمية الرياضيات. أرادت البنيوية أن تكون أكثر من سد لفراغ ضعف واضمحلال الوجودية. طمحت من خلال معطياتها الجديدة أن تؤسس مذهب فكري متماسك يتسم بالعلمية والروح النقدية.

¹: زكريا ابراهيم، مشكلة البنية، أو أضواء على البنيوية، ص 9.

²: جون ستروك، البنيوية وما بعدها، من ليفي ستروس إلى ديريدا، تر: محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1996، ص 9.

يقول فوكو : « لقد اكتشفنا لأنفسنا شيئاً آخر ... هوى و ولعاً جديداً، إنه الولع بالمفهوم و بما سأسميه بالنسق... هذا النسق السابق لكل نسق و الأساس والخلفية التي ينبثق منها فكرنا " الحر" و يومض للحظة خاطفة»¹.

حان الآن القطيعة مع الفلسفة التقليدية وعن تلك اللحظة الخاطفة التي سوف يتوج من خلاله ولعاً جديداً إنه النسق "Système". لقد تفجرت موضوعات الفلسفات التقليدية وزعزت مفاهيمها وخلخت مسلماتها.

إن ولع فوكو بالمفهوم "Concept" يعد نفس ولع البنيويين في اتجاهاتهم المختلفة والمتباينة فماذا يقصد فوكو بالنسق؟ يقول في التعريف التالي: « ... اننا نعني بالنسق مجموعة من العلاقات، تستمر وتتحوّل في استقلال عن الأشياء التي ترتبط فيما بينها... إنه فكر قاهر و قسري يدون ذات ومغفل الهوية وهو موجود قبل أي وجود بشري و أي فكر بشري»².

يشارك فوكو مع اسلافه البنيويين، في ايمانهم « جعل الفلسفة مبحثاً علمياً دقيقاً؛ لأن موضوع الفلسفات الكلاسيكية اعلنت أفولها، صار من العسير انتاج معارف وفق للأنموذج الرياضي العلمي الدقيق. إن اكتشاف فوكو للنسق سوف يؤدي به ضرورة والزاماً إلى الغاء وتقويض مفهوم الانسان، أو إلى أعماق من ذلك، سوف يعلن موت الانسان و ما تحمله الفكرة من دلالات النزعة الإنسانية.

أراد فوكو أن يقربنا أكثر لكي يعطي لنا مفهوم أكثر وضوحاً للنسق من خلال ضرب أمثلة « فيشبهه بالاكتشاف البيولوجي بأن الجينات نظاماً مرموزاً يحدد بكيفية مسبقة ما

¹: الدواي عبد الرزاق، موت الإنسان فوكو وآخرون، ص 131.

²: المرجع نفسه، 132.

سيكون عليه الكائن الحي و يحمل ضمنا على شكل رموز و سفرات جميع العلامات و العناصر الوراثية المقبلة»¹.

لم يخفي فوكو اعجابه الكبير بالتيار البنيوي، بل كان من ألمع المساهمين في فتح أفاق للتفكر الجديد، هذا ما نجده خاصة مع كتابه "العملاق"، "الكلمات والأشياء" انه عبارة عن امتداد جديد ودراسة بنيوية حديثة العهد في ميدان معاصر، فلم يستطع مقاومة إغراءاتها وجد فيه من تطلعاته وآماله لفتح آفاق جديدة والنهوض من السبات الأنثروبولوجيا الذي طال وقته و أن تتحرر العلوم الانسانية من خلال كسر قيودها وسقفها الحديدي، وتصبو نحو العلمية والدقة الموضوعية والصرامة المضبوطة، فلم تكن البنيوية مجرد منهج بل هي «وعي المعرفة الحديثة المستيقظ و القلق»².

حصر فوكو اهتمامه في البحث عن القواعد التي تشكل ابستيمية كل عصر، من خلال الحفر في الحقول المعرفية، و الكشف عن لا شعور الخطاب المعرفي و تعرية لا وعي العلوم، إنه ميدان مستقل ذاتيا. إن الشكل الذي وضعه فوكو للعلوم الانسانية يوضح لنا موقفه تماما من صحة تلك العلوم، في المقابل نجده ملهم باللسانيات و الاثنولوجيا والتحليل النفسي، التي تتصف بالعلمية والدقة والصرامة ففي الاستجواب الذي نشرته "الكانزين لتيرير" يقول فوكو : «... من الجلي والواضح أن علم اللسانيات الذي مارسه جاكسون قد شكل الينا ركائز قوية و متينة»³.

لم تعد اللغة في منظور البنيويين، تكتسب قيمتها من الدلالات التي تتواصل فيما بينها ولا مجالا يعبر فيه الإنسان عن أفكاره و آماله، و وصف حياته الشعورية

¹: الدواي عبد الرزاق، موت الإنسان فوكو وآخرون، ص 134.

²: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 221.

³ : Entretien avec M. Foucault, In la quinzaine littéraire° 46,1968.

والتصريح بهواجسه « لقد الغيت فيه الإحالة إلى العالم و الى المواقف المعاشة لفائدة إرادة الكشف عن البنيات الداخلية »¹.

لم يسلم فوكو ولم يكن معزولا عن ذلك المناخ الفكري في فترة الستينات، كانت فيه اللسانيات البنيوية تتصدر المراتب الأولى في المحافل الفكرية حسب رأي فيلسوفنا يعد تفكيرنا عبارة عن بنية مغلقة في عصر معين تحكمه لغة معينة، لها قوانينها الخاصة بها، قابلة للتحول. « إذ اعتبر جميع الممارسات، قولية وغيرها، تجليات لبنية نظرية مهيمنة في مرحلة تاريخية معينة، كما عمد في الكتاب نفسه إلى الممارسة الطبية في العصر الكلاسيكي من خلال لغتها و كيفية اشتغالها، وحاوّل رصد اللحظة التي أدت إلى ظهور الخطاب الطبي الحديث، كخطاب يملك نمطا من المعقولية خاصة به »².

اعتبر فوكو انجازات اللسانية البنيوية، قفزة حاسمة وأفق للتفكير من جديد، هذا ما نجده في كتاباته خلال الستينات، يؤمن فوكو بوجود نسق يتحكم ويسيطر ويمارس سلطة على الإنسان، أما تلك الذات الواعية فما هي إلا رسم على شاطئ البحر.

يولي فوكو اهتماما كبيرا في دراسته لعلوم الانسان وثقافته غير التاريخية فيكون للأنثروبولوجيا البنيوية وللتحليل النفسي، وقع و تأثير كبير لأنها: « لا تختلف الاثنولوجيا عن التحليل النفسي في اهتماماتها بالإنسان، لدراسته وضعيا، لاستعمالات تكميديه أو حتى من خلال تطبيقات لاختبارات أو مقاييس " Echelles، مما جعل علوم الإنسان لا نقول تأخر بأشواط بل لأن ممارسة هذه التقنيات جعل منها سلطة على المعالج وهي نفس

¹: الدوي عبد الرزاق، موت الإنسان فوكو وآخرون، ص 134.

²: المرجع نفسه، ص 135.

الممارسة للاتنولوجيا معرفة الهجمات الثقافية وفتراتها وممارسة عملها بصفة إحصائية وهنا أصبحت ممكنة بخضوعها للتجريب»¹.

وجدنا من خلال دراساتنا السابقة، تخصيص فوكو صفحات مهمة لكل من الاتنولوجيا والتحليل النفسي، لكي يقوم بإبراز أهمية كليهما، لماذا ارتقت كل الاتنولوجيا والتحليل النفسي إلى علمية ودقة المعارف والبيادين العلمية الأخرى فلم نجد علما بمنأى عن تأثير كلا المجالين؛ عمل كليهما على توصيل وربط الإنسان بالمجال اللساني، لاستخدامهما لميدان اللا شعور، انهما علوما مضادة.

يعد كل من التحليل النفسي والاتنولوجيا - تفكيك للإنسان واذابته، رغم أنهما اتخذتا من الإنسان موضوعا لهما، أصبحا يعدان علمين انسانيين إلا أنهما أعلننا اختفاء الانسان وزواله وموته «فالاتنولوجيا والتحليل النفسي ميدانين لنزع الملكية عن الإنسان وتهميشه؛ أي كمفهوم هو الإنسان. إذا هناك ثقافة جديدة غير ظاهرة، لكنها تتمظهر حول الانسان ونحتاج إلى اطراد مناطقها للكشف وتعيين ثقافة الاقصاء حول الإنسان»².

عمد فوكو إلى اكتشاف المجال اللا شعوري الذي يتحكم في نشأة العلوم، إنه النسق «تستمد البنيوية أصلها المعرفي من كتاب فراينان دي سويسر في كتابه محاضرات في اللسانيات العامة، حيث ذهب فيه إلى أنه يجب دراسة اللغة بوضعها نظاما قائما بذاته (...)» كما عمد الاتنروبولوجي "كلود ليفي شتراوس" إلى تحليل بنى القرابة التي مكنت من النظر إلى الإنسان بوصفه كائنا عاقلا كائنا اجتماعيا وناطقا و بالتالي تواصليا بلغة الفيلسوف "هابرماس" ³.

¹: راييس زواوي، في فلسفة فوكو بين الإنسان والحيوان خط رفيع، ط1، دار صفحات ، دمشق ، سوريا 2014، ص 69.

²: المرجع نفسه، ص 74.

³: الزواوي بغورة، الفلسفة واللغة، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، ص 154.

ترتكز البنيوية على الوصف التزامني متجاهلة الجانب التاريخي ودور الذات، هذا ما شكل فيما بعد نقطة جد مهمة لدى نقادها من مختلف الاتجاهات والتخصصات لكونها منتقمة للفرد والذات.

1- بين الأركيولوجيا والتحليلي الألسني البنيوي:

بتعارض الوصف والأركيولوجي مع التحليل الألسني البنيوي ربما يمكننا أن نضع هذه المقاربة في خانة - ما بعد البنيوية - يقول فوكو : « على خلاف ما يسمى التحليل البنيوي فاني لا أهتم بالإمكانيات الشكلية لأنساق كاللغة، ولكني أهتم بوجود الخطابات كأحداث لها وظائف وعلاقات وآثار»¹.

إلا أننا اذا تمعنا نجد جوانب بنيوية في اركيولوجية فوكو خاصة في موقفه من الذات ومن التاريخ ، لكن الجديد الذي أتى به يتمثل في دراسة مسائل اللغة والتاريخ ولغة الخطاب، بصيغة جديدة يصرح فوكو كتابه "أركيولوجيا المعرفة"، قائلا «لا ينبغي وصف مجموعة المنطوقات ككلية مغلقة ذات دلالة وافرة، بل كصوره تتخللها الفجوات ويطبعتها الانتشار ينبغي وصفه لا بإحالاته إلى فكرة يجول بذهن احدى النوات بل وصف عملية توزيعه وانتشاره الخارجي وذلك من أجل اكتشاف أشكال التراكم و النوعية، كما لا يعني الخروج بتأويل و إنما انشاء ما أعده وضعية "Positivité"»².

عمل فوكو على مسألة العقل الغربي من خلال اعادة التفكير في معالمه ووظائفه هدفه الرئيسي هو تعرية أساليب أوهمت ذلك العقل أنه مسيطر على واقعية وراهنيته من خلال تلك الممارسات الخطابية؛ بتشخيص الحاضر ناقداً، ومقوضاً المسلمات

¹: الزواوي بغورة، الخطاب، بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 108.

²: المرجع نفسه، ص 109.

والبدهييات التي طالما تغنى بها التراث الفلسفي، كما يسميها نيتشه بالأصنام. « من أجل امتلاك بطاقات هوية الانتماء إلى الفكر الفلسفي »¹.

تغنت النزعة الإنسانية بالحقيقة المطلقة والمركزية، إلا أنها خنقت الإنسان وقتلته بتكميم خصوصيته. الحقيقة لا تكمن في المطلق والأبدي بل في التعدد والتنوع والاختلاف، إن غاية فلاسفة ما بعد الحداثة، تكمن في معايشة الواقع وتحليل الحاضر والكشف عن ملبساته. يقوم تشخيص فوكو للواقع على التعدد والاختلاف واللامركزية « ذلك أن الفكر ليس ما يجعلنا نؤمن بما نفكر أو نرضى بما نفعله، بل هو ما يجعلنا نطرح مشكلة ما نحن عليه بالذات، ليس عمل الفكر أن يدين البشر الذي قد يسكن كل ما هو موجود بل أن يستشعر الخطر الذي يكمن في كل ما هو مألوف و أن يجعل كل ما هو راسخ موضوع الإشكال»².

يوضح لنا النص السابق دعوة فوكو الصريحة، إلى الثورة وللنهوض ضد كل ما هو مألوف، رُسخ في اذهاننا بالقوة، وعدم الرضى بما هو معاش، بل ضروري و الزامي أن نقوم بأشكلة واقعا.

إن من أهم المفاهيم و المواضيع التي لم تغب عن النصوص الفوكوية " مفهوم الخطاب" Discour، فما المقصود بالخطاب؟ يقول فوكو مجيبا على استفهامنا: « مثلما تنتمي الجملة إلى النص والقضية إلى مجموع استنباطي، غير أنه اذا كان انتظام الجملة، يتحدد بقواعد اللغة، وانتظام القضية بقوانين المنطق فان انتظام العبارات يتحدد بالتشكيلة الخطابية ذاتها، لذا فإن انتماء العبارة وقانونهما يمثلان ذات الشيء وليس في ذلك

¹: بومحراث بلخير، الخطاب والتاريخ في فلسفة ميشال فوكو، ص 67.

²: هيوبرت دريفوس وبول رابينوف، فوكو، مسيرة فلسفية، تعريب جورج أبي صالح، مركز الانماط القومي، بيروت، لبنان، د.س، ص 204.

*: الإشكالية صمام الامام، في التميز بين الحقيقة والرّيف، باعتبارها أداة التحليلية هدفها الحقيقة فقط متخذة من أنطولوجيا الذات ميدان لتمرّس فيه ودراستها لتحجب الذات، وتوضيح الحقيقة في رهبانيتها المعاشة.

تتناقض، ما دامت التشكيلة الخطابية لا تتميز إطلاقاً بمبادئ بناء، بل بتبعثر حقيقين وهو تبعثر لا يمثل بالنسبة للعبارات شرط إمكانها بل قانون تواجدها»¹.

إن الخطاب بالتالي هو مجموعة من العبارات تكون في تشكيلة خطابية، انتاج ذهني، يكون عبارة عن نصوص مكتوبة سواء كانت شعراً أو نثراً، أو منطوقاً فردياً أو جماعياً. من خلال مقارنة فوكو نفهم الفرق بين اللغة والخطاب والمنطق، إذا كانت الجملة تنتمي إلى النص وانتظامه يتحدد وفقاً لقواعد اللغة، إذا كانت القضية تنتمي إلى مجموع استنباطي وانتظامها يتحدد وفقاً لقواعد وقوانين المنطق، فإن انتظام العبارة يتحدد وفقاً للتشكيلة الخطابية، هذا نجده جلياً في الكشف عن ابستيمية كل عصر من خلال الثلاثي "الاقتصاد، اللغة، البيولوجيا"، لأن تحليل الخطاب هدفه ليس الكثرة ولا ثراء المعاني بل هدفه التبعثر والندرة، إنه عدد محصور العبارات « فالخطاب ليس شكلاً مثالياً و لا زمنياً له، بالإضافة الى تاريخ ولا يكمن جوهر المشاكل في التساؤل عن أسباب انبثاقه وظهوره في هذه اللحظة المعينة من الزمن أو تلك، فهو تاريخي من جهة و من جهة إلى أخرى جزء من الزمن وحدة وانفصال في التاريخ ذاته»².

يمكن أن نستخلص من هذا التعريف، أن هناك حسب الطرح الفوكوي ميدانين هما: الممارسة الخطابية التي تقتضي المنهج الاركيولوجي والممارسات غير الخطابية والمتمثلة في الجانب المؤسساتي والأجهزة الأيديولوجية والتي تقتضي بدورها المنهج الجينيولوجي. السؤال المطروح ما المقصود بالممارسة الخطابية؟.

2- مفهوم الممارسة الخطابية:

يوضح فوكو تعريفاً للممارسة الخطابية يقول فيها: « هي مجموعة من القواعد الموضوعية والتاريخية المعينة والمحددة دوماً في الزمان والمكان في فترة زمنية بعينها،

¹: هيوبرت دريفوس وبول رابينوف، ميشال فوكو، مسيرة فلسفية، ص 205.

²: ميشال فوكو، حفریات المعرفة، ص 108.

وفي نطاق اجتماعي واقتصادي وجغرافي أو لساني»¹، إن مفهوم الممارسات الخطابية من أبرز المفاهيم التي نجدها في تحليلات فوكو، كما يصفها "دومنيك لوكور" "Lecourt"، « هي النقطة الفاصلة في علاقة فوكو بالبنيوية و التحليلات اللغوية وذلك لأن ما يعنيه فوكو بكلمة ممارسة ليس نشاط الذات، بل الوجود الموضوعي و المادي لبعض القواعد التي تتحكم في الذات عندما ترتبط بالخطاب»².

يتجه الخطاب نحو الاهتمام بالأصول، بالتالي يتجاوز الذات وهذا ما يجعل الممارسة الخطابية متجلية في كتب فوكو الأولى كـ "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"، "مولد العيادة"، "الكلمات و الأشياء" «... رغم أن فوكو يعلن أن مشاريعه المستقبلية ستتناقشها المنهجية الاركيولوجية والجينياالوجية، إلا أن المتقضي يستنتج أن الاركيولوجيا، تنتمي أكثر إلى مرحلة الممارسة الخطابية؛ مرحلة الجنون والعقل والطب واللغة أكثر من انتماءها إلى مرحلة الممارسات غير الخطابية الخاصة بالسلطة والجسد و التي ستعالجها الجينياالوجيا»³.

وللممارسة الخطابية ثلاثة أوجه: **أولاً:** « لا تحيل الممارسة الخطابية إلى الذات ولا إلى العملية التعبيرية ولا إلى المقدرة الشخصية. **ثانياً:** تتحدد بالقواعد الموضوعية والتاريخية المعينة والمحددة في زمان ومكان معينين. **ثالثاً:** تحدد هذه القواعد الموضوعية الوظيفية المنطوقية والخطابية»⁴، هذا ما يوضح لنا الممارسات الخطابية، أما غير الخطابية، تهتم بالحياة الاجتماعية والاقتصادية المؤسسات (كالسجون والمستشفيات و المكاتب والمصحات والثكنات... الخ) حسب قول فوكو «إن الممارسة الخطابية تعنتي بالخطاب،

¹: M. Foucault, l'archéologie du savoir, Ed Gallimard, Paris, 1969, P250.

² : الزواوي بغورة، الخطاب، بحث في بنيته و علاقاته عند ميشال فوكو، ص 90.

³ : المرجع نفسه، ص 131.

⁴ : المرجع نفسه، ص 91.

أما الممارسة غير الخطابية فتعتني بالنواحي المادية و هي حقل مؤسساتي و مجموع أحداث و ممارسات و قرارات سياسية و لتسلسل سياقات اقتصادية «¹.

3-عناصر الخطاب :

إذا كان الخطاب هو عبارة عن مجموعة من المنطوقات، تنتمي إلى نفس التشكيلة الخطابية التي تستطيع وحدها أن تحدد شروط إمكانها وجودها، بالتالي يقصد فوكو بالمنطوق هو النواة الأولى للخطاب، ذلك الجزء الذي لا يتجزأ. لكن قبل هذا كله يجب التساؤل عن مقصود المنطوق، وماذا يعني؟

يقول فوكو « استعملت في مناسبات عدة لفظ " المنطوق"، تارة لأشير به صيغة جمع المنطوقات و تارة أخرى لأميزه عن تلك الخطابات، إنه جزء لا يتجزأ إنه قابل لأن يستقبل بذاته لكي يقيم علاقات مع منطوقات أخرى، بالتالي فإن المنطوق أبسط جزء في الخطاب»².

إن علاقة المنطوق بالخطاب علاقة الجزء بالكل، إلا أنه قابل لأن لا يشترط دائماً وجود الخطاب، لقدرته على أن يشتغل بذاته وهذه تعد ميزة للمنطوق، و لكي نفهم بدقة "المنطوق" سوف نتطرق إلى مقارنته بـ ؛ "اللغة"، "الإشارة"، "الجملة"، "القضية"، "فعل الكلام".

أولاً : المنطوق واللغة:

إن المنطوق هو الذرة و النواة الأولى بالنسبة للخطاب، هذا ما يؤدي حتماً و إلزاماً إلى تلك العلاقة الضرورية بين المنطوق و اللغة، حيث أنه بدون منطوق لا يمكن أن تكون لغة، فاللغة ليست في كل الحالات لكن لا تكتمل منظومتها إلا عن طريق منظومة

¹: M. Foucault. l'archéologie du savoir, op, cite, 181.

²: Ibid, p108.

المنطوقات، لأنها وفي أحيان أخرى يمكننا أن نعرف اللغة على أنها تعبيرات سواء بالنطق أو الرسم أو الإشارة أو بتغيرات شعورية فيزيولوجية، بالتالي ليس كل منطوق شرطاً ضرورياً لوجود اللغة، يقول فوكو: « إن اللغة يقطنها دوماً آخر وخارج مناء بعيد هو في جوفها يقبع الغياب»¹. « بالتالي فإن اللغة بهذه الخصوصية لا يمكن إلا أن تكون نظاماً مفتوحاً، أما المنطوق فهو الواقعة التاريخية أي ما حدث وتحقق، إنه إذن ذلك العنصر من اللغة الذي يتشكل في صيغة وثيقة أو جملة أو قضية أو فعل لساني»².

إن ما نفهمه من السياق السابق أن ميزة المنطوق تكمن في: **أولاً**: يعتبر النواة الأولى للخطاب، **ثاني** صفة هي الحدث Evénement، لأن المنطوق، « حدث غريب»³، نجده في الكتابات وفي النطق، يعني في اللغة وفي الوثيقة، هذا ما يجعله قابل للاسترجاع والعودة إليه يشكل المنطوق في اللغة ولقد ابرزنا تلك العلاقة بينهما ويحفظ و يدون في الوثيقة.

ثانياً: المنطوق والإشارة:

« يساوي فوكو بين المنطوق والإشارة أو العلامة، و يجعل من كل منطوق، إشارة أو علامة»⁴. إن طبيعة العلاقة بين كل من المنطوق والإشارة، تتسم بالتساوي يقول فوكو: « المنطوق وظيفة وجود تنتمي برمتها إلى الإشارات وانطلاقاً واعتماداً عليها: نستطيع البت فيما بعد عن طريق التحليل أو الحدس، فيما إذا كان لتلك الإشارات معنى أم ليس لها»⁵. إن وجود المنطوق يستلزم وضروري وجود الإشارة سواء كانت وحدة أو مجموعات فالعلاقة تبقى متساوية، إن المنطوق بمختلف جوانبه وصيغه ينتمي إلى

¹: الزواوي بغورة، الخطاب، بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 79.

²: المرجع نفسه، ص 79.

³: M.Foucault, l'archéologie du savoir, P 58.

⁴: المرجع السابق، ص 79.

⁵: المرجع نفسه، ص 79.

الإشارة وإن هذه العلاقة تعد إحدى الميزات الرئيسية في مفهوم فوكو للمنطوق الذي يعد النواة الأساسية للخطاب.

ثالثاً: المنطوق والجملة :

ليس كل منطوق هو جملة، فهناك أحرف وأسماء وأفعال لا تشكل جملة لكنها وفي الوقت نفسه تعتبر منطوقات « بالنسبة للتحويل النفس، مجموع لعناصر اللسانية التي يمكننا أو لا يمكننا أن نتعرف فيها على صورة الجملة»¹، يعني أن المنطوق عنصر ضروري للجملة، لأنه لا يمكن لنا أن نتعرف أو نعطي مفهوم للمنطوق من خلال التحويل النحوي أو الخصائص النحوية للجملة و هذا يعني أن « المنطوق يمكن أن يكون أبسط من الجملة أو يعادلها أو يساويها »².

رابعاً: بين المنطوق و فعل الكلام:

إن فعل الكلام: « مصطلح اللساني استعمل منذ العقد الثالث من القرن العشرين إلا أن معناه الفلسفي من إبداع "أوستين"»³. يقول "عاد فاخوري": « يعتبر فيلسوف "اكسفورد جون أوستين" المؤسس لهذه النظرية. انطلاقاً من الفكرة بأن الوحدة الصغرى للاتصال الإنساني ليست الجملة و لا أية عبارة أخرى، بل هي انجاز بعض أنماط من الأفعال (...). إن محاضرات أوستين جمعت تحت اسم "كيف تصنع الأشياء بالكلمات" »⁴.

أما عن فوكو فهو يساوي بين المنطق وفعل الكلام ووجود الواحد يشترط وجود الآخر، ينظر فوكو من خلال نظريته الأركيولوجيا لتحليله لتلك العلاقة وإبراز طبيعتها من خلال المنطوق ووظائفه التاريخية والمعرفية والسياسية.

¹: الزواوي بغورة، الخطاب، بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 80.

²: المرجع نفسه، ص 80.

³: المرجع نفسه، ص 81.

⁴: عاد فاخوري، نظرية الأفعال الكلامية، في موسوعة الفلسفة العربي، المجلد الثاني، ص 1330.

وفي الأخير يمكننا القول أن فوكو يرى من خلال حفرياته أن كل من المنطوق و الفعل اللساني هما فعلا واحداً.

خامسا: بين المنطوق والقضية:

تتكون القضية من موضوع ومحمول ورابطة والوحدة الأولى للمنطق و لا ترتبط أساسا بالمنطوق لأن « المقاييس التي تسمح بتحديد قضية ما ويتميز عدد آخر من القضايا داخل وحدة صيغة ما، و إظهار استقلالها و اكتمالها لا تصلح لوصف الوحدة المتميزة للمنطوق»¹.

يختلف المنطوق في نظر فوكو عن اللسانيات والمنطق « وهو ما يسمح بالقول أن ميشال فوكو يحاول تأسيس اتجاه جديد في الدراسات اللغوية و الفلسفية»².

الفرق يمكن في أن القضية لا تحتل الصدق والكذب معاً أو أن تكون قضية فاسدة، أما المنطوق أن يكون نص شعري، رسالة مبهمة ومجهولة أو هذيان. لم يبق فوكو معزولا عن الحركة البنيوية التي سادت الثقافة الفرنسية ولقد انتقل من موقف الإعجاب إلى موقف التنبئ، اقتداء باللسانيات والتحليل النفسي الجديد والأبحاث الأنثروبولوجية الجديدة حيث عمد فوكو إلى طرح اكتشاف جديد وهو اللا شعور المتحكم في نشأة العلوم والمعارف، من خلال ذلك النسق الجديد الذي يطلق عليه الابستيمي. ومن ثمة الغاء مفهوم الانسان كموضوع للعلوم الإنسانية.

إن العمل الفوكوي يقوم أساسا على التمييز بين طبيعة الرؤية أو المشاهدة وبين طبيعة الكلام أو القول بتعبير آخر بين المرئي والمنطوق³.

¹: الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 80.

²: المرجع نفسه، ص 81.

³: Gilles Deleuze, Foucault, Ed Minit, Paris 1986, P 57.

لا يعترف فوكو بأنه باحث في العلوم الإنسانية، بل هو مجرد ملاحظ من الخارج يدرس ويصف خطاب تلك العلوم، بالتالي اهتم بتعريف تلك الانتقاعات و الانفصالات وكشف عن الثوابت التي تحكم الحقل المعرفي والفكري « إن فوكو ومن فوق قمة هرمه الابدستمولوجي قد أصدر حكمًا بالإعدام على العلوم الإنسانية جميعا بما فيها "علم النفس" و "علم التاريخ و"علم الاجتماع" و "الأنثروبولوجيا"... الخ»¹.

يرفض فوكو تسميته بالبنيوي، رغم أنه متبنيها من خلال رفضه وتقويضه للعلوم الإنسانية، والفينومينولوجيا والمذهب الوجودي، لإيمانهم واعتقادهم بالاستمرارية على عكس فلسفة فوكو الانفصالية والقطئية، من جهة أخرى ترفض البنيوية المنهج التاريخي وهذا ما نجده متجليًا في نقد فوكو للتاريخ التقليدي الذي يميل إلى السرد الحكائي والأسطوري، بينما يغفل عن مواضيع هامشية تعد عند فوكو " أفق التفكير من جديد".

انطلقت بنيوية فوكو الثقافية من معادلة تقول « أن البنية = اللا شعور الرمز = النموذج = اللغة»². يدعو إلى عدم الثقة في العلوم الإنسانية لأنها تضر الفكر « إنها تصيبه بنوم جديد»³.

تعتبر البنيوية سيدة العلم و الفلسفة، ابتداء من سنة 1966، حيث كان الفلاسفة والمفكرين لا يشغل بهم إلا المجال و الحقل الوجودي، موضوعاتهم مع الانسان ووعيه وتاريخه وشعوره، أصبحوا بعد حروب الردة لا يكادون يتحدثون إلا عن "اللغة" "النظام، "النسق" .

« لقد أصبحت اللغة تحاصر الذات من جميع الجهات، إنها الذات التي احتلت وإلى الأمس القريب، مكان الصدارة و مركز العالم، أصبحت اللغة الآن هي التي تقول الحقيقة عنها، إن ما يلوح في أفق الامكانيات القصوى للغة هو النهاية الوشيكاة للإنسان و بعد أن

¹: زكريا ابراهيم، مشكلة البنية، ص 138.

²: المرجع نفسه، ص 235.

³: فؤاد زكرياء، الجذور الفلسفية للبنائية، حوليات، كلية الآداب، جامعة الكويت 1980، ص 286.

حاول كل كلام ممكن و بعد أن استنفذ كل امكانية للكلام، لم يزد إلا اقتناعاً بأنه أسير اللغة و مغموراً بها (...) ولم يصل إلى أعماق ذاته ولا إلى صميم نفسه، كما كان يأمل بل أشرف على النهاية على حافة ما يحدده، أي على تلك المنطقة التي يحوم حولها الموت و تخمد فيها جذور الفكر».

إن نشأة الوعي الحديث بالفرد الحي، المتكلم، العامل، أدت إلى ظهور نوع جديد من الثقافة خاصة بالإنسان وميلاد لذات عارفة تارة وموضوع للمعرفة تارة أخرى.

« لقد انبثق الإنسان في حقل المعرفة كموضوع جديد للتفكير وككائن حي يتكلم ويعمل يخضع في وجوده العيني والمعاش للحياة والعمل واللغة بحيث لا يستطيع التفكير في نفسه، إلا باعتباره محددًا بها لا تحصل معرفة عنه إلا من خلال أجهزته العضوية وكلامه ونتاجات عمله»¹.

اقتحم فوكو مناطق، فأشتغل على خطاباتها من خلال الحفر في طبقاتها وتفكيك بنياتها متجاوزاً مقولات الصحة والخطأ. أراد أن يكشف التماسك بين الكلمات والأشياء بين الممارسات الخطابية وغير الخطابية، بين التشكيلات الخطابية والأنساق المعرفية.

أصبحت الحقيقة عند فوكو عبارة عن أوهام، إنها ليست القبض على ماهيات محضة بعقول مطلقة، ولا هي سلسلة من المعارف المتواصلة، بل هي تفكك وتبعثر واختلاف من عصر إلى عصر آخر، ومن ثقافة إلى ثقافة أخرى.

تساءل فوكو عن " كيفية تشكل المعرفة " و " الشروط الممكنة المتحكمة في النظام

الابدستمولوجي.

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 395.

سوف نتطرق في المبحث الثاني، إلى محاولة ملامسة الاجابة على تلك الاستشكالات من خلال العناصر أو الأعمدة الثلاثة التي وضعها فوكو ودرس بها كل حقبة من الحقب الثلاث (عصر النهضة/العصر الكلاسيكي/العصر الحديث) موضحًا بذلك ابستيمية كل عصر ونظامه المعرفي القائم على الاستمرارية والقطائعية.

المبحث الثاني: الانقطاعات الاستمولوجية لبنية العقل الغربي قراءة فوكوية

مما لا شك فيه أن حقبة الستينات هي ميلاد العلوم الإنسانية وموتها في آن واحد، نزع عن تلك العلوم القداسة وأعلنت الفلسفة المعاصرة عن «موت الانسان» موتا جينياولوجيا مع نيتشه" F. Neizsetch وبنويوا انثروبولوجيا مع "لوفي ستروس" "L.Straouss" إلى أن غدا الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو "M.Faucoult" ليبشر هو كذلك من خلال الأركيولوجيا عن موت الإنسان اجتماعيا و معرفيا.

لقد أحدث فوكو زعزعة في الثقافة الجديدة، كرس فلسفته لدراسة البدايات الأولى للتعامل مع الإنسان من خلال موته اجتماعيا ومؤسستيا، هي هزة في الأنظمة المؤسستية، تقهقرت المنظومة المعرفية واختفت، يقول عمر مهيبيل « يجب أن نؤكد منذ البداية أن فوكو لا يؤرخ لتاريخ الأفكار بل إنه يحاول أن يؤكد الانقطاعات الاستمولوجية التي وقعت في تاريخ الفكر الغربي»¹.

اقترن اسم ميشال فوكو بإشكالية موت الإنسان عن داخل العلوم الانسانية هذا الاقتران « جعله يستبدل تموضع الخطاب من التاريخ إلى التوظيف الأركيولوجي بمعية التاريخ، أكسبه توظيفه لهذه الأخيرة شهرة في خطاب موت الإنسان»².

إن تفكر فوكو في الإنسان وفي علومه من خلال نقد الميتافيزيقا، والإطاحة بتلك الذات التي طالما تغنت بسراب المركزية، نجد هذا التفكر متجليا في كتابيه "الكلمات والأشياء" و "حفريات المعرفة" أضحي مشروع الحداثة، موضوعا معاد قراءته بل أكثر من ذلك أصبح موضوعا ينذر بأفوله واضمحلاله.

¹: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 43.

²: ريس زاوي، اشكالية موت الانسان، في خطاب العلوم الانسانية، مكتبة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2016، ص 26.

يعتبر ميشال فوكو نقطة مفصلية في التفكير البنيوي الفلسفي المعاصر، على خلاف الرواد الأوائل في مجال اللسانيات والأنثروبولوجيا وعلم النفس، قام هذا الفيلسوف الغاضب بتعرية الأرضية التي تأسس عليها الفكر الغربي يقول عمر مهيبيل: « إنه نقد داخلي ذاتي، يغوص في عمق الاشكاليات المطروحة دون مجاملة أو مهاندنه، ويستخدم معارفه المتعددة حول هذه البنية لتسريحها والبحث عن المعقولة الكامنة وراء تحولاتها المستمرة وقد تجسدت استراتيجيته الحفرية النقدية من خلال أبعاد ثلاث: 1- بعد اجتماعي - واقعي / 2- بعد نظري عقلي / 3- بعد سياسي - أخلاقي»¹.

نفهم من السياق السابق أن فوكو حاول أن يبني صرحا فلسفيا متكاملًا ينجلي تحته نظرية المعرفة/ النظرية السياسية/ النظرية الأخلاقية، إننا وإن وجدنا نقاط تماس مع أبحاث "لوفي ستروس" الأنثروبولوجية و أبحاث "كان" النفسانية المتعلقة بالفرويدية أساسا، كذلك تأويلات "التوسير" الوضعية الفلسفية الماركسية، إلا أن فوكو استهل مشروعه الأركيولوجي باللجوء إلى استخدام مفهوم الابستيمي لكي يقوض به اسس ومسلمات القضايا الميتافيزيقية ويزيل الشوائب عنها من خلال عملية الحفر، فالأركيولوجيا ليست هي الأنثروبولوجيا ولا هي سيكولوجيا ولا هي جينياولوجيا، لأن كل واحد من هؤلاء يقدم عملا مميز عن الآخر. يقول ميشال فوكو: « إن الإنسان أصبح مسيطرا من قبل العمل، الحياة، اللغة، فوجوده مرتبط بهذه الحتمية وهذا من خلال ما ينتجه »².

إن مفهوم العلوم الإنسانية عند فوكو، يتوقف على ربطه بهذه الحتميات الثلاث: اللغة، الحياة، العمل. هو ذلك الكائن الذي أوجد اللغة ليحافظ على الحوار والتواصل

¹: عمر مهيبيل، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار العربية للعلوم (منشورات الاختلاف)، ط1، بيروت، لبنان 2005، ص 215.

² : Maritti (Engek. Kremer) M.Faucoult, Archéologie et Généologie, op, cit, P 13.

الاجتماعي (الادل والمدلول)، كذلك هو العملي والمنتج، وهو الكائن الذي يسعى ليعيش بفكره.

إن المساءلة الفوكوية «ما هو الإنسان»؟ تعود بنا إلى الفلسفة النييتشوية، فنييتشه بدوره طرح هذا التساؤل من هو الإنسان؟ من المتكلم؟ هذه إشارة إلى إرتباط الإنسان باللغة دون نسيان العمل والحياة فمن خلال هذه المقولات الثلاثية الكبرى برز الإنسان تاريخيا « نفهم هكذا كيف تستطيع تلك المقولات الثلاثية الكبرى أن تنظم حقل العلوم الإنسانية »¹، يرى فوكو أن العلوم الإنسانية ليس لها موضوعًا محددًا «إنها على خلاف العلوم الأخرى لا تسعى إلى الشمول والدقة في منهجها بقدر ما تسعى إلى فضح أوهامها باستمرار... لانتقال إلى ما هو أكثر أهمية»². إن دراسة الانسان عند ميشال فوكو ليس هو انسان واع، حر، مفكر، بل هو انسان لا واعي، مهمش لا مفكر فيه « لم تظهر العلوم الإنسانية. إن حصر العلوم الإنسانية نتيجة ضغوط بعض العقلانيات أو نتيجة بعض المشاكل العلمية التي استعصى حلها، وإنما ظهرت يوم أضحي الإنسان في الثقافة الغربية ما يجب التفكير فيه»³.

يوجه فوكو من خلال نصه السابق نقدًا لاذعًا للمذهب العقلاني خاصة الديكارتية « أنا أشك، أنا أفكر، إذن أنا موجود » لأن نشوء العلوم الإنسانية كان على غرار العقلانية، ثم على غرار المواضيع العلمية، بذلك تصبح مجرد خطابات غير منظمة « فهي في نظره لا تتعدى كونها من الخطابات التي تتمحور حول الإنسان الحديث وتتخذ منه موضوعا لها، و لا فائدة من اعتبارها فقط علومًا زائفة فهي ليست علومًا على الإطلاق»⁴.

¹ : M. Foucault, les mots et les choses, Ed ; Gallimard, Paris, 1966, P 13.

² : ميشال فوكو، الكلمات و الاشياء، ص 296.

³ : المصدر نفسه، ص 298.

⁴ : المصدر نفسه، ص 356.

إن حصر العلوم الإنسانية في خانة العلوم الدقيقة، وجعلها علوم أكثر دقة، ثم اعتمادها على خطاب الحداثة يضعها في مأزق محكوم عليه بالفشل.

« تحدث عن مفهوم المطمور في المعرفة وهو الإنسان فهو بالنسبة إليه معلم مميز منوط بحقل متنوع يحتاج إلى تأهيل وتجديد لنظامه المعرفي، ظهوره كان بإيعاز تبعثر العلوم الإنسانية حتى نشأ شبه إنسان وهو الكائن، أما الثاني فهو عموم التبعية المشتركة لا تميز (الكائن)»¹.

حدد ميشال فوكو نماذج ثلاثة مرتبطة بتاريخ العلوم الإنسانية، يقول في كتابه الكلمات والأشياء « كان الانحراف أن يقود في الأخير العلوم الإنسانية من شكل كثيف إلى نموذج حي إلى شكل جد مفعم للنماذج مفترضة في اللغة، بيد أن هذا الانزلاق أضعف كاهل آخر، كاهل الذي أخلف أول مفرد لكل مزدوجات التركيب (الوضعية الراح والمعنى) وأظهر بعزم بالغ أهمية المفردات الثاني (المعيار، القاعدة، النظام)»².

كان في البدء الاهتمام بالإنسان من خلال وظائف يؤديها، باتخاذ اللغة النموذج الذي يحفظ كيانه، ثم باتخاذ التنظيم ليندمج في مجتمعه ليحقق حاجاته النفسية والفيزيولوجية وما يتعلق من صراع من خلال جملة القواعد والقوانين.

يقول ميشال فوكو « إن الإنسان بدوره يدخل وللمرة الأولى في ميدان المعرفة الغربية، وبشكل غريب - فالإنسان الذي تعتبر معرفته في نظر العيون السانجة اعظم بحث عند "سقراط" - ليس دون شك شيئاً أكثر من مجرد تمزق ما في نظام الأشياء و تشكلا على كل حال، رسمه الوضع الجديد الذي أخذه مؤخرًا في المعرفة»³.

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 183.

²: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 61.

³: المرجع نفسه، ص 75.

يعلن فوكو ميلاد جديد لذلك الكائن الذي طالما، ألفناه على أنه أقدم بحث بداية مع سقراط، إلا أن فوكو من خلال تحليله الأركيولوجي يرى فيه مجرد تمزق في نظام الاشياء جديد في تاريخ المعرفة وما عهدناه ما هو إلا مجرد أوهام، يقول «... ومن هنا ولدت كل أوهام الإنسان الجديدة، وكل سهولات الأنثروبولوجيا المفهومة على أنها تأمل عام، نصف وضعي و نصف فلسفي في الإنسان، ومع ذلك فإن من المشجع و من المطمئن بعمق التفكير بأن الإنسان ليس سوى ابتكار قريب، و وجهة لا يزيد عمره عن قرنين، ثانياً بسيطة في معرفتنا، و أنه سيختفي ما أن تجد هذه المعرفة صورة جديدة»¹. إن نبوءة ميشال فوكو، بهذا الابتكار الجديد ((الإنسان)) الذي عمره لا يتعدى قرنين، إنه مجرد أوهام أنجبتها النزعة الإنسانية التي لا تدوم، إلى تعلن زوالها اختفاءها.

أخذت الفلسفة منحرجاً، غيرت مجراها، و هذا ما نجده مع الملامح البنيوية كدراسة "دي سيسور"، "لوفي ستروس"، "جاك لكان"، "ميشال فوكو"، إنها هزة لأرضية الفلسفة « عليه فقد صار الفلاسفة المواجهين للنزعة الإنسانية يخوضون معارك شرسة لإنزال الإنسان عن عرشه، كونه ليس محط اهتمام ولا يساهم في التاريخ ولا يحمل وعياً مرشداً، ويدل الإنسان المنتج، نسق الذات وبدل الإنسان الواعي والفاعل والمسؤول الخطاب الغامض للشعور»².

انطلق ميشال فوكو كباحث صارم من خلال منهجه الأركيولوجي، وجه ضربه قاضيه للنزعة الإنسانية، كما يطلق البعض الآخر عليها الانسانية، قام بتقويض دعائمها، « لم يكن نقد النزعة الانسانية إلا ممهداً للإعلان وفاتها لقد بدا إنسان الحداثة مُستلباً، مُخترقاً من قبل المؤسسات والتقنية والتكنولوجيا بحيث لم يعد الإنسان قادراً على

¹: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص62.

²: زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص 20

الوقوف في وجهها، فالتقنية كما أوضح " هايدغر" ليست مجرد تطبيق للعلم إنها أنمط معرفته المطلوبة»¹.

حاول ميشال فوكو من خلال حفرياتة أن يكشف عن لا شعور الخطاب المعرفي يقول هنا: « لقد حاولت الكشف عن ميدان مستقل ذاتيا قد يكون ميدان لا وعي العلوم أو لا شعور المعرفة وقد يملك قواعده الخاصة مثلما يملك شعور الفرد البشري قواعده وتحدياته»². قسم فوكو بنية العقل الغربي، من خلال قراءة وكشف ابستيمي كل عصر، إلى ثلاث حقبة زمنية (عصر النهضة، العصر الكلاسيكي والعصر الحديث).

يشبه فوكو كل عصر بمكان: « اذ أن الصورة التي تميز المعرفة في القرن السادس عشر هي صورة الكرة أو الدائرة (Sphère)، في حين ما يميز العصر الكلاسيكي هو الشكل المسطح أو المستوي (Plan)، يمكن النفاذ اليه من جهتين (بمعنى أن له مدخلين)، بينما يبدو المكان الابدستيمولوجي المعاصر وكأنه شكل هندسي، ذو أسطح ثلاثة (Trièdre)، والظاهر أن فوكو من فوق قمة هرمه الابدستيمولوجي، قد أصدر حكما بالإعدام على العلوم الانسانية جميعًا بما فيها " علم النفس"، " علم التاريخ" " علم الاجتماع" و الأنثروبولوجيا... الخ»³.

1. خصائص ابستيمي عصر النهضة:

تبدأ هذه المرحلة من القرن السادس عشر، حتى نهايته، أخذ الأفق المعرفي في التغير، إنها حقبة معرفية جديدة "عصر النهضة"، تحكمه مقولتا (التشابه والتماثل)، حيث تتشابه أشياء العالم بعضها مع بعض في تسلسل لا نهاية له يقول فوكو هنا : « كانت

¹: زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص 21.

²: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 136.

³: المرجع السابق، ص 17.

العلامة هي الشيء والشيء هو هو وضع اسم مسمى يرتبط به بالضرورة ويدل عليه بشيء لازم»¹.

إن مقولة التشابه تعني إيجاد التشابه والتوافق بين مختلف المظاهر الموجودة بين الأشياء يقول فيلسوفنا هنا: « لقد لعبت مقولة التشابه (Ressemblance) دورا تأسيسيا في المجال المعرفي للثقافة الغربية ذلك حتى نهاية القرن 16 وهي التي أسهمت إلى حد كبير في إنجاز عملية تأويل النصوص وتفسيرها و التي نظمت لعبة الرموز التي سمحت بمعرفة الأشياء الظاهرة منها و الخفية »².

إلا أن هذه العملية لإنتاج المعرفة، نجمت عنها مقولات معرفية ساذجة لا تفرق بين الاسم والمسمى يقول عمر مهييل: « كانت الكلمات والأشياء تسبح في فضاء كوني يتميز بنظام وجوه الوجود، إذ أن كل عنصر فيه يسمح بدخول الكل، في الوقت نفسه يسمح بالاتصال مع أي عنصر مماثل آخر»³. ارتبطت الاسماء، ارتباطا ازليا مع الأشياء، حيث النظرة ساذجة مليئة بالدهشة أمام الظواهر الفيزيقية.

كان النسيج الدلالي للتشابه غني بالمفاهيم التي تتشابك وتتلاحم فيما بينها وهذا ما جعل ميشال فوكو يتوقف عند هذه اللحظة من الزمن سيطرح استفهامه « كيف كان المشابه فكرة في نهاية القرن السادس عشر، وكذلك بداية القرن السابع عشر؟ » كيف كان يمكنه أن ينظم أشكال المعرفة؟ وإذا كان صحيحا أن الاشياء تتشابه، لا متناهية العدد، فهل نستطيع على الأقل تحديد الأشكال التي يمكن بمقتضاها أن يتشابه بعضها مع البعض الآخر»⁴.

¹: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص 83.

²: المصدر نفسه، ص 179.

³: عمر مهييل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 62.

⁴: المرجع نفسه، ص 62.

لعب التشابه في عصر النهضة، دوراً أساسياً في المعرفة الثقافية الغربية حيث نظم لعبة الرموز، كشف عن الأشياء المرئية وغير المرئية، تتسم هذه الحقبة (الصدقة والمساواة، التعاقد والزواج والتشارك والسلم، التراضي والتجاور والتعادل والاتصال والرابطة، كان العالم ينطوي على نفسه) يقوا فوكو: «... فالأرض تكرر السماء، والوجود يتمرأى في النجوم والعشب يطوي في أوراقه الأسرار التي تخدم الإنسان و كان الرسم يقلد الفضاء والتمثيل أو التصوير كان يبدئ كعملية تكرار: مسرح الحياة أو مرآة العالم كان ذلك عنوان كل أسلوب، وطريقة في الاعلان عن نفسه و صياغة حقه في الكلام»¹.

كانت اللغة الحاضرة في هذا العصر، شفاقة كل الشفاقية، حيث كان التطابق التام بين الكلمات والأشياء، ذلك الإفراط في الشفاقية يجعلها غير شفاقة، من شدة ذلك التطابق، نتيجة الاختلاط بين اللغة والأشياء، يقول ميشال فوكو: « أما اللغة الحقيقية فقد كانت في القرن السادس عشر عبارة عن العلامات المستقلة والموجودة، بأنها كانت غير شفاقة، غامضة، منغلقة على ذاتها مختلطة بصور العالم المحيط بها»².

نفهم من النص السابق أن ذلك الامتزاج بين اللغة والأشياء أنتج علاقة متجانسة لدرجة الغموض، حيث كانت اللغة جزءاً لا يجزأ من الطبيعة، برز من خلال هذا التلاحم؛ تلك العلوم المختلطة كالطب والصيدلة والكيمياء والسحر والخرافات، لكن قبل الاشارة إلى ذلك الاختلاط و التلاحم، لا بد أولاً أن نشير إلى الأشكال الرئيسية التي ذكرها ميشال فوكو في الفصل الثاني الموسوم بـ " نشر العالم" أو المتشابهات الأربعة هي أربعة اصناف تمفصلت على المعرفة الخاصة بمقولة « التماثل و التشابه»، يقول فوكو « هناك أربعة اشكال جوهريّة على وجه التأكيد»:

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص30.

²: المصدر نفسه، ص40.

أولاً : التوافق: « في تركيب العالم الواسع، تتلاءم الكائنات المختلفة بعضها مع بعض، فالنبات يتواصل مع الحيوان، والأرض مع البحر والإنسان مع كل ما يحيط به إن التشابه يفرض تجاوزات تؤمن بدورها تشابهات فالمكان والتمائل يتشابكان، فتزى نمو الطحالب على ظهر القواقع و النبات على قرني الأيل، و بعض أنواع الاعشاب على وجه الرجال و المريجات الغربية تقارب بين الخواص إذ تمزجها لتجعلها مماثلة للنبات والحيوان في آن واحد، كلها في علامات ثلاثم»¹ .

لا بد الاشارة أولاً أن التوافق مرتبط بالمكان، فالعالم في ثلاثم كلي، هو في سلسلة هائلة، ففي كل نقطة تبدأ وتنتهي حلقة تشبه الحلقة السابقة وتشبه الحلقة اللاحقة، يقول فوكو: «هذا الحبل للتلاؤم هو ما يذكره "بورتا" (Porta) في نص من كتابه: " السحر الطبيعي " ، أما بالنسبة لنموه، فان النبات يتوافق مع الحيوان المتوحش، و بالشعور يتوافق الحيوان الشرس مع الإنسان الذي يتطابق مع بقية الكواكب بذكائه، هذه العلاقة تنبثق بدقة، حتى أنها تبدو حبلاً ممدوداً»².

أما الشكل الثاني من المتشابهات الاربعة هو المنافسة : « نوع من التوافق وقد تحرر من قانون المكان ويعمل ساكنًا في المسافة، كما لو تلك السلسلة قد تفككت تعيد إنتاج دوراتها بعيدًا عن بعضها البعض الآخر وفق تشابه بلا اتصال (...) فالوجه هو منافس السماء كما أنت عقل الإنسان يعكس بالشكل غير حاصل حملة الله كذلك فان العينين بنورهما المحدود، تعكسان النور الأعظم الذي تنتشر في السماء الشمس والقمر الفم هو فينوس تمر من خلاله القبل وكلمات الحب»³.

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 40.

²: المصدر نفسه، ص 40.

³: المصدر نفسه، ص 41.

في التنافس يكون أحد الشكلين المتعارضين أضعف من الشكل الذي يقابله، في هذا المباراة، لا تتساوي الأشكال في القيمة ولا في الكرامة فيصبح "التشابه" شبيه بمعركة شكل مقابل شكل أو ضده، وحلقات التنافس، لا تشكل سلسلة، كالتوافق بل هو عبارة عن حلقات متحدة في المركز، إلا أنها متعكسة ومتخاصمة.

يقول فوكو هنا: « ألا تتغلب النجوم على الأعشاب، و هي نموذجها الذي لا يتغير (...). إن النجوم هي رحم كل الأعشاب، و كل نجم في السماء ليس سوى تجسيد روحي مسبق لعشبة، كما يمثلها، فكل عشبة أو نبتة هي نجم أرضي ينظر إلى السماء»¹. كأن التنافس هو نوع من التوأمية الطبيعية للأشياء، بهذه العلاقة تستطيع الأشياء أن تقلد بعضها دون تسلسل أو تقارب، يغيب المكان هنا، فالتنافس هو تشابه بلا اتصال وتوأمية دون ربط بالمكان، و حلقات غير متسلسلة تعيد إنتاج نفسها دون محاكاة مع حلقات أخرى، يقول فوكو: « في المنافسة شيء من الانعكاس و من المرآة (...). في شكل انعكاس بسيط خفي، بعيد يطوف فضاء العالم في صمت»². إلا أن تلك المسافة لا تؤثر سلبا ولا تلغي استعارته الماهرة كما يصفها فيلسوفنا.

ننتقل الآن إلى الشكل الثالث من متشابهات ابستيمي عصر النهضة، الموسوم بالقياس. يذكرنا ميشال فوكو بهذا الشكل بالمفهوم القديم في العلوم الأرسطية، في القياس يجتمع التوافق والتنافس، "الشكلين السابقين للمتشابهات الأربعة"، يقول فوكو هنا: «... ومثل هذا الأخير، فإنه يؤمن المجابهة الرائعة للمتشابهات عبر الحيز ولكنه يتحدث بشأن التوافق... قدرته هائلة، ذلك لأن المتشابهات المرئية الكثيفة للأشياء ونفسها، وبكفيها أن يكون تشابهاً أمر العلاقات»³. يضرب فوكو أمثلة موضحاً النص

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 41.

²: المصدر نفسه، ص 41.

³: المصدر نفسه، ص 42.

السابق ذكره من خلال علاقة النجوم بالسماء، العشب بالأرض، والناس بالكواكب والمعادن بالصخور.

« ... إنها مشبعة بالتماثل وكل تماثل يستطيع أن يجد فيها نقاطه الداعمة له وتتعكس العلاقات، إذ تمر بها دون أن تتبدل، هذه النقطة هي الإنسان، إنه يتكافأ والسماء، كما يتكافأ مع الحيوانات والنباتات مع الأرض والمعادن والهياطات (ترسبات كلسية) أو العواصف»¹.

قام فوكو بالإشهاد برسم " بيار بلون " "Pierre Belon"، متمثل في لوحة مضمونها عبارة عن مقارنة بين الهيكل العظمي الإنساني والهيكل العصافير « إننا نرى فيها طرف الجناح المسمى بالزائد و المتعادل في الجناح، يقع مكان الإبهام في اليد و نهاية طرف الجناح التي هي كالأصابع عندنا...، و العظم الذي هو في الساق لدى العصافير يطابق عندنا العقب كما لدينا أصابع في الرجل، كذلك العصافير أربعة مخالبا منها المخلب الخلفي الذي يوازي إبهام للرجل عندنا »². إن وصف الرسام و وضعه لأوجه المقارنة بين هيكل العصفور وهيكل الإنسان، يمكن أن يكون ذلك الوصف ممكنا في عصره، نذكر كذلك المقارنة التي وضعها "للدرو فاندي" حين يقارن « الاجزاء السفلى من الإنسان بالأماكن العفنة من العالم، بالجحيم وظلماته و بالمعذبين فيه الذين هم كبراز الكون»³.

نتنقل الآن إلى الشكل الرابع والأخير من التشابهات الأربعة الموسوم بـ " التعاطف " أو كما يطلق عليه "لعبة التعاطف". « إن التعاطف يقوم بوظيفته في حرية كاملة في أعماق العالم وهو يطوف في برهة أشد الأمكنة اتساعاً، و من الكوكب إلى الانسان الذي يحركه، يسقط التعاطف من بعيد كالصاعقة، و يمكن أن ينشأ على العكس من اتصال

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 43.

²: المصدر نفسه، ص 43.

³: المصدر نفسه، ص 43.

واحد، شأن الورود التي توضع في الحداد التي نستخدمها في الجنازة والتي بفعل مجاورتها للموت، ستجعل من كل شخص يستنشق عطرها حزينا و محتضرا فهو يثير حركة الأشياء في العالم و يسبب تقارب أبعادها»¹.

تقوم لعبة التعاطف على مبدأ الحركة، بجذب الأشياء الثقيلة إلى أسفل الأرض يضرب فوكو مثلا في زهرة عباد الشمس « إن زهرة عباد الشمس الكبيرة الصفراء تتحني مع منحني الشمس، بل أكثر من ذلك فبجذبه الأشياء بعضها نحو البعض الآخر بحركة خارجية مرئية»².

إن التعاطف لديه شكله التوأم هو: التنافر بقول فوكو مستعيرا أمثلة من كتاب " Gardon de la subtilité " « من المعروف أن النباتات تكون بعضها بعضا، ... ويقال أن الزيتون و الكرمة تكرهان الملفوف و أن الخيار يفر من الزيتون»³.

إن التنافر يجعل كائنات العالم تكره بعضها البعض ومن ثم ستحافظ على وجودها الطبيعي، تلك الطبيعة التي تجعل كائناتها ادعاء فيما بينها يقول فوكو: « بهذه اللعبة من التنافر التي تبعثر وتجذب في آن واحد إلى القتال وتجعل الجميع قتلة وتعرضهم بدورهم للموت يحدث ان الأشياء والحيوانات وكل الأشياء الموجودة في العالم تبقى على ما هي عليه»⁴. إن التنافر هو المسؤول على تغيير الأشياء كيف تنمو وتتطور ثم تتلاشى وتموت، بدوره كذلك يفسر أن ثمة مكانا و زمانا. إن الترابط بين العالم الصغير والعالم الكبير، بسيط هذا ما جعل المعرفة ممكنة، تلك العلاقة الشاعرية بين اللغة والطبيعة، حيث أصبحت ضريحا بديعا، يقول مهيبل: «... وهكذا يمتزجان في تناسق شاعري بديع مكونان بذلك للأوجه الأربعة للمتماثل و هي التوافق (La convenance)

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص ص 43-44.

²: المصدر نفسه، ص 44.

³: المصدر نفسه، ص 44.

⁴: المصدر نفسه، ص 44.

والمنافس (L'émulation) والتناظر (L'analogie)، و لعبة التعاطف (Les jeux de la sympathisé)، حيث تترايط الأشياء توافقا وتلعب فيما بينها تنافسا وتتقارب فيما بينها تماثل، وتتنافر وتتجاذب تعاطفًا¹.

يعطينا مزيج التوافق والتنافس والتماثل والتعاطف كيفية التشابه وكذلك كيف للعالم أن ينطوي على نفسه يقول فوكو: «...إنها قد أعدت منذ طويل من قبل نظام العالم ومن أجل خيرنا الأعظم، ولكن نعرف أن اليقطين يشفي أمراض العيون، و أن الجوز المسحوق مع روح النبيذ يقضي على آلام الرأس (...). و هل كنا نعلم أن بين الإنسان والكوكب الذي نعيش فيه علاقة توأمين أو مبارزة، لو لم يكن على جسمه و بين تجاعيد وجهه العلاقة الدالة على أنه خصم المريخ»².

أشار فوكو إلى نقطة مهمة التي تحكم ابستيمي التشابه، أطلق عليها اسم "التوقع" يقول « ليس ثمة تشابه بلا توقع، وعالم التشابه لا يمكن أن يكون إلا عالما مطبوعًا بعلامة معينة (...). فمعرفة التشابهات تقوم على كشف هذه التوقعات وفك رموزها»³. ليس هناك تشابه دون توقع، فمعرفة المتشابهات تقوم على كشف التوقعات يقول فوكو « لقد كان التشابه هو الشيء اللا مرئي، لما يجعل الأشياء من أعماق العالم مرئية، فلكي يخرج هذا الشكل بدوره إلى النور لا بد من وجه مرئي يجذبه من لا مرئيته العميقة»⁴.

◆ خصائص التشابه:

- إن ابستيمي التشابه يتسم، بالاستقرار واللا ثبات.
- يقوم التشابه على التراكم (أي تراكم المتشابهات الأخرى).

¹: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 45.

²: المرجع نفسه، ص 46.

³: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء ، ص 46.

⁴: المصدر نفسه، ص 48.

- يقوم على الجمع بين العناصر.
- الشارات التي تؤول لا تدل على الخفي إلا بمقدار ما تشبهه (كالنباتات التي تشبه الرأس، العينين أو القلب أو الكبد من ثم ستكون لها فعالية على العضو).
- كان كتاب "السحر الطبيعي" يحتل مكانا واسعا في نهاية القرن 16.
- كان التشابه في القرن 16، الأكثر عالمية وكلية.

◆ لغة ابستيمي عصر النهضة:

يقول ميشال فوكو: « ليست اللغة في القرن السادس، مجموعة من الإشارات المستقلة ذات الشكل واحد صقيل، حيث تأتي الأشياء لتعكس كما في المرآة، و هي تعلن هناك الواحد بعد الأخير حقيقتها الفريدة، إنها بالأحرى شيء غير شفاف، غامض، مغلق على نفسه (...) ليست اللغة في القرن السادس عشر نسقا اعتباريا، انها موضوعة في العالم وهي تشكل جزءا منه (...) إن اللغة هي جزء من التوزيع الكبير للمتشابهات والتوقيعات»¹.

2. خصائص ابستيمي العصر الكلاسيكي:

رأينا في ابستيمي عصر النهضة أن اللغة، هي التطابق بين الأشياء المرئية وغير المرئية، لأنها ذات طبيعة متقطعة غير ثابتة، متغيرة فقد فقدت شفافيتها، كان هناك تشابك بين اللغة والأشياء، كان هذا الامتياز سائد في عصر النهضة، من خلال نسق الشارات الثلاثي، لأنه يرجع إلى المجال الشكلي للعلامات، إلا أن هذه اللعبة سوف تتلاشى وتختفي « هذه اللعبة المعقدة تتأرجح بلا نهاية بين تعبير واحد و ثلاثة تعابير تثبت في شكل ثنائي يجعلها مستقرة، لأن اللغة بدلا من أن توجد شأن الكتابة المادية للأشياء لن تعود تجد أبدا مكانها و مداها إلا في النظام العام للشارات الممثلة و المعبرة (...) هذا

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص49.

الترتيب الجديد يقود إلى ظهور مشكلة جديدة مجهولة حتى الآن (...) سوف تتفصل الأشياء عن الكلمات على بعضها و ستكسر العين للرؤية و للرؤية فقط و الأذن للسمع فقط ، وستكون مهمة الخطاب، أن يقول ما هو قائم»¹.

كان هدف المعرفة خلال القرن السادس عشر التفسير و ليس البرهان، عرف ذلك العصر بأنه حقبة التماثل والتشابه بين الكلمات والأشياء ليتحول بعد ذلك إلى عصر النظام (L'ordre)، فيحل التفسير و التحليل محل التشابه والتناظر والتشابهك (...) تبدأ خريطة الكلمات والأشياء في التغير و يحدث الافتراق تدريجيا ، و عوامل هذا الانقطاع حسب رأي فوكو تمت نتيجة تآكل و تهدم، أما اللغة فقد عرفت منعرجا في عملية الانتقال من عصر إلى آخر»².

كانت اللغة في عصر النهضة بسيطة، متشابكة مع الطبيعة تربطها علاقات وطيدة مع الأشياء، أصبحت مع العصر الكلاسيكي لغة لها كيان مستقل، متميز محايد. طرأ تغير في شكل المعرفة بداية مع القرن السابع عشر، فلم يعد هناك تطابق أو تماثل بين الكتابة والشيء، أصبحت اللغة من أداة تفسير إلى أداة تحليل وتمييز، سادت مقولة النظام محل التشابه بمقولته أو أشكاله الأربعة، « من هنا سادت مقولة النظام (Ordre) على ابستيمي ذلك العصر لأن نموذجها كان يحيل إلى الرياضيات الديكارتية: فالحقيقة أضحت مستنتج من عمليات المقارنة والاستدلال والإحصاء للوصول لليقين»³

يرى فوكو في ديكارت شخصية رمزية، تسعى للوصول إلى اليقين من خلال مشروعه (الكوجيطو)، كذلك القواعد التي أسسها افكر الديكارتية، تعد آلة تعلم، والكلمات الجوهرية لهذه الآلة: (المقارنة) و (التنظيم) و (التبسيط) (المساواة اللا مساواة)، يقول

¹: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص58.

²: المرجع نفسه، ص 51.

³: عبد الله عبد اللاوي، (المشروع الفلسفي والأركيولوجي عند ميشال فوكو) ، ص 14.

فوكو: « يجب أن تسمح مجموعة كيفية الاشارات بتقسيم الموضوعات إلى أبسط عناصرها، حيث يجب أن تقسم حتى الأصل، إنما يجب أن تظهر أيضا كيف أن انتظاميات هذه العناصر ممكنة تتيح التكون المثالي لتعدد الأشياء»¹.

تقوم بنية المعرفة وفقا للمنهج الديكارتي، على تفسير تلك الانتظامات عن طريقة التبسيط والتوضيح، أما النقطة الجوهرية كانت تتمثل في الكشف عن امكانية استغلال التصوير، كان المفكر يفسر دون إبداع، يفسر الطبيعة الإنسانية من خلال الطبيعة الخارجية، الفيزيقية بالتالي كانت هناك علاقة بين الطبيعة والطبيعة الإنسانية يقول فوكو: « إن اللغة الكلاسيكية كخطاب مشترك للصور والأشياء وكحيز تتشابك داخله الطبيعة والطبيعة الإنسانية، تستبعد تماما ما قد يكون (علما للإنسان) ما دامت تلك اللغة قد تكلمت في الثقافة الغربية، فانه لم يكن جائزا طرح الوجود عينه للنقاش، لأن ما كان ينعقد فيه هو التصوير والكون»².

انتقلت المعرفة الإنسانية من ابستيمي التشابه (المتشابهات الاربعة) إلى وضع اسس منظمة، وقواعد للتمييز والتفسير، وفقا للمنهج الديكارتي، إن الانتقال بين ابستيمي وآخر أدى إلى حدوث ثغرة: « إن عوامل الانقطاع برأي فوكو تتم نتيجة لعوامل تآكل أو تهدم خارجية تحدث في الطرق الأخرى من بنية الفكر الأساسية»³.

عهدت اللغة عدة منحرجات من محطة أو من عصر إلى آخر، من عصر النهضة الذي كان تحكمه المتشابهات الأربعة إلى العصر الكلاسيكي الذي يحكمه النظام والتصوير، أصبحت العلامات تلعب الدور الاساسي داخل ابستيمي العصر الكلاسيكي « إذا ما وضعنا معرفة العصر الكلاسيكي داخل لوحة ما، فإن إطارها يكون الحساب

¹: ميشال فوكو، الطب السريري، تر: اياس حسن، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط 1، ص 76.

²: المصدر نفسه، ص 322.

³: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 62.

والتكون، أما المضمون فسيكون التاريخ الطبيعي، تحليل الثروات والقواعد العامة»¹. أصبحت اللغة مع ابستيمي العصر الكلاسيكي، « تمثل الفكر وتعبّر عنه وفقا لنظامها الداخلي»².

من أقول التشابه وزواله، ظهر النظام وأصبحت اللغة أداة للتحليل والتفسير والإحصاء والحساب وعلى اللغة أن تكون محكمة ومضبوطة تفرض عليها صرامة «... هذه اللغة مصاغة جيدا، أي تكون محللة و مركبة، فتكون فعلا لغة حسابات»³.

ننتقل الآن إلى استحضار فوكو لشخصية " دون كيشوت " * هي رواية، صورت بما يسمى "الرواية متعددة الألحان"، كان لها الأثر الكبير على الأعمال الروائية الأوروبية، فهي تجمع بين الملحمة والتراجيديا والكوميديا إلى أن التساؤل الذي يتبادر في اذهاننا، ما علاقة هذه الشخصية باستيمي العصر الكلاسيكي؟ ما هو مبتغى فوكو من استحضار والاستشهاد بمثل هذا النوع من الروايات؟

يقول فوكو: « يرسم دون كيشوت السلبي لعالم عصر النهضة، فالكتابة كفت عن أن تكون نثر العالم، والتشابهات والشارات قد حلت تفاهمها القديم (...) لم تعد تطبع

¹: عمر مهييل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 65.

²: المرجع نفسه، ص 65.

³: هشام صالح، فيلسوف القاعة الثامنة، الكرمل، مجلة قبرص، العدد 13، 1984، ص 30.

*: دون كيشوت هي رواية اسبانية في جزاين ينشر الاول منها عام 1605 وجاء الثاني عام 1615 مؤلفها الكاتب الاسباني صيغي لدي ثيريانتس Miguel de Gervans واحد من اشهر الادباء الكلاسيكيين في الادب الغربي تعتبر الرواية اصلا للمحاكاة لسافرة للرومانسية الفروسية التي سادت لوقت طويل في الادب الشعبي اما شخصية دون كيشوت هو بطل الرواية سيد نستيل في منتصف العمر من منطقت لامنشا وسط اسبانيا حيث جاب دون كيشوت على حصانة المسن طرقات اسبانيا للبحث عن المجد والمغامرة الكبيرة وقد تخلى عن الطعام والمأوى والراحة كلها سلوى حيدر (رواية دون كيشوت 2020/03/03).

الأشياء بسمتها (...) إن السحر الذي كان يسمح بفك رموز العالم حين كان يكتشف التشابهات الخفية تحت الشارات، لم يعد يفيد»¹.

إن الرواية تترجم لنا كيف حدث التحول في الثقافة الغربية، لتبرز ذلك اللقاء بين الشعر والجنون « إن المجنون، يقوم بوظيفة إنسان المعني، انه يجمع كل الشارات، أما الشاعر فيقوم بالوظيفة المعاكسة، إنه يقوم بدور مجازي، تحت لغة الشارات، إن الشاعر يجيء بالمتشابه إلى الشارات التي تقوله، في حين أن المجنون يشحن كل الشارات بتشابه ينتهي إلى محوها»².

إن كل من الرياضيات والتصنيف والتحليل التكويني، كلها تمثل شبكة صلة تحدد تشكل العالم لابستيمي عصر الكلاسيكي « إن علم التصنيف لا يتعارض مع الرياضيات (...) لأنها هي أيضا علم نظام (...) هي علم المساواة، إنها علم الحقيقة أما علم قوانين التصنيف فانه يعالج التطابقات والاختلافات، إنه علم المفاصل و الطبقات، كذلك فان التكوين يسكن داخل لم قوانين التصنيف «³. « على كل حال يمكن للابستيمية الكلاسيكية أن تعرف في ترتيبها الأعم، بالنسق المنفصل للرياضيات (للعلم العام)، و علم قوانين التصنيف، والتحليل التكويني»⁴.

حدد فوكو المجموعة التي تتربط وتتشابك فيما بينها، المعنية بابستيمي العصر الكلاسيكي والمتمثلة في الرياضيات والتصنيف والتحليل التكويني.

صنف فوكو بنية المعرفة الجديدة المخالفة لابستيمي عصر النهضة، على أنها بنية قائمة على النظام والإحصاء من خلال الرياضيات أصبح للغة صلة وقرابة بالأشياء إن

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 63.

²: المصدر نفسه، ص 65.

³: المصدر نفسه، ص 83.

⁴: المصدر نفسه، ص 83.

ما يخص لغة عصر النهضة هو التمثيل والتشابه أما مع العصر الكلاسيكي، شهدت اللغة منعرجا جديدا، تجسد في ثلاثة أوجه (قواعد عامة)، (تاريخ طبيعي)، (تحليل الثروات)، فماذا يعني بالقواعد العامة؟ وفيما تمثل هذا الشكل من التاريخ الطبيعي؟ وهل تحليل الثروات هو المقصود به الاقتصاد؟

1.2 القواعد العامة:

أصبحت اللغة في العصر الكلاسيكي، تعبر بشكل خطي، وفقا لنظام ونسق « إن اللغة الكلاسيكية لم توجد و لكنها تعمل، فكل وجودها يتخلص في دورها التمثيلي ولعل انتاج كل من "هيوم"، و "كوندياك" و "دسي تراسي" يعبر خير تعبير عن هذه الصيغة اللغوية (...) إن علاقة اللغة بالفكر تشبه إلى حد بعيد الجبر بالهندسة بحيث يحل محل المقارنة المتزامنة»¹.

يعرف فوكو القواعد العامة بـ: « دراسة النظام الشفهي في علاقته مع التزامن المكلف بتمائله، أمام موضوعها، فليس الفكر وليس اللغة بل الخطاب لوصفه مكملا للعلامات الشفاهية»²؛ ارتكزت القواعد العامة على جملة من المبادئ الأساسية، التي حصرها فوكو في أربعة أسس (نظرية الفعل، التمثيل، التعيين، الاشتقاق).

أولا: نظرية الفعل:

« إن الجملة بالنسبة للغة هي كالتمثيل (تصور) بالنسبة للفكر»³، فالشرط الضروري لكل خطاب ثلاث (موضوع و محمول و أداة ربط) يقول بول رويال Port Royal : « لا يوجد إلا فعل الكون، الذي يحافظ على بساطته»⁴.

¹: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص ص 65 - 66.

²: ميشال فوكو، الكلمات و الأشياء، ص 25.

³: المصدر نفسه، ص 65.

⁴: المرجع السابق، ص 67.

ثانياً: التمفصل:

إن تطور العلوم وبروز فروع جديدة، جعل اللغة تتكاثف والكلمات تتربط فيما بينها، فمن الضروري أن يكون الخطاب فيه جملة متكونة من موضوع ومحول ورايط « يؤلف التمفصل تعميمًا متواليًا لمجموعة واسعة أكثر فأكثر ومتناقضة العدد كما يمكن أن يقسمها ثانية إلى ما لا نهاية تقريبًا بواسطة تميزات جديدة، فيعود ويلتقي مع اسم العلم الذي انطلق منه وهكذا تعطي اللغة كل نظام الترابطات والإلحاقات»¹.

إن التمفصل بإمكانه التحقيق في شكلين أفقي وعمودي: «... ففي التمفصل الأفقي نقوم بتجميع الأفراد الذين لهم سمات مشتركة وعزلهم عن بقية الأفراد المختلفين عنهم، أما في التمفصل العمودي فيميز بين الأشياء المكيفة بذاتها وبين الأشياء التي لا توجد في حالة مستقلة باختصار فإن المتمفصل يربط الكلمات بتصوراتها عن الأشياء»².

ثالثاً: التعيين:

« إن التعيين في نظر فوكو يعني تلك العملية التي تسمح بتحديد ارتباط علامة ما بالشيء الذي تدل عليه»³. هذه العملية هي العودة إلى أصل اللغة والكشف عن زمنها الأول يقول فوكو: « إن الكشف أصل اللغة يعني استعادة الزمن الأول التي كانت فيه تسميته صرفًا (...) ويستجيب للضرورة الأولى التحليل لغة الفعل، بينما تستجيب دراسة الجذور للضرورة الثانية»⁴. إن تحليل لغة الفعل والرجوع إلى جذور أصل اللغة، لا يعني أن هناك تنافر بل بالعكس هناك تكامل لكي يتحقق التعيين.

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 99.

²: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 67.

³: المرجع نفسه، ص 67.

⁴: المصدر السابق، ص 104.

رابعاً: الاشتقاق:

يطرح فوكو اشتقاقاً هنا حول كيفية تغيير الكلمات لشكلها ومداهها واتساعها فبدراسة الاشتقاق، اتضح لنا تعدد واختلاف لغات البشر هو موثوق بتعدد واختلاف (تباين) حضاراتهم وأممهم، ضرب هنا فوكو مثلاً: « نعرف نمطين كبيرين للكتابين تلك التي ترسم معنى الكلمات وتلك التي تحلل الأصوات وتعيد بناءها، بينهما انقسام صارم، سواء اسلمنا بأن الكتابة الثانية قد أخذت عند بعض الشعوب مكان الأولى بضرب من العبقرية أو قلنا بأنها مختلفان كلية حتى أنهما ظهرتا في آن معاً تقريباً، الأولى عند الشعوب الرسامة و الثانية عند الشعوب المغنية »¹.

نلخص إلى أن القواعد العامة المتمثلة في "نظرية الفعل" و "التعيين والتمفصل" و"الاشتقاق"، هي أربعة اشكال أساسية، كشفت لنا عن كيفية التحول أو الجديد الذي شهدته اللغة في ذلك العصر الذي كان يحكمه النظام والتمثل وهذه الأسس أو النظريات الأربع « لا توجد متفرقة في المجال الابدستمولوجي للعصر الكلاسيكي، بل توجد متعارضة أو متناظرة بطريقة ثنائية، إذ ترتبط نظرية التعيين بنظرية التامفصل وترجع نظرية الاشتقاق إلى نظرية الفعل في التحليل الأخير»².

مع عصر النهضة لم هناك علم اسمه " التاريخ الطبيعي "L'histoire naturelle" بل كانت تواريخ، حيث كانت الأشياء هي نفسها الكلمات ذلك التوافق جعل من التاريخ شيئاً معقداً ومبهماً، فكيف اثبث هذا المجال؟.

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 108.

²: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 68.

2.2 التاريخ الطبيعي:

« إن مشروع اقامة علم للتاريخ الطبيعي مرتبطا ارتباطا وثيقا بالنظرية العامة للتمثل و مشروع العلم الكلي للرياضيات»¹. إن التاريخ الطبيعي كغيره من تحليل الثروات والقواعد العامة، يحكمه ابستيمي النظام (الرياضيات والتمثل)، صنف الكلاسيكيون الكائنات الحية « في شكل وحدات لغوية» كما وضع اسمها منطقة بول رويال»².

في الواقع أن التاريخ الطبيعي الذي ظهر مع منطقة "بول رويال Port Royal" عاصر الفلسفة الديكارتية، فقد وضعوا مبادئ عامة في (البنية، الخاصية).

* البنية:

ما تفعله البنية في التاريخ الطبيعي هي ما فعلته نظرية الفعل والتمفصل في اللغة وكأن العصر الكلاسيكي قام بعملية ابداع يقول فوكو: « أن العصر الكلاسيكي، تفنن إن لم نقل في أن يرى أقل ما يمكن من الأشياء، فعلى الأقل فيما يقلص عن قصد من حقل تجربته، فإن الملاحظة ابتداء من العقر الثامن عشر، كانت معرفة حسية مرافقة لشروط سلبية، بصورة نظامية»³. فالبنية هي عبارة عن « تعيين للمرئي وإيصاله للغة عن طريق ما يشبه انتخاب أو فرز سابق على اللغة، أي أن تبقيها فكل ما هو مرئي تسمح بتواصلنا مع اللغة»⁴.

يضرب فوكو مثالا: « إن كل جزء من الأجزاء الواضحة و الجلية من البنية أو الحيوان يمكن وصفه استنادا إلى أربع سلاسل من القيم وهذه القيم الأربع التي تعيين عضوا ما أو عنصرا ما من العناصر وهي ما يطلق عليه علماء النبات البنية و يقصد

¹: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 68.

²: المرجع نفسه، ص 69.

³: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 126.

⁴: المصدر نفسه، ص 168.

بنية أجزاء النباتات، تركيب، انتلاف، القطع المكونة لجسمها (...) فالبنية بحصرها للمرئي و بغيرلتها، تمكنه من أن ينتقل إلى اللغة و يترجم فيها و بفضل البنية، تنتقل قابلية رؤية الحيوان أو النبات إلى الخطاب الذي يؤويها و يحتضنها»¹.

إن البنية تقوم بعملية ربط التاريخ الطبيعي بعلم الرياضيات العام، حيث يمكن دراسة التاريخ الطبيعي مع تلك الفروقات بين الكائنات الطبيعية دراسة دقيقة، صارمة، منتظمة، حيث ربط العلم الكلاسيكي بين القضية والبيان في بنية واحدة، تتبع التمثيل داخل نظام معرفي.

* **الخاصية:** ما عرفناه أن التاريخ الطبيعي يقوم على مبدئين أساسيين هما: البنية والخاصية، « فالبنية ذلك التعيين المرئي تعيينا يسمح بنقله إلى اللغة، عن طريق نوع من الفرز والانتقاء السابقين على اللغة»²، فإذا كانت البنية تطابق بين القضية والبيان فإن «الخاصية أو السمة تماثل بين القيم التي تعين والفضاء الذي يتم داخله اشتقاقها وتفرعها (...) وفكرة السمة تميز و بشكل جوهري النباتات عن بعضها البعض، مضطرة إلى أن تقترن دون تغيير باسم كل نبات على حدى»³.

إن السمة هي ذلك المبدأ الاساسي الذي به توحد الكائنات الطبيعية وفقا لنظام ذلك العصر ولغته، وإثباتها أمر سهل وصعب في الوقت نفسه. ويقول فوكو: « سهل ما دام التاريخ الطبيعي في غنى عن وضع منظومة أسماء، استنادا إلى تمثيلات صعبة على التحليل، بل رجوعا إلى لغة انكشفت في الوصف». أما الصعوبة فتتضمن في مراعاة جميع القسامات والملاحم المميزة التي وردت الإشارة إليها في الوصف. قد ترجع بنشأة التاريخ

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 128.

²: المصدر نفسه، ص 130.

³: المصدر نفسه، ص 131.

الطبيعي إلى الوراثة إلى ماضٍ سحيق، إذا لم تتوفر تقنيات ووسائل للتغلب على الصعوبة ولحصر عملية المقارنة»¹. من هنا تمت الإحاطة الشاملة للمملكة النباتية والحيوانية.

يمكننا أن نلخص مما سبق أن مجال التاريخ الطبيعي، افتقرت وانفصلت فيه الكلمات عن الأشياء، أصبحت الطبيعة عبارة فقط عن شبكة تسمية هذا ما تعذر بظهور علم البيولوجيا، ففي عصر النهضة كان تماثل النبات والحيوان ومع العصر الكلاسيكي لم يعد بالإمكان وجود دلائل إلا من خلال التحليل، فلا يمكن فصل التاريخ الطبيعي عن نظرية اللغة يقول فوكو: «فالتاريخ الطبيعي في العصر الكلاسيكي (...) ينطوي على جملة من العمليات المعقدة التي تشيع داخل جملة من التمثيلات إكانية نظام ثابت، إن التاريخ الطبيعي معاصر وملازم لتحليل اللغة (...) إن التصنيف والكلام يجدان مصدرهما في ذات الفضاء الذي يفسح له التمثيل»².

إن ما منع التاريخ الطبيعي أن يكون علم البيولوجيا، هو أنه لم تكن هناك مقولة "الحياة" «بل كان المفهوم السائد الكائنات الحية»³. «فقد جرت العادة بتقسيم أشياء الطبيعة إلى ثلاث أصناف: المعادن التي كان يقال أنها تنمو لكنها عديمة الحركة والإحساس، كان يقال أنها تتحرك بحركة تلقائية»⁴. أما الحياة أو مفهوم الحياة لم تكن واضحة للعالم فهي كانت عبارة عن تصنيف، كانت تابعة، حيث كانت تعاني كغيرها من الغموض وعدم الدقة «فمثلاً أن الحيوان النباتي الشكل يوجد في منزلة وسطى مبهمة بين الحيوان والنبات، كذلك ال...و المعادن توجد جميعها في نقطة مشتبهة، لا يدري المرء هل من الممكن التحدث بصدورها عن الحياة أو لا»⁵.

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 132.

²: المصدر نفسه، ص 146.

³: المصدر نفسه، ص 147.

⁴: المصدر نفسه، ص 147.

⁵: المصدر نفسه، ص 148.

3.2 المبادلة (تحليل الثروات):

تخضع المبادلة لنفس تشكل علم القواعد العامة والتاريخ الطبيعي، فانه في العصر الكلاسيكي، لم يكن هناك مفهوم " الحياة " ولا " علم اللغة " فانه بالتالي وبنفس الكيفية « لم يكن فيه أثر للاقتصاد السياسي، لأن نظام المعرفة لم يكن يعرف الانتاج (...) إن هذا الميدان الذي يشكل موضوع الاقتصاد وتربيته في العصر الكلاسيكي هو ميدان الثروة¹. لم يعرف العصر الكلاسيكي ولا ابستمولوجيته مفهوم أو علم يسمى " اقتصاد السياسي " مثله مثل اللغة، والبيولوجيا، إلا أنه كان هناك جملة من المفاهيم وان دلت فهي تدل على تحليل الثروات لا الاقتصاد مثل « مفهوم القيمة، مفهوم الثمن، مفهوم التجارة، مفهوم الفائدة، مفهوم الربح، إلا أنها غير كافية لتأسيس علم الاقتصاد² .

يرى فوكو أن الحديث عن تحليل الثروات يستلزم ضرورة التطرق والحديث عن مفهوم النقود والأسعار، « يستشهد فوكو التي صاغها أوضح صياغة سيكون "دي غارمول" في مصنفه عن الدائق الملكي: « لا تستمد النقود قيمتها من المادة التي هي مركبة منها وإنما من الشكل الذي هو صورة الأمير أو رمزه³ .

إن مفهوم السعر مثلا يحمل علامة الغنى، كان يمثل بالذهب، حيث كان هذا الأخير معدن نفيس يعبر عن علامة الغنى، إلا أن هذه النظرة المعدنية بدأت تضمحل وتختفي. « لقد كان المعدن الجميل يشكل في حد ذاته علامة ثروة، كما كان بريقة المظمور يشير بما فيه الكفاية إلى أنه حضور خفي وبصمة مرئية لسائر ثروات العالم،

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 151.

²: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 70.

³: روجي غرودي، البنيوية فلسفة موت الانسان، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان 1979، ص 90.

لهذا السبب كان له السعر ولأجله أيضا، كان يتخذ مقياسا لسائر الاسعار، لأجله أخيرا، أمكن مبادلتها لأي شيء ذي سعر»¹.

عرف هذا التحول مع "سيبيون دو غرامون" (Seipion de Grammont)، حتى "نيكولا باربون" (Nicolas Borbon) هي ممارسات أطلق عليها (المركنتيلية) يقول فوكو: « هي عبارة عن مذهب يؤمن بأهمية النقود إيمانا مطلقا، يقوم على الدمج بين الثروات وأنواع النقود»². إن المذهب المركنتيلي جعل القيمة الذاتية للمعدن كمبدأ للثروة وأصبح مصدر للعلاقات التي تجمع الثروة بالنقود هو التداول والمبادلة. فلم تعد قيمة الثروة في المعدن النفيس، بالتالي لا قيمة لشيء دون تبادل، إن جميع المحاولات التي عرفها العصر الكلاسيكي، لم تستطع أن تصل إلى علم الاقتصاد السياسي، رغم رواج وظهور مفهوم "الأسعار" و "النقود" و "العلاقة التبادلية" و "المعاملات التجارية" إلا أنها انحصرت في مجال محدد وهو "تحليل الثروات" مثلها مثل القواعد العامة التي هي بدورها لم ترتقي بعد إلى علم "فقه اللغة"، كذلك صار الأمر مع التاريخ الطبيعي الذي لم يعرف بعد علم البيولوجيا (الحياة)، لأنه اهتم بالكائنات الحية دون مفهوم (الحياة). فكلهم يخضعون لنفس التنظيم ونمط التمثل.

لن تجد تلخيصا للعصر الكلاسيكي أحسن من تلخيص فوكو، يقول: « لم يكن هدفنا اظهار أن الناس في القرن الثامن عشر (العصر الكلاسيكي) يهتمون بالنظام أكثر من اهتمامهم بالتاريخ، وبالتصنيف أكثر من الصيرورة و بالعلامات أكثر من آليات العلية، بل إن الأمر كان يتعلق بإظهار مجموعة محددة من التكوينات المقالية التي يوجد بينها عدد من الروابط القابلة للوصف»³.

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص ص 157-158.

²: المصدر نفسه، ص 159.

³: المصدر نفسه، ص 171.

3. العصر الحديث (عصر التاريخ، الإنسان):

راحت المعرفة لتظهر في ثوب جديد، لم تعد مهتمة لا بالتشابه ولا بالنظام بل ذهبت إلى بعد آخر، إن القطيعة التي حدثت بين فكر عصر النهضة والعصر الكلاسيكي، سنشهد نفس حركة الانفصال بين المرحلة الكلاسيكية والحديثة. إن المعرفة سوف تتشأ على أرض جديدة، التساؤل المطروح كيف حدث الانقطاع؟ وكيف تغيرت القواعد والمبادئ الاستيمولوجية؟ و استناداً لأي مقياس تغير مناخ العصر الكلاسيكي المهيأ بالتاريخ الطبيعي والنحو العام وتحليل الثروات، بعدما كانت هي العلم الحق والمعرفة ذاتها؟ يجيب فوكو عن جملة هذه الاستشكالات في كلمة واحدة "الأركيولوجيا" يقول: «أما الأركيولوجيا (علم الحفريات)، فإنها ستكتفي بتصفح الحدث في مظهره الجلي»¹. إن الانقطاع أو الشرح الذي شهدته استيمولوجية العصر الحديث هو بمثابة انقلاب « من الضروري أن نعود بشيء من التفصيل إلى ما عرفته نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر: يتعلق الأمر بالانقلاب الذي ينقلنا فجأة وبسرعة مهولة، من النظام إلى التاريخ، بالتغير الجذري الذي أصاب الوضعيات التي كانت منذ ما يقرب من قرن ونصف»².

يتبأ فوكو بميلاد جديد، استيمي حديث، منقلب على النظام الكلاسيكي السابق هو بمثابة انتقال من عصر النظام إلى عصر التاريخ، طراً تغير على معارف أضحت واضحة ومألوفة « فلم تكن نشأة ذلك العدد من العلوم الوضعية و ظهور الأدب وانكفاء الفلسفة على صيرورتها الخاصة وانبثاق التاريخ كمعرفة ونمط وجود الاختيارية في الوقت ذاته، سوى اعراض وعلامات لقطيعة عميقة، علامات مبعثرة في فضاء المعرفة ما دام بالإمكان ادراكها والوقوف عليها بخصوص نشأة علم اللغة أو نشأة الاقتصاد السياسي، أو

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 190.

²: المصدر نفسه، ص 191.

حتى نشأة البيولوجيا»¹. إن القطيعة التي حدثت في عصر النهضة، أدت إلى ظهور ابستيمي النظام في العصر الكلاسيكي، بعلومه الثلاث (القواعد العامة تحليل الثروات، التاريخ الطبيعي) هو نفسه الانقطاع الذي حدث في العصر الكلاسيكي ليمهد لظهور العصر الحديث بعلومه الثلاث (فقه اللغة، اقتصاد، بيولوجيا).

1.3 الاقتصاد (مقياس العمل):

أصر فوكو على أنه لا علم قائم اسمه "علم الاقتصاد" خلال العصر الكلاسيكي فمن المتعذر أن نتحدث عن هذا العلم أصلاً، رغم ظهور عدة مفاهيم للقيمة "Valeu"، الثمن "Prix"، التجارة "commerce"، كلها تخدم أو تكون مقولات للثروة "Richesse" وليس الاقتصاد "L'économie"، هذا ما كان يدعو اليه الفيزيوقراطيون، انتقلنا إلى العصر الحديث (عصر التأويل)، ارتبط بإحياء العلوم الإنسانية كما يطلق عليها فوكو "أفول اليوتوبيا"، "الاهام الكبرى"، إنها ابستيمية يحكمها نمط التسلسل والسيرورة، قد ظهر الإنسان إلا أن ظهوره لا يدوم.

إن علم الاقتصاد الحديث مرتبط باسم "آدم سميث" وهذا ما كان يعتقده الناس في نظر فوكو، رغم استعماله لمفاهيم قديمة كالنقود، التجارة، التبادل، إلا أن آدم سميث مؤسس هذا العلم بإقحامه مفهوم العمل في تحليل الثروة يقول فوكو: «صحيح أن آدم سميث يحيل منذ البداية مفهوم الثروة إلى مفهوم العمل (...). من الصحيح كذلك أن سميث يحيل القيمة الاستعمالية للأشياء إلى حاجة البشر والقيمة التبادلية إلى قيمة العمل المبذولة لإنتاجه»². إلا أن فوكو من خلال تصريحاته، يقول أن سميث لم يبتكر العمل كتمثيل اقتصادي لأن هناك مفكرين سابقين عليه مثل "كنتيون" و"كيني" و"كوندياك"، لأنه هو كذلك استخدمه كمقياس لقيمة تبادلية، يقول سميث في نص فوكو: «العمل هو

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 193.

²: المصدر نفسه، ص 194.

المقياس الحقيقي لقيمة تبادل أي سلعة، إلا أنه يزيحه من مكانه محتفظاً له دائماً بوظيفة تحليل الثروات المتبادلة»¹. إن مفهوم العمل عند آدم سميث عرف بالعلم الجديد لأنه قد تنوع وتشعب، حيث ابتعد هذا المفهوم عن الدقة والحسابات، بل أصبح في مجال التقدم الصناعي، و الكد في العمل وتقسيمه، « إنه زمن رأس المال ونظام الإنتاج»².

يذهب ميشال فوكو إلى نموذج جديد (ريكاردو)* "Ricardo"، الذي بدوره أدخل مفاهيم جديدة، علاوة عن مفاهيم آدم سميث، يلخصها فوكو في الآتي: « بالنسبة للأول (آدم سميث)، ما دام العمل قابل لأن ينحل أو يتحلل إلى أجر يومي للمعاش، فإنه يستخدم كوحدة مشتركة بين كل السلع الأخرى حيث تكون المواد الغذائية الضرورية جزءاً منها، أما بالنسبة للثاني (ريكاردو)، فإن كمية العمل تسمح بتثبيت قيمة شيء ما، ليس لأن هذه الأخيرة ممثلة بوحدات للعمل فحسب لكن بشكل أساسي لأن العمل بوصفه نشاطاً إنتاجياً يعد مصدراً لكل قيمة، فقد كفت القيمة عن كونها مجرد علامة وأصبحت منتجا من المنتجات، حتى إمكانية التبادل الجيد أصبحت تقوم على أساس العمل»³.

إذا كان تحليل "آدم سميث" الاقتصادي له امتياز العمل من خلال وضع مقياس يبين مجال التبادل إلا أنه غفل عن الوقت الزمني، لا بد من الافتراض أن كمية العمل اللازمة لإنتاج شيء ما تكون معادلة لكمية العمل التي يمكن أن يشتريها هذا الشيء. يقول عمر مهيبيل في تحليله: « إن أصبحت القيمة عند ريكاردو نتيجة العمل من جهة وشيئاً مستقلاً من جهة أخرى، ولعل المفهوم الأكثر أصالة عند ريكاردو هو مفهوم " الندرة" فإذا ما حدث وصار العمل مكلفاً بالنسبة لما ينتج به، أصبح الإنسان في وضع

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 195.

²: المصدر نفسه، ص 197.

*: ديفيد ريكاردو Ricardo David (1772-1823) اقتصادي وسياسي انجليزي، يعد من ابرز رموز المديرية الكلاسيكية في الاقتصاد، هو أهم الكتب في تاريخ الاقتصاد السياسي، معروفاً بنظرية في الأجور والربح، ونظرية قيمة العمل، نظرية الميزة النسبية ونظرية الإيجار وضع مفهوماً لقانون تناقض الغلة فيما يتعلق بالعمل ورأس المال.

³: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 74.

يناضل فيه ضد الندرة، إذ أنه لا يمكنه أن يتصور كل حاجياته بنفسه وأن يليها»¹. إنه وابتداء مع "آدم سميث" لم يعد الاقتصاد مرتبطا فقط بالاغتناء أو الزيادة في الانتاج، بل أصبح كذلك « يتطور طبقا لقوانين ذاتية نوعية وهو زمن الرأسمال والإنتاج»². مع "آدم سميث" جعل من القيمة الثابتة للعمل، قانونا نوعيا ومقياسا للأشياء في شبكة التبادلات، أما ريكاردو جعل من العمل أساس كل تبادل، إن الاقتصاد السياسي مع هؤلاء (سميث وريكاردو)، أصبح يلوح لأفق جديد لم يبرح في مكان واحد و وفقا لنظام التمثيل ومدار المبادلة في الثروات.

2.3 تنظيم الكائنات (البيولوجيا):

تحرر العصر الكلاسيكي من خلال النموذج الرياضي والجدولة التصنيفية، من لغة الاستعارة والمجاز والتشبيه، عصر تقوم معرفته على التصنيف للكائنات والنباتات والمخلوقات، إلا أن هذه اللغة الصارمة، غفلت عن ذلك الكائن البشري الحسي، الواعي، هذا الاختلاف وهذه القطيعة مست جميع الجوانب، مع تحليل الثروات فأصبح علم اقتصاد وكذلك التاريخ الطبيعي لم يسلم بل عرف بدوره انقطاعات، هنا طرح فوكو إشكالا: « كيف استطاع مفهوم الحياة أن يغدو مفهوما ضروريا ولا بد منه، لترتيب الكائنات الطبيعية فقد أضحى كذلك لسببين : اولهما أن الحاجة كانت تدعو إلى التقريب في اعماق الجسم عن العلاقات التي تربط الاعضاء السطحية بالأعضاء العميقة والباطنة والتي تتكفل بأداء الوظائف الأساسية»³.

يضرِب فوكو مثلا ليوضح به كيفية تحول "التاريخ الطبيعي" إلى "علم البيولوجيا" السبب الاول هو الحاجة في التصنيف تذهب إلى الغوص في أعماق العلاقات التي تربط

¹: عمر مهيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص74.

²: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص197.

³: المصدر نفسه، ص 199.

الأعضاء البارزة عن الأعضاء العميقة والمثال كآلاتي: «... وهذا ما جعل سطور (Storr) يقترح تصنيف الثدييات وفقا لشكل حوافرها، ذلك أن هذا الأخير مرتبط بأنماط تنقل الحيوان وامكانيته الحركية، وترتبط هذه بدورها بنوع تغذيته ومأكولاته وبمختلف أعضاء الجهاز الهضمي»¹. أما السبب الثاني الذي جعل من مفهوم الحياة ضروري ولا بد منه « ثانيهما: يحدث أحيانا أن تكون السمات الأكثر خفاءا، إذ لوحظ في ما قبل أن الأزهار والثمار وهي الأجزاء الأكثر مرئية من النبتة، ليست هي العناصر الدالة ولا تعد خصائص مميزة وما يعتبر كذلك هو الجهاز الجيني و بعض الأعضاء كالفلقات، وهي ظاهرة نصادفها بكثرة في الحيوانات كذلك»².

نذهب الآن إلى "كوفيه" Cuvier* (1767-1832) « الذي جعل تبعية الوظائف تتخطى وظيفتها التصنيفية وأدخلها إلى جانب عملية تصنيف محتملة في مستويات مختلفة لتنظيم الكائنات الحية»³.

لقد قام "كوفيه" من خلال تصنيف الكائنات الحية، بإدخال مستويات مختلفة أهمها الوظيفة الفيزيولوجية، ليس على أساس التشابه على النظام والتصنيف يقول فوكو: « لقد جعل كوفيه، الوظيفة تطغى أو تتجاوز العضو، ووضع تنظيم العضو تحت سلطة الوظيفة»⁴. شهد التاريخ الطبيعي انقلابا في مناهجه وتقنياته وتصبغاته قوامها تقويم هوة

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 199.

²: المصدر نفسه، ص 199.

*: كوفيه جورج (1769-1832): عالم الطبيعة الفرنسي المعروف باسم والد التشريح المقارن، أو الأب المؤسسة لعلم الحفريات كان شخصية بارزة في أبحاث العلوم الطبيعية في أوائل القرن التاسع عشر، وكان له الدور الاساسي في تأسيس مجالات التشريح المقارن وعلم الحفريات من خلال عمله في مقارنة الحيوانات الحية مع الحفريات اقترح كوفيه أن الأنواع المنقرضة الآن قد تم القضاء عليها بسبب أحداث الفيضانات الكارثية الدورية وبهذه الطريقة أصبح من أكبر المؤيدين تأثيرا للكوارث في الجيولوجيا مع بدايات القرن 19 اعتقد كوفيه أنه لا وجود لدليل على التطور بل كان دليلا على الابداعات الدورية. موسوعة اللغة العربية.

³: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص75.

⁴: المرجع نفسه، ص96.

فاصلة بين العضوي واللا عضوي، هذان الاسمان لم يكونا موجودين في التصنيفات الكلاسيكية، باتت تلك الهوة موضوع أو ركن أساسي إبان العصر الحديث. يتشهد ميشال فوكو، بعدة علماء أمثلة: "بلاص" (Pallas) و "لامارك" (Lamarck) و "فيك دزاير"، يقول فوكو: « لقد بات العضوي حيا، الحي هو كل كائن يتكاثر وينمو، أما اللا عضوي فقد أضحي هو اللاحي، أي كل كائن لا ينمو، لا يتكاثر، أي انه الجمود والسكون والمواد الذي يوجد داخل تخون الحياة (...) هكذا نلحظ كيف أن شيئاً ما كالبيولوجيا غدا ممكننا بعد ضربه الجدول الأكبر للتاريخ الطبيعي للعمق»¹.

يضيف ميشال فوكو كذلك تحليلات "بيشات" (Bichat)، الذي قام بوضع الفاصل بين المادة الحية والمادة الجامدة، فهما يختلفان في الخصائص، لأن المادة الحية هي جملة الخصائص التي تقاوم الموت، بالتالي هناك تعارض بين الحياة والموت لأن الفصل أو العزل يؤدي إلى اتلاف المادة وموتها يقول فوكو: « إن هذا التعارض لن يمثل الانتصار المؤقت والعابر، إلى حد ما لنزعة حيوية على نزعة ميكانيكية فالنزعة الحيوية في مجهودها الرامي إلى ابراز خصوصية الحياة ليست أثر مظهري لتلك الاحداث الحفرية الأركيولوجيا»². ادخل كوفيه ثورة أساسية تمثلت في فترة الانقطاع والانفصال كذلك دراسات "بلاص" و "لامارك" التي قامت بدورها بابراز الفروقات بين العضو واللا عضوي، بين الحي واللاحي، الذي يضع حدا فاصلا بين المادة الحية والمادة الجامدة وما يتبعها من عوائق تحيل دون نجاح العلوم الحية، لتحتل مرتبة المادة الجامدة، هكذا تظهر لميشال فوكو بوادر امكانية قيام علم البيولوجيا.

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 201.

²: المصدر نفسه، ص 201.

3.3 فقه اللغة (اعراب الكلمات):

حتى مطلع القرن السادس عشر، لم تشهد تحليلات اللغة تغييراً كبيراً حيث ما زالت الكلمات مرتبطة بالتمثيل، غير أن "مقارنة اللغات"، تلك المحاولات التي عرفتتها روسيا، حيث انصب الاهتمام على 279 لغة، أظهرت شكلاً جديداً على النحو العام يقول فوكو: «فقد كان النحاة منذ زمن طويل على دراية بالظواهر الاعرابية (...) لكنهم لم يكونوا يحللون الإعرابات إلا من منظور قيمتها التمثيلية»¹ يرى فوكو أن العودة إلى الجذر أو الأصل للكلمات أعطى تعريفاً جديداً لأنساق القرابة بين اللغات، حيث أصبحت اللغة لها كيان مستقل عن كل تلك الوظائف التمثيلية القديمة، هذا ما يسميه فوكو «الوضعية الفيلولوجية»².

لم تأخذ اللغة مكانتها إلا مع نهاية القرن التاسع عشر حيث ظهرت "الفيلولوجيا" «على يد جماعة من علماء اللغة الألمانية» هم شلجيل (Chalegel)، بوب (Bopp) و"جديم" (Grimm) وعالم دانماركي "هوراسك" (Horacek) فهم لا يعترفون بتصور اللغة على أنها نسق للتمثيلات، يمكن أن يتولد عليها تمثيلات جديدة، بل أن اللغة قد تحولت على أيدهم إلى كيان مستقل على الإنسان يبدو وكأنه مجرد وساطة ضرورية تضمن امكانية المعرفة»³، بحث علماء الفقه اللغوي عن امكانية النحو والخطاب، في جذور وأصول تاريخ اللغات، بالتالي لم يعد التمثيل ذا قيمة، حيث استعادت اللغة غزارتها وكثافتها يقول فوكو موضحاً اندثار العصر الكلاسيكي وزوال نظمه: «مع قيام فقه اللغة، وباختصار مع عودة اللغة إلى الظهور بفيض متعدد الواجه، يمكن لنظام الفكر الكلاسيكي الآن أن يندثر»⁴.

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 203.

²: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 76.

³: المرجع نفسه، ص 76.

⁴: المصدر السابق، ص 254.

تخطت اللغة عتبة ابستيمي العصر الكلاسيكي، من النحو العام إلى فقه اللغة أصبح لها كيان مستقل، خاص، هو كيان متحكم بقوانينها ونظرياتها المتمثلة كالاتي (نظرية القرابة بين اللغات، نظرية الاشتقاق، نظرية الدلالة، نظرية البيان التمثيلي).

نبدأ بالرابع المتمثلة في نظرية القرابة، حسب رأي فوكو « بدأ برابعها وصعودا حتى الأول» يقول فيها فوكو: « الانقطاع بين العائلات الكبرى والتماثلات الداخلية في نظام التغيرات»¹.

إن في تحليل الجذور اللغوية، نجد هناك قرابة بين اللغات، بالتالي هناك انقطاع ولا تواصل بين مجموعات اللغة، هذا ما تعبر عنه مجهودات الفيلولوجيين الأوائل، من كونها معبرة عن العلم أصبحت موضوعا للمعرفة مستقل بذاته. تقابل نظرية القرابة نظرية الاشتقاق، هي نظرية الجذر « التي كانت تقترض وجودا ناشطا لعدد من عوامل الانحتمات و النماذج بكل اللغات على السواء»².

تناقض نظرية الجذر، نظرية الدلالة، هي دراسة لمتغيرات الداخلية، أما نظرية البيان التمثيلي « لقد كانت هذه النظرية تحدد الكلمات وتفردتها بالنسبة لبعضها بإعادتها إلى المضمون الذي كانت تدل عليه»³، قول فوكو حسب تحليل عمر مهيل « لقد أصبحت اللغة موضوعا كبقية المواضيع الأخرى، أصبحت بجانب الكائنات الحية، بجانب الثروات والقيمة، بجانب تاريخ الأحداث و الرجال»⁴.

عرفت اللغة منعرجا آخر مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين خاصة مع "فريدريك نيتشه" (F. Nietzsche) و "مالارميه" (Mallarmé) حيث يمثلان محورين

¹: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 247.

²: المصدر نفسه، ص 247.

³: المصدر نفسه، ص 247.

⁴: عمر مهيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 77.

أساسيين في استقلالية اللغة وكثافتها. « كان نيتشه قد توصل في أبحاثه اللغوية إلى فصل الكوجيطو واستبعاد الذات»¹. إلا أن أعمال نيتشه النسبة لفوكو « ما هي إلا مجرد نقد لبعض الكلمات اليونانية و تأويلا لها »².

4.3 خصائص الحقبة المنطوقية الحديثة:

لم يكن فوكو معترفا بالعلوم الإنسانية، ولا هو باحث في ميادينها لأنه يرى أن الصفة العلمية بعيدة كل البعد عن مجالها، كان فوكو يدرس خطابات تلك العلوم غض البصر عن السياقات الاجتماعية والتاريخية جعله يحصر اهتماماته في البحث عن الانقطاعات والانفصالات التي لحقت بالحقب المعرفية، أراد فوكو أن يكشف عن الثابت التي تحكم كل عصر معين، من ثم الكشف عن لا شعور الخطاب المعرفي.

حدد فوكو لكل "ابستيمي" سمات، فكان "التشابه" سمة لعصر النهضة والنظام لغة العصر الكلاسيكي، أما العصر الحديث هو بمثابة إعلان اختفاء الإنسان والتاريخ « فموت الإنسان هو موت شكل أو صورة من صورته في حقبة ما لتحل محلها صورة أو شكل جديد في حقبة تاريخية جديدة»³ والذي حدده في ثلاث نقاط أو سمات أساسية:

أولاً: تحليلية المتناهي:

ظهر الإنسان بظهور البيولوجيا، الاقتصاد، فقه اللغة، أصبح يشغل مقام الملك في لوحة الوصيفات، هو مكان غُيب عن الانسان عنه طويلا، إن تلك العلوم الثلاث جعلت من الإنسان كائن متناهي (Un être fini) يقول فوكو: «... إذا كانت معرفة الإنسان محدودة، فانه عالق دون أمل في التحرر، في المضامين الوضعية للغة و العمل والحياة

¹: عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين الفلسفة و العلم عند ميشال فوكو، ص 161.

²: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص78.

³: Gilles Deleuze, pour parler Ed Minuit, Paris, 1990, P 137.

واللغة خاصة المعرفة المتناهية كصلة سلبية في ما بينها وبالمقابل، يبرر حدود المعرفة وضعيا امكان معرفة ماهية الحياة، الانتاج، اللغة»¹.

إن ظهور الإنسان كان وجه سلبي لحدث نهاية الميتافيزيقا، يقول فوكو: « لا يمكن إلا قيام ميتافيزيقا على قياس متاهيات الإنسان»².

إن البحث في العلوم الثلاث يعلن نهاية الميتافيزيقا، في نفس الوقت يعلن ظهور الكائن البشري، فالحادثة بدأت عندما أصبح الإنسان يقطن ويأوى داخل اللغة، وجد داخل حلقاته الفيزيولوجية، بدأ يتواجد داخل مقولة العمل والانتاج، حصر هذا الكائن البشري وجوده، تحت سلطة الكلمات من خلال تأثره بالعلوم الثلاث، هذا الخنق والحصار، خلق من الإنسان كائن متناه.

ثانياً: التجريبي والمتعالي (الترسندتالي):

إن ازدواجية "التجريبي/المتعالي"، هي السمة الثانية لابستيمي العصر الحديث المقصود منها التعرف على الإنسان، هذا الأخير الذي يعتبر موضوع المعرفة (الانسان التجريبي) يقول فوكو: «... إن المعرفة الانسانية طبيعة تحدد اشكالها وتستطيع في الوقت عينه أن تظهر أمامها في مضامينها التجريبية»³. ويوضح بشكل آخر في كتاب "ميلاد العيادة" « لا تقع بداية حادثتنا حين أردنا أن نطبق الطرائق الموضوعية على الانسان بل يوم تكون زوج تجريبي متعال أطلق عليه اسم الإنسان»⁴.

إن أول من وضع ذلك التمييز بين التجريبي والمتعالي هو الفيلسوف "كانط" ،شرع في انقاذ الشكل الكلاسيكي للمعرفة، حيث سيطر التاريخ، حاول كانط إعادة تشكيل

¹: عمر مهيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص265.

²: المرجع نفسه، ص263.

³: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 265.

⁴: ميشال فوكو، ولادة الطب السريري، ص330.

امكانية المعرفة وكيفيتها. إن الحقيقة عند كانط في موضوعها العالم الحسي - التجريبي صفت إلى ذلك المعرفة العقلية يقول كانط: «تبدأ كل معارفنا مع التجربة، ولا ريب في ذلك البتة، لأن قدرتنا المعرفية، لن نستيقظ إلى العمل، إن لم يتم ذلك من خلال موضوعات تصدم حواسنا (...). لكن على الرغم من أن كل معرفتنا تبدأ من التجربة فإنها مع ذلك تتبثق بأسرها من التجربة، لأن من الجائز أن تكون معرفتنا التجريبية عينها مركبة مما نتلقه من انطباعات الحسية، وما عن قدرتنا المعرفية يصدر تلقائياً ويشكل إضافة لا تفوقها عن المادة الأولية قبل أن يكون طوال التمرن قد نبهنا وجعلنا ماهرين في تمييزها منها»¹، إلا أن تحليل "كانط" للمعرفة وإمكانيتها لم يحل مشكلة الوضعية، فحسب قول فوكو « إن وضعية هذا الخطاب الحقيقي هي التي لا تزال غامضة »².

ينتقل فوكو إلى ما يسميه بـ "تحليل المعاش" أو كما ذكرها في كتابه "الكلمات والأشياء" [خبرة الجسد وخبرة الثقافة]، هذا الخطاب حديث العهد، حيث حاول أن يستعيد المنسي للمتعالى، هي فينومينولوجيا وجودية ساذجة، غامضة، مختلطة وملتبسة يقول: « إن تحليل المعاش هو خطاب ذو طبيعة مختلطة، فهو يتوجه إلى طبقة خاصة، إنما ملتبسة ملموسة بما يكفي لتمكيننا من أن نطبق عليها لغة مدققة ووصفية»³. إن تحليل المعاش له دور شديد التعقيد، قد مارسه الكائن البشري في الفكر الحديث انه غير ثابت، لأنه موجه إلى طبقة معينة، إلا أن هذا الإنسان ظهر واختفى في هذه الخبرة المعاشة.

نشأت النزعة الإنسانية « بين أنواع الفكر الوضعي أو الأخروي وتأتي الماركسية في المرتبة الأولى، وبين الاتجاهات الفكرية المستوحاة في الظاهرية»⁴. إن ازدواجية

¹: إيمانويل كانط، نقد العقل الخالص، تر: موسى وهبة، مركز الانماء القومي، بيروت، لبنان، د.س، ص ص 46-49.

²: ميشال فوكو، ولادة الطب السريري، ص 331.

³: المصدر نفسه، ص 332.

⁴: المصدر نفسه، ص 267.

(التجريبي المتعالي)، خلقت النسان، حيث يصبح هذا الاخير موضوع للمعرفة من خلال التجربة، وذات عارفة، لأنه متعالي عن باقي الكائنات الأخرى، أصبح الانسان مصدر منتج للإدراك الحسي والعقلي.

أخيرا سوف يتبادر لأذهاننا، هل استطاع فوكو من خلال تحليل الخطاب (الازدواجية)، قد نجح في تجاوز هذه الثنائية التي تلازم الخطاب الأنثروبولوجي؟

ثالثا: الكوجيطو واللا مفكر:

لازم خطاب الأنثروبولوجيا، ازدواجية التجريبي - المتعالي، أصبح الإنسان محل هذا الزوج، ضف إلى ذلك الكوجيطو أو شفافية الكوجيطو، هي شفافية تجذرت في الفكر الغربي، خلفتها الديكارتية، لكن تحدث الصدمة حيث يلتحق الكوجيطو الديكارتية بالكوجيطو الحديث، فالتحليل الكانطي بعيد كل البعد عن التحليل الديكارتية، يقول: « إذا كان همّ ديكارت أن يبرز الفكر كشكل عام لكل تلك الافكار، المتمثلة بالخطأ والوهم، كي يدرك خطرهما، على أن يتطرق إليها لاحقا في آخر مسيرته ويشرحها و يقدم حينئذ الطريقة لتلفها، وعلى العكس من ذلك، المقصود بالكوجيطو الحديث هو الابقاء على اكبر مسافة ممكنة تفصل وتربط معا بين الفكر الحاضر لذاته، و ما يتجذر من الفكر من اللا مفكر»¹.

نعرف أن الشك الديكارتية، منهاجا ماداه اليقين من خلال الوقوف على الافكار الخاطئة والابهامات، ثم يقوم المفكر بشرحها تكون قاعدة تحقق اليقين. أما الكوجيطو الحديث، هو عمل دائم، مستمر أكثر منه كشف عن الحقيقة البديهية، سوف يكون تساؤل متجدد يمكننا من أن نفهم من أن الفكر يقطن خارج ذاته بعيدا عنها كما يطلق عليها فوكو (أشكال اللا مفكر): « لا يدي الكوجيطو الحديث إلى تأكيد الكينونة، لكنه حقا يفتح

¹: ميشال فوكو، ولادة الطب السريري، ص269.

على سلسلة التساؤلات التي تكون فيها الكينونة موضوعا لها: ما يجب أن أكون، أنا الذي أفكر، أنا الذي أكون، أنا فكري كي أكون ما لا أفكر، كي يكون فكري ما لست أنا كائنًا فيه»¹.

اخترق الفكر الحديث قاعدة التفكير في اللا مفكر فيه، حيث أن هذا الأخير شرط وجود الفعل والفكر يحفظ للإنسان كينونته. يمر فوكو على تحليلات هوسرل من خلال (تحليل المعاش) يقول: « قد يبدو أن الظاهرتية، صلت مع فكرة الكوجيطو الديكارتية وموضوع المتعالي التي استخرجها كانت من نقد "هيوم" (Hume)، إن "هوسرل" (Husserl)، قد أعطى زخما جديدا لأعمق نزاعات العقل (Ratio) الغربي بأن ثناه على ذاته في فكر يعتبر تجديراً للفلسفة البحتة ومرتكزاً على إمكانية التاريخ الخاص بها»².

أراد فوكو أن يوضح من خلال النص السابق أن الظاهرتية ليست عودة إلى النزعة العقلانية الغربية القديمة، أكثر منها توضيح لتلك القطيعة التي حدثت بين ابستيمية العصر الحديث والعصر الكلاسيكي. « لقد أحيا النزعة العقلانية الأعمق بالنسبة (Ratio) الغربية، لاويا إياها على نفسها في تفكير هو تجدير للفلسفة الصرف ومبرر لإمكانية تاريخها الخاص»³.

إن اللا مفكر و اللا متعقل جزء لا يتجزأ من كينونة الانسان، متجذر في طبيعته هو الصورة الجديدة في مضمار ابستيمية العصر الحديث، ان سمة (اللا مفكر) سادت في ذلك العصر من "شوبنهاور"، "ماركس"، "هوسرل"، "فرويد، نيتشه"، فقد كانت الأرضية الخصبة ليستعيد الانسان حقيقته الغامضة، المشوشة، تلك المنطقة الصامتة بداية مع "هيجل"، يقول فوكو « فقد اعطي الشكل المكمل والاسم المقلوب، فكان في

¹: ميشال فوكو، ولادة الطب السريري، ص ص 268-269.

²: المصدر نفسه، ص 269.

³: المصدر نفسه، ص 336.

الفينومينولوجيا الهيكلية هو الشيء في ذاته (L'an sich)، مقابل الشيء لذاته (Fur Sich)، وكان اللاوعي (l'unbenusse)، بالنسبة لشوبنهاور والإنسان المرتين (الانسلابي) (Aliéné) لماركس والضمني والغير حاضر والراسب والغير الفعلي (Non effectué) في تحليلات هوسرل وفي كل الحالات¹.

إن تلك البطانة التي يستعيد فيها الانسان ذاته وصولاً إلى حقيقته هيمنة التفكير في (اللا مفكر فيه)، على العصر الحديث أصبح قانونه المصاغ، حيث كان للإنسان امكانية التعرف على جوهره الخاص، توأمه كشف حجاب اللاوعي، فك شفرات استلابه فحرره من قيودها، حقق توافقه، كل تلك النتائج يصفها فوكو بالإيجابية. انقلبت ابستيمية القرن التاسع، برز الجزء المظلم صاح الصمت كشف الغموض واللبس جذب الإنسان إلى الضوء، خرج الفكر من ذاته متجهاً نحو اللا مفكر فيه. أما في مجال الاخلاق يأخذنا فوكو إلى شكلين من الأخلاقيات (الأخلاق المتمثلة بالأبيقورية أو الرواقية)، هي الأخلاق التي تُستمد منها القوانين المدنية أو الحكمة ومبادئها، أما الأخلاق الحديثة « لا تفرض أية أخلاقيات وكونها تقيم كل أمر داخل الفكر وداخل سعيه لإدراك اللا مفكر»².

لم يقترح ابستيمي العصر الحديث أي أخلاقيات، ليست هناك أي اخلاقيات ممكنة لأن الفكر قد خرج من ذاته باحثاً عن جوهره، مستقبلاً، كأنه أصبح الفكر نوعاً من الفعل السياسي، التحرري يقول فوكو: « إن التفكير والوعي والتوضيح الصامت والقسم المعاد إلى ما هو صامت وظهور ذلك الجزء من الظل يحجب الإنسان عن نفسه وتتشيط الجامد، إن كل ذلك يؤلف لوحده مضمون الأخلاق و شكلها»³.

¹: ميشال فوكو، ولادة الطب السريري، ص 271.

²: المصدر نفسه، ص 271.

³: المصدر نفسه، ص 339.

كان ظهور فكرة "اللامفكر فيه" تتضمن أن الإنسان لم يعد في حالة شفافية كوجيطو ديكرت، بل هو إنسان يبحث في خفاياه في خاماتها، لأنه إنسان يجهل ذاته، من خلال النظرة الأركيولوجية الفوكوية تعتبر الإنسان واللامتعلق خطان متوازيان لا ينفصلان. إن اللامفكر هو توأم الإنسان، صحيح أنه غريب عنه إلا أنه قريب في ذات الوقت. طرح العصر الحديث (فكرة الغيرية) المدثورة، التي خرجت إلى النور مع فينومينولوجيا (هيجل)، الإنسان الاستيلابي مع "ماركس" واللاشعور مع "فرويد" واللاوعي مع "شوبنهاور".

المبحث الثالث: المعرفة كممارسة خطابية

1. في خطاب الجنون:

في شهر ماي 1961، قام فوكو بمناقشة أطروحته حول " تاريخ الجنون " ومن خلال محطات أبحاثه ذهب إلى أرشيف يوجد في مكتبة " ابيسالال " « أرشيف تاريخ الطب الذي جمعه مع الدكتور "اريك ويلر" "Éric weller" ، الذي احتوى على وثائق طبية تمتد من القرن السادس إلى القرن العشرين، وبلغت ما يقارب احدى وعشرين ألف وثيقة شملت رسائل ومخططات وكتب نادرة تخص تاريخ الطب»¹.

طرح فوكو عدة اشكالات من خلال الأرشيف الذي يقارب 21.000 وثيقة، متمثلة في متى تمّ اعتبار الجنون مرضاً؟ وكيف تحدث العقل عن الجنون؟ وكيف تشكلت المعرفة عن الجنون. « إن ميشال فوكو وهو يعلن أنه يقوم بحفريات أثرية حول اللا عقل، إنما يرسم في الواقع، لوحة العقل»².

تطرق فوكو في كتابه " تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"، إلى كيفية تعامل الحضارة الغربية مع الجنون منذ العصر الوسيط إلى غاية العصر الحديث، موضحاً جل الاستراتيجيات والآليات التي طبقت على ظاهرة الجنون والذي ارتبط بشتى أنواع الاقصاء والإكراه والتهميش. أنتجت المخيلة الانسانية عدة صور رمزية لوضع حدود لعالم غريب، من خلال ممارسات السحر والشعوذة وممارسات الطقوس، إنها القضية الجوهرية التي شغلت فوكو في بحثه، مطبقاً منهجه الأركيولوجي، لاستتطاق موضوع رمي في غياهب الإرث الإنساني والفكري.

¹: الزواوي بغورة، الخطاب، بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 145.

²: برنار هنري ليفي، نسق فوكو، في نظام الخطاب، لميشال فوكو، مصدر سابق، ص 60.

قام فوكو بتعريف المناطق الخفية التي تسكن الحضارة الغربية والتي بدورها تعتبر من اساسيات قيامها، حيث نقل أدوات الحفر من المادة الجامدة وتطبيقها على مواد حية والأمراض وأساليب السياسة وكذلك الشرطة، إن كتاب " تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي " أولى أعمال فوكو المكتملة « إنه بمثابة علم أثريات الأمراض العقلية»¹. إن الأمر والقضية التي شغلت اهتمام فوكو خلال هذه المحطة "خطاب الجنون في الثقافة الغربية"، من خلال الاصغاء لصوت المجنون و التأمل في لغته « فكان الغرض الأساسي لدى ميشال فوكو هو تبيان الكيفية التي تم بها حجز هذه الشريحة و ما هي المؤسسات التي خصصت لاستقبالها؟ وما هي الهيئات التي تقوم بتحديد جنونهم وعلى أي من معايير يصنفون ذلك؟»²؛ ذهب فوكو إلى أرشيف المؤسسات الاستشفائية ليحفر في الأرضية السفلى تحت السطح يناقش تلك العلاقة المرماة " العقل والجنون من خلال المراحل الثلاث الكبرى ابتداء من الجنون في العصر الوسيط حتى العصر الحديث.

1.1 الجنون خلال الحقبة الوسيطة:

يقول فوكو « لقد اعتبر العصر الوسيط ،الجنون عبارة عن جملة من الخوارق، فالقوة الخارقة ليست لله ولا للشيطان، إنما للجنون»³.

ساد الاعتقاد في العصر الوسيط أن المجنون والساحر أو المشعوذ يحملون نفس الصفات ونفس السلوكيات « فلا فرق بين المجنون الذي لا يكثرث بحرارة الصيف العالية وهو يمشي على الرمل الساخن وينام عليه وبين الساحر الذي يمشي على الجمر حافيا

¹: جوزي ماركو راء (الانغلاق الكبير)، تر: عبد الرزاق جيلالي، مجلة دراسات عربية، العدد 11 و 12، 1989، ص 101.

²: جيبيكة ابراهيم، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 17.

³: M. faucault, histoire de la folie à l'âge classique ,P 36.

دون أن يشعر بأي ألم أو ضرر، إنه لا يشعر بالضرر لأنه محمي من طرف الارواح الشيطانية التي جعلته بطريقة غير عادية¹. كان الجنون عبارة عن عقاب سلطه الله على عباده الذين خرجوا عن ملته وطغوا على سلطانه، إن فوكو في كتابه " العمدة"، أشار إلى العزل الاجتماعي والفيزيولوجي لمرضى الجذام ليحل محله أصحاب الأمراض التناسلية، بدورهم يتم اقصائهم وتهمشهم ليحل محلهم المجانين « اختفى الجذام وتوارى المصاب به أو كاد من الذاكرة إلا أن بنيانه ستستمر، فستشهد الأماكن ذاتها نفس لعبة الإقصاء قرنين أو ثلاثة بعد ذلك (...) فقد حلت الأمراض التناسلية محل الجذام فقد كانوا يخافون من العدوى ويخافوا أن يصبحوا معاقين مثلهم، لقد كانوا يصبون عليهم اللعنات ويرفضون مقاسمتهم نفس المأوى (...) لقد استطاعت الامراض التناسلية، تحت تأثير علم الجن أن تنفصل عن سياقها الطبي لكي تصبح جزءا من عالم الجنون و ضمن فضاء اخلاقي للإقصاء»².

2.1 الجنون في عصر النهضة:

ساد اعتقاد جديد خلال عصر النهضة تجاه ظاهرة الجنون، يحمل صبغة من السوداوية والتشاؤمية يقول فوكو: «تعتبر سفينة المجانين رمز لكل المخاوف التي طفت فجأة على آفاق الثقافة الغربية خلال أواخر العصر الوسيط، إذ أصبح الخبل مصدرا لتلك المخاوف فالمعتوهون عبارة عن شخصيات خارقة يحيط بها اللبس دوما»³. ظهر موضوع جديد في عصر النهضة، إنها سفينة الحمقى حيث قام فوكو باللجوء إلى العمل الفني الذي قام به الرسام الهولندي "جيروم بوش"^{*}، ليكشف عن حالات التيه التي

¹: جيبيكة ابراهيم، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 18.

²: ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص، ص، ص، 26، 27، 28.

³: المرجع السابق، ص 24.

^{*}: جيروم بوش، رسام هولندي من عصر الباروك (1516-1460)، اشتهر برسم الموضوعات الخيالية، لقب بمكتشف اللاوعي، فن بوش عكس العادات الغامضة للعصور الوسطى من أهم أعماله: الخطايا السبعة، سفينة المجانين.

كان يعيشها المجانين، إن لوحة الفنان تحمل عدة دلالات ورموز مخيالية لتترجم لا وعي ذلك المجتمع، إنها لغة رمزية معبرة عن عمليات التهجير والطرده والإقصاء.

« سفينة الحمقى من بين الاساطير الروائية أو الهجائية هي التي كان لها وجود حقيقي، فالسفن التي كانت تنقل حمولتها الجنونية من مدينة إلى أخرى وجدت حقا (...) لقد كانت المدن تطردهم من جنابتها، ليلتحقوا بالبراري، حيث يتيهون على وجوههم (...) و هذه الممارسة كانت سائدة خاصة في ألمانيا»¹ لم تكن عملية الطرد بحالة مستمرة و لم تمس المجانين المحليين بل الغرباء فقط « فكل مدينة كانت لا تعتني إلا بحماقتها»².

إن لجوء فوكو إلى رسمة بوش "سفينة الحمقى"، يجعلنا نتأمل عدة رمزيات لتقدم لنا عدة تأويلات فمن بين هؤلاء المطرودين من يمزح ويغني ومنهم من يتراشق بالماء وفي كل زاوية السفينة شجرة نبتت داخلها، يتسلقها واحد من هؤلاء يريد أن يقطع شيء بسكينه فوقها جمجمة لإنسان ميت، إنها شجرة رمزية للتعبير على نمط التفكير الذي يؤمن بالخوارق الطبيعية.

يلجأ فوكو مرة أخرى إلى اعمال شكسبير يقول فوكو: « في اعمال شكسبير تتماشى الحماقات مع الموت ومع الجريمة وتتصاع الاشكال لكل أوهام الخيال»³.

ربط انسان عصر النهضة الجنون بالموت و هذا ما عبرت عنه أعمال ادباء وكتاب ذلك العصر يقول شكسبير: « إن الجنون عبارة عن شر يفوق كل طاقتي ويتجاوز كل ممارساتي وسقلت من قدراتي للتحكم، إن الجنون هو الموت بعينه، لأنه لا يحتاج إلى معالجة من طرف الطبيب، لكن يحتاج إلى رحمة مقدسة واحدة»⁴. ثم أخذ الجنون سمة

¹: ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص 59.

²: المصدر نفسه، ص 60.

³: ابراهيم جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 25.

⁴: المرجع نفسه، ص ص 25-26.

أخرى في عصر النهضة فاقترن بالسعادة كما يقول الشاعر " آراسم" * « لا تجدوا اللذة التي تتاشدونها ولا السعادة إن لم تدخلوا عالم الجنون»¹. يقول فوكو موضحا ذلك «إن الجنون يرسم صورة مألوفة في المشهد الاجتماعي لقد أصبح الناس يستمتعون، لقد أصبح الناس يستمتعون بشدة تلك الافاوات القديمة للبلهاء، ويستمتعون بحفلاتهم اجتماعاتهم وخطاباتهم»².

اقترن الجنون كذلك بالحكمة، فلم يكن المجنون كائن غير مفكر فيجب عليك أن تتذكر الحكمة اليونانية القائلة « بأن المجنون انسان يفكر دوما بطريقة جيدة وسليمة »³. ارتبط الجنون في العصر النهضوي، بالخوارق هذا ما نجده في لوحة " سفينة المجانين" كذلك اقترن بالموت لانتشار الاوبئة آنذاك، فكل ما هو غامض هو مميت، ايضا نجد أن موضوع الجنون ارتبط بالسعادة والحكمة، حسب رأي آراسم حيثما كان عالم الجنون كانت السعادة واللذة. « لقد كانت البدايات الاولى للقرن السابع عشر متسامحة إلى حد كبير مع الجنون »⁴.

3.1 الجنون في العصر الكلاسيكي:

إن مع بداية العصر الكلاسيكي (1640، 1793). مع اللحظة الديكارتية يأخذ موضوع الجنون قالباً مغايراً و مختلفاً عن عصر النهضة يقول فوكو: « و ها هو ديكارت يصنف الجنون ضمن رحلة الشك عنده إلى جانب الحلم و كل أشكال الخطأ»⁵.

* آراسم: شاعر يوناني (460 ق.م).

¹: ابراهيم جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 28.

²: ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص 65.

³: المرجع السابق، ص 29.

⁴: المصدر السابق، ص 65.

⁵: المصدر نفسه، ص 67.

بعدها كان يرسل المجانين في سفينة بحثا عن عقولهم، جاء الاعتقال الكبير حسب الوصف الفوكوي هنا ومع اللحظة الديكارتية ارتبط الجنون باللا عقل حيث أن «الجنون لا يمكن أن يتحدث عنه الا من الخارج، فقد عرف القرن السابع عشر خطابا عن الجنون، لا خطاب الجنون، انه في حد ذاته خطاب هذياني أي خليط من العلم و من الخوف»¹. اوضحت علاقة الجنون باللا عقل واضحة لمعالم و بطريقة فلسفية مع الفيلسوف ديكارت و لفهم ذلك يجب العودة إلى التأملات الديكارتية يقول: «كيف يمكنني أن أنكر أن هذه الايدي وهذا الجسد ملكا لي اذا لم يكن ذلك ناتجا عن مقارنتين لنفسي مع بعض الحمقى، هؤلاء الذين يؤكدون أنهم ملك وهم فقراء، ويؤكدون أن على أحبابهم كسوة وهم عراة أو يتوهمون أنهم عراة، أو أن أجسادهم من زجاج»².

يستبعد الكوجيطو الديكارتية ظاهرة الجنون ، لأنها ذات متوقفة عن التفكير أو عن الوجود، لان التفكير عند ديكارت يمثل صورة ضرورية من صور الوجود الانساني « ازيح الجنون من مكانته التي كان يحتلها في عصر النهضة على أساس أنه حكمة، فالعصر الكلاسيكي اعتبر أمرا مختلفا عن الحكمة الانسانية»³.

قام ديكارت بنفي اية علاقة جدلية بينة العقل و الجنون، فأقصى الجنون على المستوى الفكري الوجودي كذلك، بل أصبح المجنون عبارة عن حيوان، حسب ما أشار اليه فوكو لقد كان النساء المصابات بالجنون مربوطات كالكلاب إلى الباب وعزلن عن الحارسات والزوار بواسطة رواق واسع محمي بسياج من الحديد، وتمرر لهم الاغذية والفرش وما يلزمهن عبر شبابيكه و تقوم بتنظيف المكان من الاوساخ بواسطة المذرة»⁴.

¹: جان لا كروا، دلالة الجنون في فكر ميشال فوكو، في نظام الخطاب، م س، ص 90.

²: ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص 67.

³: جون ستروك، البنيوية من ليفي ستروس إلى دريدا، تر: محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، ط1، د س، ص 52.

⁴: المرجع نفسه، ص 34.

إنّ هذا الوصف الذي قام به أحد العمال، يترجم لنا صورة المجنون الحيوانية و هذا من أجل اقضاء المجنون والخط من قيمته كانسان غير عاقل، فشيدت أماكن لعزلهم وأبعادهم عن الساحة العامة. « تعود الارهاصات الأولى لهذا العزل إلى تأسيس المستشفى العام في باريس حسب ما أكده فوكو " تم في 27 أبريل 1956 انشاء المستشفى العام الذي يمكننا باعتبارها الخطوة الاولى التي بادرت بها السلطات بالتجسيد الفعلي لممارسة العزل وذلك بإنشاء مراكز الحجز وهذا من أجل تشديد الوقاية عليه حتى لا يسلك وفقا لحريته وبهذا يكون العصر الكلاسيكي قد بدأ عمله لتهميش و اقضاء المجنون و وضعه بعيدا عن الفئات الاجتماعية الأخرى»¹.

انشأت المستشفيات، لا من أجل الاهتمام بالمجانين ولا من أجل علاجهم، بل كانت تلك المؤسسات عبارة عن أماكن عزل المنبوذين والمتشردين والمتسولين، كلهم يوضعون في المصحات التي تحولت الى دور ومؤسسات عقابية، يوضع فيها كل من يسبب ازعاج أو قلق للمجتمع خاصة الطبقة البرجوازية والارستقراطية يقول فوكو: « طبق العصر الكلاسيكي عملية الحجز بطريقة مشتبهة وذلك لكي يقوم بلعب دورين هما: امتصاص البطالة أو على الأقل محو المظاهر الاجتماعية الأكثر تفشيا. كما نجد إلى جانب هذه المراقبة المستمرة لضرائب الدخل»².

تحول المستشفى وبصفة غريبة من مهمة علاجية إلى مؤسسة عقابية، اقصاصية تهميشية، بل انتقلت المصحات من أيدي المعالجين والأخصائيين إلى ايادي خفية، كرجال الشرطة والحكم والإدارات الاصلاحية. حيث أن ظاهرة الجنون لم تقترب فقط

¹: ابراهيم جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 33.

²: المرجع نفسه، ص 37.

بمجالها بل تعدت لترتبط بالظروف السياسية والإدارية والاقتصادية والسبب «...راجع إلى كونهم فاقدى الاهلية نتيجة اوضاعهم التي أصبحت مقترنة بالجنون»¹.

إلا أن هذه الحالة القسرية و المزرية لظاهرة الجنون، لم تبقى على حالها ، بل التفتت اليها بعض الجهود لمناهضة لتلك المعاملة غير الانسانية لقد كان للقرن التاسع عشر صدى في إنجلترا اذ قام آل توك الذين أصبحوا المدافعين عن العمل المنسوب اليهم بتحرير المجانين الذين بتحرير المجانين الذين رموا كمجرمين السلطة تحت الأرض في زنازين حيث لا تدخل عين بشر. ففي خلال نصف قرن أدليت شهادة - و بدون أي ادعاءات مغرية - بكون العصر الذي انتزع المجنون من اختلاطه بالمحكومين عليهم حكماً أبدياً ففرق الأبرياء عن مذنبى الجرائم.

4.1 الجنون في العصر الحديث:

في القرن السابع عشر بدأ اعتبار الجنون تطيرا للعقل من خلال عملية تحرير المجانين والتي أصبح لها سند قانوني. لكن ارتباطها بالعوامل الاقتصادية هو ما دفع بالمسؤولين إلى تحريرهم للحاجة إلى اليد العاملة، حيث لم الدافع انساني اكثر منه اقتصادي، صحي، اقتصادي، « إن ظهور العزل الأول كان سببه حسب ما أشار له فوكو هو انتشار البطالة التي بنيت من أجلها السجون والمستشفيات لغرض امتصاصها، أما ظاهرة الانتشار السريع للمصانع فقد نتجت عنه الحاجة إلى استغلال اليد العاملة الرخيصة وهذا هو العامل الأساسي الذي دفع إلى المبادرة في تحرير كل من أحتجز»².

¹: ابراهيم جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 38.

²: المرجع السابق، ص 41.

إلا أنه وبعد قيام الثورة الفرنسية* وما نادى به بحقوق الإنسان وحفظ كرامته تغير مجرى "ظاهرة الجنون"، حيث أحدثت قطيعة مع أوصل العصر الكلاسيكي بكل أحداثه التاريخية والثقافية والاجتماعية. ذهبت الثورة الفرنسية إلى زعزعة البنى الفكرية للعقلية الأوروبية. « لقي الاعلان عن حقوق الانسان تطبيقا ملموسا ففي ما بين 12 مارس إلى 16 مارس 1790 في غضون ستة أسابيع أصبح كل الاشخاص المحتجزين في القصور أو في مراكز الشرطة او في السجون الاخرى مهما كان نوعها؛ أما الذين أقيمت ضدهم شكاوي في المحاكم بسبب ارتكابهم جرائم معينة أو احتجزوا بناء على اصابتهم بالجنون أو غير ذلك فكل هؤلاء قد اطلق صراحهم»¹.

إن عملية التحرير ارتبطت كذلك بحدث علمي، و من هنا ارتبط الجنون بالمرض متمثل في علم التشريح الذي يرجع له الفضل في النقلة النوعية للنظرة الطبية بالتالي طرح الجنون كموضوع علمي طبي، وضروري دراسة هذه الظاهرة من الناحية النفسية و هو ما يتناسب مع علم النفس المرضي « لقد قام فرويد بالفعل بنزع الأساطير عن كل البناءات الموجودة في المصطلحات النفسية و حذف الصمت والنظرة و ألغى تشخيص الجنون عن طريق تحديقه في مرآة منظاره الخاص بالذات و أخرس كل أصوات الادانة إلا و أنه في مقابل ذلك ضخم في مزايا الطبيب المداوي و وصل بمنزلته إلى درجة و عليه فان التحليل النفسي لن يستطيع أن يفك الغاز علامات الجنون»².

تغيرت صورة المؤسسات التي تحتوي ظاهرة الجنون خلال العصر الكلاسيكي التي كانت عبارة جدران للقمع والحجز والإقصاء والاعتداء بالضرب والقهر فحلّ محلهم أطباء

*: الثورة الفرنسية: تُعدُّ الثورة الفرنسيّة ثورةً شعبيّةً ضخمة اندلعت في دولة فرنسا خلال الفترة ما بين (1789م-1799م)، حيث بدأت هذه الثورة بأزمة اقتصادية حكوميّة، ثم تطوّرت فيما بعد إلى حركة شعبيّة تتخذ التغيير العنيف منهجاً لها.

¹ : ابراهيم جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 42.

² : الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص ص 150-151.

مختصين كعلم النفس الاكلينيكي، بالتالي أصبح صوت المجنون مسموعاً خاصة مع اكتشاف فرويد الكبير. إلا أن حسب رأي فوكو لم يصب هؤلاء الاخصائيين في فهم ظاهرة الجنون، أراد فوكو ان يكشف عن الشروط القبلية التاريخية لهذه المعارف.

وفي الأخير يمكننا نلخص تحليل فوكو لظاهرة الجنون في جملة من الافكار نضعها في نقاط:

- استغلت الحضارة الغربية ظاهرة الجنون لتوظيفها في عدة مجالات خاصة الممارسات السلطوية والبوليسية كالصاق تهمة لأشخاص يمثلون قلقا للسلطات السياسية.
- ارتباط الجنون بالاستغلال الاقتصادي وتوظيف المجانين بأرخص الأجور فانتقلت السلطة من يد الطبيب إلى يد البرجوازي.
- اقترن الجنون بالردائل والعادات السيئة اللا أخلاقية التي ينبذها المجتمع.
- يذهب فوكو إلى نتيجة فحواها أن الثقافة الغربية عجزت عن إدراك ظاهرة الجنون، قام فوكو بتتبع تاريخ هذه الظاهرة إلى توصل إلى أن هناك تحول في تحليل وفهم الجنون، فكانت ظاهرة عادية إلى أن أصبح حالة مرضية.
- تعد ظاهرة الجنون ممارسة خطابية عند فوكو، مثلها مثل الممارسات الادبية والفنية.
- نعت فوكو أعمال المؤرخين بالتقليدية التي تفتقد لكل الجوانب الهشة في المجتمع والمسكوت عنه، والمرفوضة.
- نشأت النظريات السيكلوجية، إلا أنها لم تتمكن من فهم ظاهرة الجنون رغم تطور العلاج والاهتمام المفرط بالأبحاث المتعلقة بالجانب النفسي والعقلي.

2. اركيولوجيا العيادة:

يعد فوكو من عمالقة الفكر الإنساني، زار عبر حفرياته مناطق جد محظورة أو تكاد تتعدم، لديه جرأة افتقر إليها العديد من اسلافه فلم يتوقف عند ظاهرة الجنون من خلال كتابه "ظاهرة الجنون في العصر الكلاسيكي"، بل استمر في دراساته الحفرية لظواهر قريبة من الجنون، ذهب إلى المؤسسات العيادية و الاستشفائية لكي يعيد هيكلة الخطاب الطبي، مستنطقا تلك العلاقة الصامتة بين المريض والطبيب من خلال كتابه "مولد العيادة"، انها قراءة للأرشيف الطبي الغربي (1718-1820)، يعتبر هذا المؤلف مكمل لكتاب "تاريخ الجنون خلال العصر الكلاسيكي"، إنها حفريات في التشخيص الطبي، يقول ميشال فوكو: «لا يجب أن ننظر إلى الطب على أنه مجموعة من الخطابات الشفوية لتقنية فعل المعالجة والمعرفة المتحصل عليها، بل إنه يطور المعرفة الإنسانية ليجعل من الإنسان الأسلوب النموذج»¹.

إن ما كان يشغل بال فوكو هو كيفية تحول الرؤية الطبية إلى ممارسة خطابية من خلال الكشف على ذلك النظام السلطوي والتأديبي الذي يقوم بترويض وتدجين المريض. يقوم فوكو بإجراء آليات الاركيولوجية ليقضي آثار وتشكل تطور النظرة الطبية عبر تاريخ الممارسة الطبية وكيف لهذه الظاهرة تشكلت داخل العيادة، وهذا ما غفل عنه العديد من الباحثين والمؤرخين إن نزوع بعض الباحثين إلى دراسة تطور الممارسة الطبية والقضايا الصحية المرتبطة بها بعيدا عن السلطة السياسية التي تحتضنها والشروط السياسية والتاريخية والاجتماعية التي تولد داخلها هو ما أفقد هذا النوع من الدراسات جزءا من كمالها.

اهتم فوكو بالبعد التاريخي لتشكل هذه الظاهرة من خلال الكشف عن شروط القبلية وكيفية تطورها.

¹ :Michelle Foucault, Naissance de la Clinique, Ed cères, Tunis 1995, P35.

ارتبطت مقارنة فوكو للمرض بالبعد السياسي للدولة « ستتكفل الدولة بتعيين اطباء في مختلف الاقاليم وتبدأ السلطة تتدخل في المسائل المتصلة بصحة الجمهور وستكون هذه الخطوات بمثابة بداية لظهور الشكل الثاني من الطب وهو الطب العيادي، حيث ستصبح العيادة المكان الذي تتقاطع فيه النظرة بالمنطوق، بحيث يتأسس طب على مفهوم النظرة أو الرؤية لها قواعد خاصة»¹.

لكن إذا ارتبط الطب بالبعد السياسي مع القرن الثامن عشر، فإن الاهتمام بترويض الجسد يعود إلى ما قبل التاريخ، هذا ما ذهب اليه فوكو ليعري تلك العلاقة بين المريض والطبيب ويقوم بالحفر في ثنايا جسد المريض وهويته.

يمثل الطب عند فوكو اهم النظم التي ساعدت في تدجين الجسد وانتقال المريض من البيت إلى المستشفى، بالتالي خلف فرد نمطي يديرون حياته وفقاً للتصور الطبي. قرأ فوكو الارشيف الطبي، « فدرس مجموع الممارسات الخطابية للطب الحديث، وارجعها إلى ثلاث أنواع هي: الطب التصنيفي والطب العيادي والطب التشريحي فما المضمون المعرفي لهذه الانواع الطبية؟»².

بداية مع العصر الكلاسيكي، ساد الاعتقاد أن الامراض مرتبطة ومتحكمة فيها ابستمية «التصنيف»، فكان المرض جزءاً من الطبيعة.

ساد في العصر الكلاسيكي، طب الاجناس أو طب التصنيف وهو طب يقوم على تصنيف الامراض بشكل هرمي وردّها إلى أنواع وأجناس والقاعدة المعتمدة في هذا النوع من الطب هي « لا تعالجوا أي مرض دون أن تتأكدوا من جنسه»³، فكانت علاقة

¹: الزواوي بغورة، الخطاب، بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص154.

²: المرجع نفسه، ص154.

³: المرجع نفسه، ص154.

الطبيب بالمجنون علاقة قهر واضطهاد «إن الطبيب بالنسبة للمجنون ليس سوى طرف مضطهد»¹.

كان الاعتقاد السائد خلال الحقبة الكلاسيكية هو ربط المرض بالجنس مثل النبات في مراحل نموه واضمحلاله، كان المرض قبل، عبارة عن عقاب الالهى أو روح شريرة سكنت ذلك الجسد العليل، فقد يعتل المريض كما وضحه فوكو مع مرض الجذام والأمراض التناسلية، كأنه مجرم أو مجنون أو عاطل عن العمل، كان الوعي السائد هو "الوعي النقدي" الذي يتمثل في الادانة ثم انتقل الوعي العملي المتمثل في التعاطف حتى انتقل من النظرة العادية إلى النظرة المرضية. هذا يحمله فوكو للمؤرخين وما غفلوا عنه.

أقصى الفهم الغيبي والميتافيزيقي، وراح يرتمي في احضان التجربة، قد عبر عليها الفيلسوف "كوندياك"، "كان هذا الفيلسوف تلميذا لجون لوك" تشدداً من معلم. فانطلاقاً من المشاهد القائلة إن الاحساس هو مبدأ معارفنا، أراد أن يستخلص من هذه الواقعة أنها تولد ملكاً... (...) و كانت فلسفة المرشد لأكثر من عالم يطمح إلى أن يحبس نفسه في دائرة دراساته الخاصة².

أصبحت العيادة المكان الذي تتقاطع فيه النظرة بالمنطق ومع نهاية القرن الثامن عشر « إذا رجعنا إلى القرن الثامن عشر فإن المرض اقترن بالهستيريا والوسواس المرضي وغيرها، نتيجة الأوضاع الحياتية التي ارتبطت بالحياة النفعية المهيمنة على المجال الروائي والمسرحي»³. وبداية القرن التاسع عشر، سوف يأخذ الطب مجرى جديد يسمى "دولنة الطب" أي تدخل الدولة في الشؤون الطبية، لتتفشى سلطتها ويستحوذ على صحة الشعب هدفها القضاء على البؤس وسيتحول المرض إلى مشكلة دولية بوليسية.

¹: Michelle Foucoult, Maladie Montale et Psychologie, puf, Paris, 1997, P 59.

²: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1987، ص 507.

³: Michelle Foucoult, Naissance de la Clinique, P P 28-29.

بينما كانت المستشفيات عبارة عن مؤسسات اعتقالية و اقصائية سوف تتحول إلى دور للعلاج والاصلاح والعقاب « وهو ما شكل دور الحجز والمستشفيات أول مظهره، لأن المستشفى ليس مؤسسة طبية، بل هي بنية قانونية ما يشب الكيان الاداري الذي بالإضافة إلى سلطانه المعترف به خارج المحاكم، يقرر ويحكم و ينفذ»¹.

اختص فوكو بنظام الحماية الطبية وربطها بالسلطة التأديبية بدعوة رفع رفاهية السكان. ثم نقل المريض من البيت إلى المستشفى الذي لا يختلف كثيرا عن المعتقل والسجن. حاول فوكو استنطاق تلك الآليات والتقنيات التي قامت بترويض الجسد وتدجينه وإقصاءه. إنه جسد عبارة على مستقبل لكل القوى السياسية والاجتماعية التي تحاول ضبط ومراقبته « اذا كان الطبيب في الخطاب الطبي هو المسؤول السيد والمباشر والعين التي تنظر والأصبع الذي يلمس والعضو الذي يفك الرموز ومركز تلاقي واندماج الأعمال الوصفية وتقني المعمل، فذلك لأن هناك مجموعة علاقات داخلية في هذا الشأن علاقات بين المكان الاستشفائي كموضع هو في أن واحد للإسعاف و للمراقبة المنتظمة والصارمة وكموضع علاج مختبري و تجريبي في آن (...) انها علاقات بين دور الطبيب كمعالج ودوره كمرب ودوره كوسيط في نشر المعرفة الطبية ودوره كمسؤول عن الصحة العامة في الحيز الاجتماعي»².

درس فوكو "النظرة الطبية: Regard medical، موضحا استخدام المؤسسات الطبية للسلطة. لأن الطبيب هنا يلعب دور المراقب. فصل الجسد عن هوية المريض وشخصيته، فيهمل كل الجوانب التي ليست لها علاقة مع المرض أو خارجه عن إطار التشخيص. داخل عيادة تحتجز الناس في اقصاص وتقوم بجدولة عملية المعالجة في علاقة صامتة بين الطبيب والمريض هذا الاخير الذي لا يعرف ماذا يجري، أما الطبيب

¹: ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص 71.

²: دريفوس ورايينوف، فوكو مسيرة فلسفية، ص 61.

فهو متخوف ومتحفظ ومنشغل، إنه يمارس سلطة غير مرئية لاستحواذه على " المعرفة الطبية".

« لقد كشفت نظريات فوكو إلى حد ما الطب المؤسسي Institutional، بموضوعه الجسد "Body Objectification"، حيث تمت صياغته طبيًا، بحيث أصبح الجسد مجرد كيان طبيعي، يخلق و يعاد اناجه من خلال الخطاب»¹.

تامت السلطة الطبية، حينما وضعت خطة استراتيجية منظمة تبسط هيمنتها، فخلقت من المريض جسدا يعاد انتاجه، حيث يقدم الطبيب تقارير عن ذلك الجسد المنفصل عن هويته، كذلك خلق وتحسين تقنيات طبية تقوم بفحص المريض من ثم تتحكم فيه و تستغله لتطوير المعرفة الطبية خاصة مع علم التشريح الذي يعد شكلا جيدا من الممارسة الطبية من خلال كتابين "علم التشريح العام" و "دراسة في الأنسجة"، « لقد عرف الطب مع بيثا "Bichat" شكلا جديدا من الممارسة الطبية (...) إنها دعوة لفتح وتشريح الجثث الذي كان ينكره و يمنعه الدين يقول عندما امتد ضياء الفلسفة إلى آفاق الشعوب المتحضرة، أصبح من الممكن للنظرة الفاحصة أن تنتقل بين رفات جسم بلا حياة، كانت فريسة للود أصبحت منبعا لا ينصب للعديد من الحقائق النافعة»².

كان لعلم التشريح الدور الكبير في تحول النظرة الطبية، من خلال استغلال الجثث للتوصل إلى حقائق نافعة، بدل من جسم فريسة عفنة. انتقلت المعرفة الطبية كونها وصفية و تصنيفية إلى عيادية حتى معرفة طبية تطبيقية خاصة مع اعمال الطبيب بيثا حيث قام بتحرير الطب من فكرة الخوف والموت. إن القطيعة الكبرى في تاريخ الطب الغربي بدأت بالتحديد اللحظة التي أصبحت فيها التجربة العيادية ذات نظرة تشريحية - فحسية - Anatomoclinique، أما فيما يتعلق بالعلاج النفسي فقد ظهرت بوادر الطب

¹ : حسن ابراهيم عبد العظيم، (ميشال فوكو و تأسيس وسيولوجيا الجسد)، الحوار المتمدن، 17-06-2011، ص 02.

² : الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته و علاقاته عند ميشال فوكو، ص 155.

النفسي العيادي مع الطبيب "بيل" و ذلك سنة 1002¹. ظهر الطب الوضعي الذي يقوم بتشريح الاجسام ودراسة اعضائه وانسجته، تغيرت لكن النظرة لطبية التي تقوم على مبدأ التماثل والتطابق بين المرئي والمنطوق، فأصبح السطح لا يمد بالمعرفة الطبية الحقة.

إن تحديد موضع المرض لقفزة نوعية في تاريخ الطب، بعدما كانت النظرة العادية بأن فكرة الموت هي نهاية المرض والمريض على حد سواء، « قد أصبحت مع الطب التشريحي ينظر اليها على أنها وجود متعدد وموزع على مراحل زمنية، ومنها المرض يقول ببشا «إنه في حالة الوفاة الطبيعية فان الحياة الحيوانية هي التي تتطفئ أولاً وتبدأ بخمود في الحس وكسل في وظائف المخ وضعف في القدرة على الحركة وتصلب في العضلات وشلل في الأمعاء و أخيرا توقف في القلب»².

ساهم علم التشريح في تطور المعرفة الطبية، تخلص المريض من كل اعتقادات مراقبة ميتافيزيقية على أنه عقاب الالهي، فتحول ذلك الشيطان والحيوان إلى مريض تقدم له ادوية ثم إلى جسد تقام عليه تجارب لاستخلاص معارف أخرى طبية تساعد على التحكم في أمراض أخرى.

2.1 نظرة فوكو للمستشفيات الغربية:

قدم لنا فوكو صورة جد واضحة لوضع المستشفيات الغربية وكيفية تعاملها مع المريض عبر العصور، مقابل وضع المستشفيات في العالم الاسلامي كيف سيكون وضعها من ناحية تعاملها مع المرضى؟ يقول ف في هذا الصدد « إن العالم العربي قد تمكن من انشاء مستشفيات حقيقية خاصة بمعالجة المصابين بالجنون؛ وهذا قد تم في وقت مبكر جدا. اذ قام العرب ببناء مستشفيات في عدة مدن منها مدينة فاس وذلك في بداية القرن السابع وفي القاهرة خلال القرن الموالي له مباشرة وقد كان العلاج في هذه

¹: ابراهيم جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة فوكو، ص 44.

²: المرجع نفسه، ص 156.

المستشفيات يقوم على استعمال الموسيقى ومشاهدة المسرح والاستماع إلى القصص التي يرويها الأطباء و الممرضون للمرضى»¹.

عندما كان الغرب يرحلون مرضاهم " المجانين " في سفن ثم يلقي بهم في البحر و المحيطات، حينما كانت تنشر عقليات خرافية ترى في المرض عقاب الاهی كان المسلمون يشيدون المستشفيات بطريقة مزدهرة وفقا لاستراتيجيات جدا متحضرة، مهيمن بالراحة النفسية للمريض قبل تشخيص مرضه، إنها الخبرة التي جعلت منهم حكماء بآتم معنى كلمة حكيم، هندسة المستشفيات لا تختلف كثيرا عن هندسة القصور هذا ما نجده في قول المستشرق " زيغريد هونكه"، « لقد كانت مدينة قرطبة لوحدها على خمسين مستشفى في أواسط القرن العاشر ميلادي و قد تفوقت بهذا العدد على بغداد وعلى عاصمة الدنيا ... الخ كانت المستشفيات تتمتع بموقع تتوفر فيه كل الشروط سواء الصحية منها أو الجمالية أو الغنية وتزويد بماء حار للحمامات مدّ إليها من نهر دجلة كانت بغناها و رفاهيتها تفتح أبواب للفقراء ولأبناء الشعب كله دون تميز، فعندما انتهى مستشفى المنصورة في القاهرة، طلب السلطان منصور قدحا من العصير جلب له من المستشفى إلى اندادي الحكام و الخدم و للجنود أيضا إلى جانب الأمراء و كذلك العبيد و للرجال و النساء على حدّ سواء»².

لم يقتصر المسلمون على تشييد مستشفيات فقط على أرضهم و عند حدودهم الجغرافية و بل إلى أبعد من ذلك، فقد كانت تلك المصحات حافزا للغرب يقول فوكو: « لقد كانت المستشفيات العربية حافزا كبيرا لظهور مستشفيات المجانين في مدن البلاد

¹: عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين الفلسفة والعلم لدى فوكو، ص 180.

²: زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون وكمال الدسوقي، دار الآفاق الجديدة، د ط، د.ت، ص 229.

الغربية فهي سرا قسطة بنيأول مستشفى خلال عام 1452 م، و طليطلة سنة 1483 وفي مدينة اشبيليا 1486م، و مستشفى بلد الوليد 1489»¹.

حقق المسلمون عدة ازدهارت في المجال المرضي والطبي خاصة، مقابل تلك المستشفيات الغربية التي لا تبعد كثيرا عن مراكز التعذيب والمعتقلات، كذلك حقق المسلمون على مستوى المجال العلمي الطبي عدة نجاحات كالصيدلة وعلم لتشريح في حين كانت عقول الغرب تائهة بين معاقبة الرّب للجماهير أو الاقصاء والتهميش والنفي في معاملتهم مع مرضاهم، كان الجنون يداوى بالموسيقى والاستماع للروايات والقصص عند المسلمين، أما عند الغرب كان يعتبر المجنون انسان خارق للطبيعة وهذا ما صورته " سفينة الحمقى". في مقابل هذا الازدهار الواقعي التي حققتة الحضارة الاسلامية كانت المستشفيات في أوروبا منعدمة»².

¹: عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين الفلسفة والعلم لدى فوكو، ص 181.

²: إبراهيم جيجيكة، حفريات الاكراه في فلسفة فوكو، ص 23.

الفصل الثالث:

الانعتاق من النسق والعودة إلى الذات

المبحث الأول: من أركيولوجيا العلوم الإنسانية إلى جينيالوجيا السلطة

المبحث الثاني: العودة إلى الذات في شكلها الأخلاقي والجمالي عند ميشال فوكو

المبحث الثالث: قراءات نقدية غربية وأخرى غربية

«لا تطلبوا مني من أنا، ولا تأمروني بأن أظل أنا هو باستمراره فتلك أخلاق الحالة المدنية وهي أخلاق تحكم أوراقنا وبطاقاتنا الإدارية كبطاقة الهوية، فلتتركوني وشأني، فيما يتعلق الأمر بالكتابة».

ميشال فوكو "حفريات المعرفة" ص21.

المبحث الأول: من أركيولوجيا العلوم الإنسانية إلى جينياولوجيا السلطة

1. مقارنة عامة:

ساد الاعتقاد على أن "السلطة"، هي استخدام القوة على مجموعة من الأفراد من طرف حاكم أو ملك أو سلطان، له الشرعية التامة في إصدار الأحكام والقرارات النهائية، توجه السلطة الأفراد، وفقاً لما تصنعه من قوانين. يقدم "جميل صليباً" في المعجم الفلسفي، على أن « السلطة في اللّغة؛ القدرة والقوة على الشيء والسلطان الذي يكون للإنسان على غيره... وجمع السلطة سلطات وهي الأجهزة الاجتماعية التي تمارس كالسلطات السياسية والسلطات التربوية والسلطات القضائية وغيرها»¹. حيثما هناك سلطة هناك سيطرة، قوة، ضبط، مراقبة، يكون للحاكم أو المسؤول القدرة على التحكم في مصير محكومته والتأثير على سلوكه وتوجيهها نحو الأهداف حتى ولو أنها لا تتماشى مع إرادته وحريته، من خلال الموقع الاجتماعي السلطوي أما ماكس فيبر*، يرى من زاوية أخرى ليقدم مفهوم للسلطة وعلاقتها بالعنف وتساؤله حول الأسس لهذه الشرعية « 1- نموذج تقليدي يسند إلى نفوذ»، الأمس الأزلي ويمثل في سلطة الأعراف وقداسة الاعتقاد في السلف 2- نموذج السلطة الكارزمية (Charismatique) المبنية على الاعتقاد

¹: جميل صليب، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، 1978، ص 670.

*: ماكس فيبر: ماكسيميليان كارل إميل فيبر) بالألمانية (Maximilian Carl Emil Weber: 21 أبريل - 14 يونيو 1920: كان عالماً ألمانياً في الاقتصاد والسياسة، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة، وهو من أتى بتعريف البيروقراطية، وعمله الأكثر شهرة هو كتاب الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية حيث أن هذا أهم أعماله المؤسسة في علم الاجتماع الديني وأشار فيه إلى أن الدين هو عامل غير حصري في تطور الثقافة في المجتمعات الغربية والشرقية، وفي عمله الشهير أيضاً "السياسة كمهنة" عرف الدولة: بأنها الكيان الذي يحتكر الاستعمال الشرعي للقوة الطبيعية، وأصبح هذا التعريف محورياً في دراسة علم السياسة.

الانفعالي في قدرات شخص استثنائي بسبب قداسته أو بطولته أو ميزاته المثالية، 3-
السلطة القانونية المستمدة من الأعراف بمعقولية التشريعات والقوانين»¹.

حسب تقسيمات فيبر، نلاحظ ثلاثة تقسيمات للسلطة، أولها: سلطة تقليدية متمثلة في الإيمان التام لمعتقدات أسلافنا وسلطة الأعراف، ثانيها: سلطة لشخصيات بطولية أو مثالية، أما الثالثة والأخيرة السلطة المعترف بها عند معظم شعوب العالم الحاكمة،
المشرفة.

لم يعد يمثل الإنسان ، في نظر فوكو، مشكلة في تاريخ المعرفة، إنه حديث العهد،
قذفه القرن التاسع عشر، فبات زواله محتمًا، لم يكن فوكو الوحيد الذي فتح هذا الأفق
الجديد والتنبؤ بموت و زوال الإنسان، فحين إعلانه عن مآل هذا الكائن لم يكن الوحيد
الذي أفصح عن دور ومهمة النسق، «حين أعلن فوكو عن موت الإنسان فإنه لم يكرر
إعلان "نيتشه" عن موت إله فحسب، لكنه تابع موت الاله القديم في الإنسان الجديد
الحدثوي - صنع عصر الأنوار»².

كان هدف فوكو الاركيولوجي هو تحرير الفكر من خضوعه للتعالي، من ثم تنقيته
من كل نرجسية، كذلك تحريره من دائرة الأصل المفقود، حيث وضع أداتين أو وسيلتين
لابتغاء المعرفة والكشف عن الكيفية التي تشكل الخطابات السلطوية هما: "الاركيولوجيا"
و"الجينيالوجيا"، فالأولى هي عملية الحفر فيما تخفيه المعرفة من مفاهيم وأفكار، فهي «
لا تسعى إلى تحديد الخواطر والتمثلات والصور والأفكار المحورية والموضوعات
الأساسية التي تختفي وتظهر في الخطابات، بل تحدد هذه الخطابات نفسها، من حيث
هي ممارسات تحكمها قواعد معينة، فهي لا تنظر إلى الخطاب على أنه وثيقة، ولا تعتبره
علامة أو استشارة تحيل إلى شيء آخر، كما لا ترى فيه عنصرًا، مهما بلغ من الشفافية،

¹: ماكس فيبر: رجل العلم ورجل السياسة، تر: نادر زكري، دار الحقيقة، بيروت، 1982، ص ص 47-48

²: أحمد يوسف، القراءة النسقية- سلطة البنية والمحايثة، منشورات الاختلاف، ط1، 2007، ص 176.

نكون ملزمين في الغالب الأمم، باختراق عتمته وضبابتيه، حتى نصل أخيراً إلى حيث يقبع ما هو عميق وجوهري فيه: بل نعني بالخطاب في حد ذاته بوصفه نُصباً أثرياً¹.

تقوم الأركيولوجيا على تحديد القواعد التي تتحكم في تشكل المعارف، يسعى فوكو إلى تركيز اهتمامه لدراسة الأوضاع التاريخية التي تحدد نوعية الفهم، من خلال بناء براديغم جديد (السلطة). حيث يربط فوكو بين الفلسفة والتاريخ من خلال (المنهج الجينالوجي)، لأن واقعنا المعاش بات عرضة للسيطرة والوصاية، من أدوات السلطة بهدف التحكم على المستويات، فالسلطة في نظر فوكو شيء غامض وغير مرئي، من يمارس السلطة وأين تمارس؟ « كانت الانتفاضة الطلابية التي عرفتها فرنسا 1968، وما حملته من قضايا ومسائل، وبخاصة قضية السلطة بجميع أشكالها بحيث عجزت عن مناقشتها وذلك بسبب انغلاقها في دائرة الوصف المحض للخطابات بوصفها أحداثاً تاريخية بعيدة عن كل تفسير أو تأويل»².

كانت مهمة المفكرين والفلاسفة المابعد الحداثيين، بما فيهم فوكو تتمثل في تقويض المفاهيم التقليدية لمعقولية الأنوار، والنزعة الإنسانية، والفلسفة التأملية والممارسة السلطوية، إننا نجد في هذا الأفق الجديد من التفكير حضور نيتشوي قوي فهناك تماثل كبير بين الأدوات والمناهج التي وظفها نيتشه لقراءته لنص الحداثة وتحطيمه لأصنامها، يقول "يورغان هابرماس" في كتابه "الخطاب الفلسفي للحداثة" يصف حضور الأثر النيتشوي في فلسفة ما بعد الحداثة، قائلاً: « توصل النقد النيتشوي في اتجاهين؛ الباحث المتشكك الذي يسعى إلى الكشف عن انحراف إرادة القوة، وثورة القوى الارتكاسية وتكوين العقل المتمركز على الذات، بتوظيف مناهج الأنثروبولوجيا وعلم النفس والتاريخ، ذلك ما نجده عند "جورج بطاي" و "لاكان" وفوكو، ومن جهة أخرى الناقد المتمرس بالميتافيزيقا

¹: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص 128.

²: زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 110.

الذي يدعي معرفة خاصة ويتتبع مسار فلسفة الذات حتى أصولها ما قبل السقراطية ونجد في هذا الخط أمثلة، "دريدا" و"هايدغر"¹.

أراد نيتشه نزع القناع عن ذلك الوهم الذي خلقتة النزعة الفلسفية المتأسسة على الثقة والتمركز على الذات، حكم نيتشه على أنه لا وجود لحقائق مطلقة من خلال تحطيم تلك الأقانيم، شككت فلسفته، نقطة فاصلة في الفكر الفلسفي الحديث وتمهيدا لفكر جديد معاصر « فلسفة نيتشه تظل اذن في نطاق الميتافيزيقا وإن كانت تعبر عن لحظة الانتقال من ميتافيزيقا الفكر إلى ميتافيزيقا الحياة»².

استطاع الفيلسوف "فريدريك نيتشه" النفاذ بواسطة منهجه الجينولوجي إلى محطات فكرية مهمشة، مخفية ومنسية، أعادت بفضل منهجه ترتيب سلم القيم بعيدة عن الإطار الموروث كالديانات السماوية، خاصة المسيحية وخرافة العقل السقراطي والأوهام الأفلاطونية. باتت العلاقة بين فوكو ونيتشه معروفة في البحث الفلسفي المعاصر، فوكو لا يخفي علاقته بنيتشه « يعلن فوكو علاقته بنيتشه تعود سنة 1953 وأنه مجرد نيتشوي وقد توقف العديد من الباحثين عند هذه العلاقة»³.

أراد فوكو أن يقتحم منطقة جديدة، كانت مهمشة ومستبعدة، نزل فوكو إلى الواقع المعاش، فوجد ضالته في الجينولوجيا، يقول فوكو: « تظهر الجينولوجيا كوسيلة لتقويض الميتافيزيقا باعتبارها إنتاجاً للحقيقة، من خلال نقد لمنطلقاتها وإعادة النظر في الأساس المفاهيمي التي تستند إلى الثنائية (...) فتظهر أهمية البحث الجينولوجي كتقويض

¹: يورغان هيرماس، القول الفلسفي للحدث، تر: فاطمة الجبوشي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق 1999، ص 45.

²: لكحل فيصل، إشكالية تأسيس الدزاين في انطولوجيا هايدغر، ط1، كنوز الحكمة للنشر الجزائر، 2001، ص 83.

³: زواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص 128.

الميتافيزيقا، تظهر في وصفه للواقع الإنساني، كواقع يتشكل من الصراعات والمصالح ومن ثمة الهيمنة والرغبة»¹.

تبرز الجينولوجيا علاقة السلطة بالحقيقة، هذا الجانب الذي إستلهمه فوكو من فلسفة نيتشه التقويضية، فأراد أن يبين العلاقة التاريخية بين السلطة والحقيقة، من خلال اهتمامه بالمؤسسات التي تشكل قاع السلطة كالسجون والملاجئ والمدارس لأن هاته المؤسسات، هي المسؤولة عن ولادة مجتمع انضباطي، هي سلطة جديدة تشتغل بالمراقبة والضبط والتطويع والإقصاء، يقول فوكو: « يهتم الجانب الجينولوجي بسلاسل الصياغة الفعلية للخطاب: إنه يحاول وضع اليد على سلطة الإثبات فيه وأنا لا أعني بسلطة الإثبات تلك السلطة التي تتعارض مع سلطة الإنكار، بل أقصد سلطة إنشاء ميادين من الموضوعات يمكن بصدها أن نثبت أو ننفي قضايا صادقة وأخرى كاذبة »².

أراد فوكو الكشف عن لاوعي المعرفة الإنسانية، من خلال البحث في كيفية صياغة الخطابات، حيث إعتد على أدوات جينولوجية، فقد كان الطابع النيتشوي واضحا في فلسفة فوكو. إن الدرس الأساسي النيتشوي الذي أثر في فكر فوكو هو الربط بين تاريخية العقل والجسد، يقول فوكو: « إن الجسد وما يتصل به من مناخ وتربة هو المكان الصالح لـ "Herkunft"، قد نعثر فوق الجسد على آثار الحوادث الماضية لأن الرغبات والإخفاقات منه تتولد وفيه تتعد عُرَاهَا، ثم تختفي بغتة، بل فيه أيضا تتحل لتخل في صراع تتلاشى بعده في أثر بعضها، ويتوالى خصامها على هذا النحو بدون ككل »³.

إن الجينولوجيا باعتبارها تحليلا للأصل والمصدر تجدها في علاقة جد وطيدة مع الجسد والتاريخ، يعتبر الجسد موطن الحوادث ومأواها، هو ذلك المكان الذي تتفكك فيه

¹: ميشال فوكو، جينولوجيا المعرفة، ص 53.

²: المصدر نفسه، ص 37.

³: سيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، ص 140.

الذات الزائفة المتمركزة حول نفسها. أراد فوكو إرساء مشروعه الجديد من خلال انشاء تاريخ للجسد في مقابل فينومينولوجيا العقل. إنه حضور نيتشوي قوي لكنه ليس حضور يقتصر على استجابة فوكو لمواضيع ومقولات نيتشوية كإرادة القوة، أفول الأصنام، وآلية إزالة الأفعنة، بل أبعد من ذلك حسب قوله «أنا نيتشوي بامتياز»، يعد "جيل دولوز"، من أهم الفلاسفة الذين تطرقوا لتلك العلاقة الوطيدة بين الفكر النيتشوي التقويضي، التهديمي الفوكوي.

استدعى فوكو جينالوجيا الحقيقة من نيتشه لكي يبرز علاقة الحقيقة بالسلطة وطبقها على موضوعات لم يكن تاريخ الفلسفة ليحظى بها لأن «الواقع ليس ذلك المجال الساكن والهادئ الذي ينتظر فاعلا من الخارج لكي يؤثر فيه، بل الواقع الذي يعجّ بالصراعات التي لا تنتهي»¹. إن تاريخ الحقيقة - حسب رأي فوكو - عبارة عن حقائق متعددة ومتغيرة تبعا لتعدد القوى ونمط العلاقات، حيث «تعمل الجينالوجيا- الأركيولوجيا على إبراز نوع آخر من الأحداث وهي الأحداث الصغيرة والتافهة التي تمر بدون أن تحدث ضجيجا ولا ضوضاء، لأن أحداث لا تتشكل من وقائع ولكن من علاقات»².

يعيد فوكو نقد التاريخ من خلال تقويض وهم مقولات التقدم والحقيقة، فهو يرى من الضروري إعادة قراءة التاريخ بمغادرة لغة الأنساق المغلقة وإعمال فكر الاختلاف والتنافر، كذلك إعادة الاعتبار لكل ما هو هامشي، إعادة كتابة تلك التواريخ المصغرة والتافهة، إنه نوع جديد من الأحداث تعمد الفيلسوف الثائر على اقتحامها لكي يوضح لنا أنها تلك الأحداث لم تعد مجرد قبض على الوقائع بل هي عبارة عن شبكة من علاقات القوة، هي سلطة تسكن في كل أنحاء المجتمع ودوائره، حتى أن قطاع انتاج المعارف لم

¹: فريدريك نيتشه، في جينالوجيا الأخلاق، تر: فتحي المسكيني، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس 2010 ص 108.

²: M.faucault, histoire de la folie à l'âge classique, Gallimard, 1972,P 183.

يسلم منها. إن السلطة تنتج الحقيقة كلما اتصلت بالمعرفة. « إن المعرفي والعملي لا ينفصلان ما دام كل منهما يجد أصله في نفس الممارسة، هذا ما يجعل من المعرفة سلطة تفرز وتصنف وتقسم وتقصي»¹.

أخذ تأريخ فوكو للحقيقة اسم " الجينالوجيا"، لأنها تهتم بمسألة الانفصال والقطيعة والاستمرارية، إنها جينالوجيا تسعى إلى إقامة تاريخ معاصر، إننا مع فوكو نجد أنفسنا على أرضية فلسفية غير مألوفة، إنه الحاضر لذلك اعتبر فوكو الحاضر « مجموعة من البؤر المشتتة والمتباينة حيث أن كل بؤرة تختلف عن الأخرى وانطلاقاً من هذا الاختلاف يتشكل ما هو أساسي، لأن هذا الأخير ليس كتلة عناصر واحدة متشابهة»².

عمد فوكو إلى إبراز أن كل قضية تشكل الحاضر لا بد من العودة إلى التركيز على أن كل ممارسة هي المبدأ، الفكرة، الدعوة، فكل ما يقع يحدث على السطح لا وجود للعمق. إن الحقيقة ليست واحدة، غير متجانسة، بل هي هناك حقائق متعددة ومشتتة ومتباينة « إن الحقيقة بنيت قطعة قطعة، من التاريخ وبالتالي هي لا توجد في عقول الفلاسفة ولا في قدرتهم على الإبداع والخلق»³.

نستنتج من المعطيات السابقة أن المشروع أو الأفق الجديد الذي عمده فوكو على إرساءه، يتجلى بوضوح في خانة الفلسفة الجديدة «مجازة الميتافيزيقا» بفضله أركيولوجيته شكل أفقا جديدا من الاستيمولوجية القطائعية، لكن نريد أن نطرح سؤالاً ما هي الدواعي التي تقف وراء التعديل المنهجي التي جعلت من فوكو يستعين بالمنهج الجينالوجي؟ هل هو عجز وقصور أراد فوكو مجاوزته يقول فوكو: «على هذا النحو يجب أن ينشأ بين الوصف النقدي والوصف الجينالوجي نوع من التناوب والتآزر

¹: ميشال فوكو، نظام الخطاب، ص6.

²: M.Foucault, histoire de la folie à l'âge classique ,P 181.

³: المصدر السابق، ص 77.

والتكامل، إن الجانب النقدي من التحليل يهتم بمنظومات تغليف الخطاب و تليفه، كما يحاول أن يضع يده على مبادئ الترتيب والتطيف المتصلة به، ولنقل من باب التلاعب بالكلام إنه يطبق وقاحة مطبقة في أن الجانب الجينالوجي من التحليل يهتم بسلاسل الصياغة الفعلية للخطاب، إنه يحاول وضع اليد على سلطة الاثبات، تلك السلطة التي تتعارض مع سلطة الانكار، بل أقصد سلطة إنشاء ميادين من الموضوعات يمكن بصددها أن نثبت أو ننفي قضايا صادقة أو أخرى كاذبة»¹.

نفهم من سياق النص السابق، أن فوكو أراد باستعانتة بالمنهج الجينالوجي أن يسلط تفكيرنا على العلوم والسياسة والآلام اليومية التي نعيشها. بالتالي ما الجديد الذي سوف تضيفه الجينالوجيا على أبحاث فوكو الأركيولوجية؟ بقول فوكو في بداية " نيتشه، الجينالوجيا والتاريخ" من كتاب "جينالوجيا المعرفة" « الجينالوجيا ذات لون رمادي مشوب بالغموض، تتطلب الكثير من الاناه والتوثيق، ذلك أنها تعامل مع مخطوطات قديمة متكاملة، كتبت أكثر من مرة»².

يحاول ميشال فوكو تعيين البدايات، هذا ما نعرفه عن نيتشه، فهو يرى فيها ذلك التشخيص والفحص للعلاقات في مجالات جد حساسة، كالسلطة والمعرفة والجسد « يعتمد هذا التشخيص على جملة من المبادئ أولاً: تنافي الجينالوجيا والطريقة التقليدية، ثانياً: لا تبحث الجينالوجيا في الجوهر الثابت ولا في القوانين الأساسية ولا عن الغائيات الماورائية، بل تبين الانقطاع والانفصال والتحول ، ثالثاً: لا تهتم بالتطور أو التقدم، بل تبين التكرار، كما لا تهتم بالعمق بل السطح وبالتفاصيل الصغيرة، وكما قال استناداً إلى نيتشه « إذا كان على المفسر أن يتجه بنفسه إلى العمق كالنقاب أو الحفار، فإن

¹ : M.Foucault, l'ordre du discours, Paris, Gallimard, 1971,P 71.

²: ميشال فوكو، جينالوجيا المعرفة، ص 63.

حركة التفسير الجينالوجي هي بالعكس، حركة جزء ناتئ، مرتفع أكثر فأكثر، يجعل العمق ينتشر فوقه بوضوح متزايد»¹.

أصبحت وظيفة الجينالوجيا لدى فوكو، تتموقع في مساحات أخرى، فقد كانت تشكل نوعا من التأويل التاريخي، مع فوكو تعدت الحدود لتستقر في علاقة الجسد بالسلطة وعلاقة السلطة بالمعرفة. تنقسم أعمال فوكو إلى مرحلة الممارسات الخطابية ومرحلة الممارسات غير الخطابية، الأولى متجلية في كتابه "تاريخ الجنون" "مولد العيادة" "الكلمات والأشياء"، أما المرحلة الثانية خاصة بالسلطة والجسد « إن المعاني العميقة وقمم الحقيقة المحضة ومواطن الشعور الغامضة هي بدع صرف، ويمكن أن يحمل شعار الجينالوجيا النقش التالي: لنكافح ضد العمق والغائية والداخلية، كما يمكن أن تحمل رايته العبارة التالية لنحترس من الاعتقاد بالهويات التاريخية، فهي ليست أقنعة لصالح الوحدة، فالحقيقة الأعمق التي من شأن الباحث الجينالوجي الكشف عنها هي سر كون الأشياء بلا جوهر أو كون جوهرها قد تكون تدريجيا وانطلاقا من أشكال كانت غريبة عنها»².

يظهر لنا النص السابق نقاط اختلاف بين نيتشه وفوكو في موضوع التأويل لأن الجينالوجيا النيتشوية شكلت تأويلا تاريخيا مع إحالته إلى الإنسان الأعلى Superman، مع فوكو أضحت الجينالوجيا ممارسة غير خطابية للجسد والمعرفة والسلطة، هذا نجده في كتابه "المراقبة والمعاقبة" "إرادة المعرفة" كذلك اهتمامه بموضوع الجنس لم يغفل عنه فيلسوفنا.

« هذا يعني أن هناك تكاملا بين الطريقة الأركيولوجية والطريقة الجينالوجية وأن عنصر التأويل قد أصبح جزءا مكتملا لعنصر الوصف وبذلك نستطيع القول أن ما

¹: ميشال فوكو، نيتشه، الجينالوجيا والتاريخ، من كتاب جينالوجيا المعرفة، ص 46.

²: المصدر نفسه، ص 143.

أضافته الجينالوجيا للأركيولوجيا هو مسألة المعنى وذلك بالاستناد إلى مفهوم القوة، النظام والسلطة»¹.

إن الخيط الذي استشفه فوكو هو كيفية انتزاع القداسة عن أرض المؤرخ، فوجد ضالته في الجينالوجيا، حيث ان التاريخ التقليدي غفل عن جوانب وحيثيات اعتبرها هامشية ، كانت عند فوكو الأساس، إنها انطولوجيا الحاضر ،حتى لو ذهبنا إلى تصنيفات "جان ويليام لابييار" ، كذلك نجد ثلاث أصناف متوافقة مع تحديدات "ماكس فيبر" ، لكن الإشارة له « السلطة المباشرة حيث خضوع كافة أعضاء الجماعة للأعراف فلا أحد يأمر ولكن الجميع يطيعون معتبرين مخالفة القواعد المقدسة جريمة تعرض صاحبها إلى عواقب مشينة تجلب الموت وغضب الالهة ونقمة السلف، أما الشكل الثاني للسلطة المجسدة حيث تعتبر السلطة كملية أو كمتاع وهي ميزة من ميزات عبقرية مالكا (...). أما الشكل الثالث من أشكال السلطة التي يحددها "لابييار" هي السلطة المؤسسة وهو اصطلاح قانوني كما يستعمله "بيرديو"، مثلا حيث تتحول السلطة إلى شخص معنوي يعبر عن الخير المشترك أو المصلحة العامة فالسلطة المؤسسة في جوهرها سلطة قانون، حيث تتكيف الأصول التشريعية مع ضرورات الحياة»².

إن ما قدمه "فيبر" من خلال قراءته للسلطة وأصنافها، يعطينا مفهوم جديد للسلطة "سوسيولوجيا السياسة" وفعالية السلطة من خلال الكشف عن وسائلها وخصائصها «فالسلطة هي القدرة على إجبار الآخرين ضمن هذا النظام أو ذاك من العلاقات بين

¹: مطاع صفدي، نقد العقل الغربي، الحداثة وما بعد الحداثة، مركز الانماء القومي، بيروت، لبنان 1990، ص 142.

²: عبد العزيز العيادي، المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان 1994، ص، ص 45-46.

الأفراد والجماعات ... أو هي تلك الإمكانية المتاحة لأحد العناصر داخل علاقة اجتماعية معينة، يكون قادرا على توجيهها حسب مشيئته»¹.

تلجأ السلطة إلى عدة طرق وحيل لتحقيق توجهها ذلك من خلال استغلال الطقوس والأعراف، إنها تحافظ على هرميتها، تعيد انتاجها من خلال توليد علاقات اجتماعية، إن الشكل الهرمي للسلطة يخلق بطبيعة الحال الفوارق و اللامساواة بين طبقات مجتمعه، هذا ما تحدث عنه "دي جوفنيل" "D.Jouvenel" "بالانا الحكومية" « إن ممارسة السلطة تخلق لدى الحاكم شعورا بالسمو وحتى لو كان الحاكم فردًا عاديًا من أفراد الشعب فنته بعد ممارسة السلطة يتولد لديه مختلف عن أمثاله من أفراد الشعب وأنه يتمتع بإرادة من طبيعة سامية»².

إن هذا ما أشار إليه "ماكس فيبر" في تصنيفاته خاصة مع النموذج التقليدي وكذلك الكاريزماتي، لكن اشكالنا المطروح هنا: هل كان فوكو من بين هؤلاء الذين ينفرون من "السلطة" وأصنافها؟ هل قراءة فوكو الجديدة للتاريخ التقليدي كما يسميه هو، هو دعوة إلى ممارسة الذات وتحقيقها؟ فإذا كان هو بنفسه أعلن عن موت الإنسان. فكيف له غير الوجهة من تحليل البنى التي تقوم باختزال الفرد وتقصيه إلى تفكيك شفرات السلطة، « وهكذا نلاحظ أن هذا المأزق هو ما سيعمل فوكو على تجاوزه في أعماله اللاحقة بعد السلطة من حيث استراتيجية شاملة تنفذ إلى الجسم الاجتماعي برمته، و إلى نظام المعارف، كما تقمع اللذة وتفرزها وتقص الحقائق وتنتجها»³.

اصبح السؤال الفلسفي مع فوكو هو سؤال اللحظة الراهنة، إنه سؤال الهوية، كأنه تخلص من دراسة الجنون والحفر في الكلمات والأشياء ليذهب بنا إلى دراسة الإجرام والجنس

¹: عبد العزيز العيادي، المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، ص 47.

²: المرجع نفسه، ص 47.

³: سيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى فوكو، ص 142.

وتشابههم مع السلطة. يقول في خاتمة كتابه "أركيولوجيا المعرفة" « في الختام، أريد أنا بدوري أن أطرح عليكم سؤالاً: ما هي فكرتكم عن التغيير أو عن الثورة، على الأقل داخل النظام العلمي وداخل حقل الخطابات»¹.

يعد فوكو من عمالقة "مكتبة الفكر الثقافية المعاصرة"، لأن الفلسفة معه تُطَلَّق أعرافها، تنزاح عن لغتها، لتتنزل إلى المهجور والمهمش، إن هذا طرحه فوكو علينا حول الثورة، نقوم لنثور ضد التقليد، المتداول والمتعارف عليه، نمشي ضد الطائفة والقطيع نهض لنحفر في ثنايا الواقع بكل تلبساته، ذهب فوكو ليستتطق الخلفيات الفكرية المعرفية والاجتماعية والسياسية التي تحكم علاقة السلطة بالذات وبالجنس وبالضبط والمراقبة، فما المقصود الفوكوي للسلطة؟ يقول في كتابه "جينالوجيا المعرفة" « كلمة سلطة هذه يمكن أن يتمخض عنها سوء فهم كبير، سواء في ما يتعلق بتحديداتها أو شكلها أو وحدتها، فأنا لا أعني بالسلطة ما دأبنا على تسميته بهذا الاسم وأعني مجموع المؤسسات و الأجهزة التي تمكن من إخضاع المواطنين داخل دولة معينة، كما أنني لا أقصد نوعاً من الإخضاع الذي قد يتخذ في مقابل العنف صورة قانون ولست أقصد أخيراً نظاماً من الهيمنة يمارسه عنصر على آخر أو جماعة على أخرى بحيث يسري مفعوله بالتدرج في الجسم الاجتماعي بكامله»².

إن الجدير بالتفكير الفلسفي عند فوكو هو الحاضر، الراهن، المعاش، من خلال السلطة التي تشابه شبكة العنكبوت في نسج خيوطها اينما ذهبنا نجد سلطة مقاومة، قوة خفية، تعمل على توزيع مبدأ القوى المتمثلة في الاعلام والمدرسة والمجتمع والمؤسسات الانضباطية والمحاكم والمصحات والتكنات إنها ميكرو فيزياء السلطة.

¹: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص190.

²: المرجع نفسه، ص105.

قدم فوكو من خلال النص السابق مفهوم جديد للسلطة، يتنافى مع المفهوم التقليدي لمصطلح السلطة، إنها عبارة عن علاقات قوى متعددة «... إنها الحركة التي تحول تلك القوى وتزيد من حدتها وتقلب موازينها بفعل الصراعات والمواجهات التي لا تنقطع، وهي السند الذي تجده تلك القوى عند بعضها البعض بحيث تشكل تسلسلا ومنظومة أو على العكس من ذلك تفاوتات وتناقضا يعزل بعضها عن بعض»¹. تتحكم السلطة في موازين العلاقات بفضل الصراعات، إنها متحركة دون انقطاع حاضرة دوما تتولد كل لحظة. يصفها ميشال فوكو قائلا: « لست ترى من أي جهة من اليمين أو من اليسار كان يمكن طرح مسألة السلطة، في اليمين لم تكن مطروحة إلا بقاموس الدستور والشرعية، إنه قاموس قضائي، أما عن طرحها من ناحية اليسار كان بمعاني جهاز الدولة والطريقة التي كانت تمارس بها ماديًا بالتفاصيل بخصوصيتها وتقنياتها وتكتيكاتها فلم يكن أحد ليجتنب عنها»².

2.1 الخلفية الفكرية والتاريخية في بلورة مفهوم السلطة (عند ميشال فوكو):

تعد الأحداث السياسية الكبرى كالحربين العالميتين، والحركات التحررية في الدول المستعمرة وأحداث 1968، كذلك بزوغ تلك الأنظمة الاستبدادية كالفاشية والنازية والستالينية كلها عوامل دفعت بفوكو إلى تغيير أفاقه الفكري، و انضمامه إلى الحزب الشيوعي الفرنسي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، كذلك تأسيسه "فريق الاستعلامات عن السجن 1971"، كذلك تأثره بفلاسفة ومفكرين أمثلة "ميكيافيلي ونييتشه"، كلها عوامل أثرت في بلورة الأفق الفوكوي نحو السلطة، يقول فوكو عن "ميكيافيلي": « ... وإذا كان صحيحا أن ميكيافيلي كان أحد القلائل الذين قاموا بمعالجة "السلطة" أو "سلطة الأمير"

¹: ميشال فوكو، جينالوجيا المعرفة، ص 105.

²: M.Faucoult, Gilles Deleuse Les intellectuels et le pouvoir, l'arc, n 49, 2^{eme} Trimestre, 1972, P P 19-20.

من زاوية علاقات القوى وكان ذلك بلا ريب سبب وقاحته فقد كان يتعين علينا أن نبدأ بخطوة اضافية ونقوم بالاستغناء عن شخصية الأمير ونفسر آليات السلطة انطلاقاً من استراتيجية محايدة لعلاقات القوى»¹.

يعتبر ميكيافيلي من بين القلائل الذين رضى عنهم فوكو في تفسيرهم لقضية السلطة على أنها علاقات قوى، إلا أن فوكو عارضه في نقطة يرفض شخصية الامير أو الملك، حيث أن السلطة ليست فقط تلك التي في يد الملك المسيطر، بل إنها مجموعة من الاستراتيجيات والآليات، أنا نيتشه فقد كان فيلسوف السلطة بامتياز يقول: « نيتشه هو الذي جعل من علاقة السلطة الهدف الأساسي للخطاب الفلسفي في حين كان الهدف بالنسبة لـ "ماركس" هو علاقة الإنتاج، نيتشه هو فيلسوف السلطة وهو الذي استطاع التفكير في السلطة دون الانغلاق في نظرية سياسية»².

لا يمكننا أن ننكر طبيعة العلاقة بين المفكرين نيتشه وفوكو، لأن هذا الأخير الذي يعتبر نفسه مجرد نيتشوي، لا يمكن أن نغفل عن دور فلسفته خاصة "إرادة القوة" في بلورة الفكر الفوكوي تجاه "السلطة وآلياتها على غرار "ماركس" الذي كان يربط عجلة التاريخ بعلاقات الإنتاج فقط وغفلة عن آليات السلطة وعلاقات القوى المحايثة.

3.1 عناصر السلطة:

سؤل فوكو مرة في مقابلة مع "نعوم تشومسكي" عنوانها "عن الطبيعة الإنسانية" لماذا هو مهتم جدا بالسلطة أكثر من الفلسفة يقول فوكو مجيباً « أنا لم أنسب نفسي إلى الفلسفة بأي شكل من الاشكال ولكن هذه ليست مشكلة (...) سؤالك هو: لما أنا مهتم بالسياسة؟ يمكن القول: أي عمى أو صمم وأي ثقل للأيديولوجيات، يمكنه أن يضغط علينا

¹ : M.Foucault, histoire de la sexualité la volonté du savoir, ed Gallimard op.cit. ,1976 P 105.

²: زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته عند فوكو، ص 232.

ويمعني بما هو، من المرجح أكثر الموضوعات أهمية لوجودنا، هذا الذي يعني المجتمع الذي نعيش فيه والعلاقات الاقتصادية التي تتوضح فيه ونسق السلطة التي يعرف الأشكال المنتظمة والمسموحات والمحظورات المنتظمة في سلوكنا، فماهية حياتنا تتكون في النهاية من التوظيف السياسي للمجتمع الذي نجد فيه أنفسنا»¹.

إن هذا يعني شيء واحد فقط، هو اهتمام فوكو بالجسد الاجتماعي والواقع بكل تلابساته من خلال " التوظيف السياسي"، إنها ماهية وجوه وجودنا، ان فوكو لا يهمل المعطيات المادية والصراعات الاجتماعية ضف إلى ذلك تقنيات "نسق السلطة"، والذي عبر عنه بالأشكال المنتظمة المسموحة وغير المسموحة، بالتالي نفهم هنا أن تحليل فوكو يناقض الماركسية التي حصرت تحليلها فقط في الجانب المادي.

هنا نطرح إشكالنا: إذا كانت السلطة عند فوكو هي علاقة قوى، تتجسد في أشكال منظمة مسموحة ومحظورة، هذا المفهوم الواسع يدعونا إلى التساؤل حول طبيعة تلك الخطابات السلطوية؟ وفيما تتمثل تلك القوى المتحكمة فينا؟ بما تتميز منظورية فوكو للسلطة؟ كيف كان اهتمام فوكو بالسلطة؟ وفيما تتمثل عناصرها.

أولاً: عندما نقوم بالبحث عن السلطة، لا يمكننا أن نقتصر على مكان واحد فقط، بل يجب البحث عنها في عدة أجهزة «تمارس السلطة خلال عدد غير محدد من المؤسسات كالإدارة والشرطة والجيش وجهاز الدولة (...) كذلك تمارس السلطة من خلال مؤسسات تبدو كأنها غير مرتبطة بالسلطة السياسية ومستقلة عنها رغم أنها ليست كذلك فيما يتعلق بالأسرة والجامعة (...) ومؤسسات المعرفة والتوعية والرعاية، كلها تساعد على دعم السلطة السياسية»².

¹: نعوم تشومسكي، ميشال فوكو، عن الطبيعة الانسانية، تر: أمير زكي، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، 2019،

ص 56

²: المرجع نفسه، ص 59.

تعتبر السلطة كلعبة "علاقة قوى"، متحركة في المجتمع، حيث يدخل أفرادها فيما بينهم في تلك العلاقات غير المكتسبة وغير المتكافئة لتتجلى في عدة خلايا منها السياسي وغير السياسي، حتى أنها تصل إلى مؤسسات طبيعية ومعرفية وتوعوية ليتحكم بعضهم البعض ضمن استراتيجية السلطة « إن للسلطة علاقة قوى مثلها مثل علاقة الحرب ولذلك فإن التحليل لا يجب أن يعتمد على المعطيات النفسية أو الاجتماعية ولكن كذلك على استراتيجية وفن الحرب»¹. لكن ما المقصود بالاستراتيجيات؟

ثانياً: عرف فوكو السلطة على أنها « الاسم الذي يطلق على وضع استراتيجي معقد في مجتمع معين»². لا تتفصل السلطة عن الاستراتيجية كفنون الحرب، يقول فوكو في كتابه "إرادة المعرفة" « يجب ألا نتخيل عالماً للخطاب مقسماً بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض، أي بين الخطاب المسيطر والخطاب المسيطر عليه بل يجب أن تتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في استراتيجيات مختلفة»³. تتمثل الاستراتيجية في آليات و وسائل لبلوغ هدف أو غاية معينة تشبه الخطة الحربية.

إن تصور فوكو يوضح لنا أنه كلما وجدت سلطة وجدت استراتيجية، لا يمكننا أن نجد علاقات قوى دون أساليب تستخدم لتحزر النصر على جميع المستويات كذلك لا يمكننا أن نتصور حسب رأي فوكو - سلطة دون مقاومة-.

ثالثاً : حيثما كانت السلطة كانت مقاومة، بالتالي لا توجد سلطة خارجة عن مقاومة أو العكس « لأنها نقاط في كل مكان من شبكة السلطة، وتعدد أشكالاً مختلفة من المقاومات ومنها الممكنة والعفوية، العنيفة المتفق عليها، المعتزلة المستعبدة»⁴. أسس فوكو مفهوم

¹: نعوم تشومسكي، ميشال فوكو، عن الطبيعة الإنسانية، ص 60

²: المرجع نفسه، ص 60.

³: زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته عند فوكو، ص ص 235-236.

⁴: المرجع نفسه، ص 236.

جديد المعروف بـ "ميكرو فيزياء السلطة" "Microphysique du pouvoir" والذي ينص على عدم وجود سلطة واحدة وإنما عدد لا متناهي منها يؤدي بالضرورة إلى خلق مقاومات، بكل أشكالها « إنها تلك التي تقاوم أشكال الهيمنة (الاثنية، الاجتماعية والدينية) وتلك التي تدين أشكال الاستغلال التي تفصل الفرد عما ينتجه وتلك التي تحارب كل ما يربط الفرد بنفسه ويضمن بالتالي خضوعها للآخرين»¹. يمكننا أن نعتبر هذا إجابة لفوكو عن تلك الانتقادات التي وجهت له خاصة ما تتعلق بالمقاومة وما جدواها مادامت متداخلة مع السلطة فيجيب فوكو أنه كما لا توجد سلطة واحدة، لا توجد مقاومة واحدة، يعني أنه لا يوجد نوع واحد للرفض أو الثورة.

رابعاً: بما أن هناك أشكال عدة للمقاومة يعطينا مفهوم أو خاصية أخرى للسلطة بما أنها استراتيجية معقدة، تصبح السلطة دون جوهر، ليست وليدة طبقة أو منحصرة في الجانب الاقتصادي أو التربوي أو الاجتماعي أو العلمي بل هي سلطات مختلفة، إنها تحتية: «إن السلطة تتحرك بشكل أعمق مما يظن المرء، فهناك مراكز ونقاط دعم غير مرئية وغير معروفة بشكل واسع ومقاوماتها وتماسكها الحقيقيان، ربما يوجدان في مكان لا نتوقعه . قد لا يكون من الكافي أن أقول أنه فيما وراء الحكومات وفيما وراء الدولة، هناك طبقة مسيطرة على المرء أن يحدد النشاط والمكان والأشكال التي تمارس بها هذه السيطرة، ولأن هذه السيطرة ليست مجرد تعبير عن الاستغلال الاقتصادي بمصطلحات سياسية، بل إنها أداة على المستوى الأوسع والشرط الذي يجعله ممكناً»². ذهب "دولوز" "Deleuze" ليوضح لنا هذه الخاصية « هي ذات موقع لأنها ليست على الإطلاق شمولية، لكنها غير ذات موقع، لأنها ليست قابلة لأن تحصر في مكان بعينه لأنها منتشرة»³. نذهب من هذا

¹: دريفوس ورايينوف، فوكو مسيرة فلسفة، ص 190.

²: نعوم تشومسكي، ميشال فوكو، ص، ص 60-61.

³ : Grilles Deleuze, Foucault, vol 43 num 1 février, P33.

النص إلى أن السلطة حاضرة دوماً في كل مكان، تأتي من كل صوب، متولدة، متعددة، متحركة، غير مكتسبة، ليس لها جوهر، تمارس علاقاتها بين أفراد المجتمع بطريقة غير متساوية تتجلى في جميع الأجساد والمؤسسات والطبقات.

خامساً: السلطة محايدة للموقع الخارجي: ذات طابع قصدي غير ذاتي لا يمكننا أن نفهم أو نحلل علاقات قوى السلطة بعيداً عن الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والطبية. إن السلطة محايدة لعناصرها، لم تصدر عن تلك الذات الواعية، يغلب عليها الطابع الموضوعي.

سادساً: السلطة منتجة : لا يمكننا أن نحصر مركز السلطة في نقطة واحدة بل إننا نجدها منتشرة وموزعة على الجسد الاجتماعي كله « إنها حاضرة في كل مكان ليس لأنها تمتاز بتجميع كل شيء ضمن وحدتها التي لا تقهر، بل لأنها تنتج ذاتها في كل لحظة»¹. إنه ذلك الحضور الكلي للسلطة المتوزع على جميع أشكال وأجساد المجتمع.

سابعاً: السلطة ليست ملكية بل ممارسة : تهتم السلطة بالاستراتيجيات المتحكمة في علاقاتها، تسلط الضوء على الموقع والمؤسسة التي تمارس عليها السلطة يقابل اهتمامها بالذات المالكة أو الحاكمة، تأخذ السلطة الطابع الحربي من حيث وضع مخطط واستراتيجيات، فهي تقرب إلى الجانب الحربي أكثر من الجانب القانوني يقول فوكو: « نفترض أن السلطة التي تمارس يجب أن لا تؤخذ كملكية بل كاستراتيجية وأن مفاعيلها التسلطية لا تعزى إلى تملك بل إلى استعدادات وإلى مناورات وإلى تكتيكات وإلى سير عمل، وأن تكتشف فيها شبكة علاقات دائمة ممتدة وناشطة بدلا من أن تكون امتيازاً

¹: زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته عند فوكو، ص 238.

بالإمكان الامساك به وأن يُنظر إليها على أن نموذجها هو الصراع المستمر بدلا من أن تكون عبارة عن عقد يتم بموجبه التخلي عن ممتلكات أو الاستلاء عليها»¹.

تأخذ السلطة الطابع الحربي، إنها لغتها، تعتمد على "التكتيك"، "الاستعداد" "المناورات"، "الآليات"، "الحركات العملية"، "الصراع"، عكس ما ينص به العقد الاجتماعي القائم على الاتفاق المسبق بين الحاكم والرعية. السلطة حسب رأي فوكو شبكة مكونة تنظم علاقاتها فيما بينها بطريقة حيوية، وبفنون حربية.

ثامناً: لا نفهم أن السلطة في اتباعها استراتيجيات قتالية، تقوم على الصراع، أو أنها قمعية استبدادية، فهذا خاطئ، هذا ما ذهب إليه فوكو في تحليلاته لأشكال السلطة يقول هنا: « يعرف المرء السلطة بالقانون الذي يقول لا - السلطة تعرف فوق كل شيء على أنها حاملة لقوة الخطر. الآن اعتقد أن هذا مفهوم سلبي وضيق وهيكل تاماً للسلطة وإن كان ينشر بشكل مثير للفضول. إن كانت السلطة ليست سوى كابته (...) هل ستعتقد أننا سندعم لهذا المفهوم؟ ما يجعل السلطة تبدو جيدة وما يجعلها مقبولة، هي ببساطة حقيقة أنها لا تثقل علينا كسلطة تقول لا، إنها تجتاز و تنتج الأشياء، تحت على اللذة، تشكل المعرفة، تنتج الخطاب»².

لا يمكننا أن نحصر دور السلطة فقط في المنع والقمع، لا يوجد فقط الجانب السلبي، بل مع تحليلات فوكو التاريخية يوضح لنا الجانب الايجابي للسلطة على أنها تتميز كذلك بالإنتاج، فقد طرح عدة أسئلة متمثلة في « هل آلية السلطة وبخاصة المجتمع الغربي الحديث في حقيقتها ذات طبيعة منعية وقمعية؟ هل الخطر والرقابة والإنكار هي حقا الأشكال التي تمارس بها السلطة (...)»³.

¹: زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته عند فوكو، ص 238.

²: نعوم تشومسكي، ميشال فوكو، (عن الطبيعة الإنسانية)، ص 185.

³: M.Foucault, la volonté du savoir, op, cit, P 105.

يطرح فوكو هذه التساؤلات في كتابه "إرادة المعرفة" في الفصل الثاني الموسوم بالفرضية القمعية، ليجيبنا في كتابه "المراقبة والمعاقبة" قائلاً: «ما أردت إظهاره في "المراقبة والمعاقبة" هو كيف هناك - من القرنين السابع عشر والثامن عشر وما بعدهما قَطَعُ تقني حقيقي في انتاجية السلطة، ليس فقط أن ملكية الحقبة الكلاسيكية طورتهما أجهزة دولة عظيمة (الجيش، البوليس، الإدارة المالية) ولكن فوق كل شيء تم تأسيس ما يمكن أن يطلق عليه المرء "اقتصاد السلطة" يمكن القول أن المنتجون الذين سمحوا لتأثيرات السلطة أن يتحركوا بطريقة متواصلة، وغير منقطعة ومتكيفة وفردية في الوقت نفسه خلال الكيان الاجتماعي كله، هذه التقنيات الجديدة هي أكثر كفاءة وأقل إهداراً (أقل تكلفة اقتصادياً وأقل مخاطرة بالنسبة للنتائج وأقل انفتاحاً على التهرب والمقاومة)»¹.

قدم فوكو جانب إيجابي هو "اقتصاد السلطة"، متمثل في تلك التقنيات الجديدة التي تساهم وتشكل إيجابياً في كفاءة الكيان الاجتماعي، إنها سلطة منتجة للحقيقة تفتح مجالات جديدة وموضوعات تتشكل في مجال المعرفة والفرد والمجتمع يقول "دولوز": «إن السلطة تنتج الواقع قبل أن تقمع، كما تنتج الحقيقة قبل أن تجرد وتموه»².

2. جدلية السلطة والمعرفة:

يسعى فوكو من خلال الفعل الأركيولوجي، التوغل داخل الفسيح الاجتماعي بكل وقائعه التاريخية والمعرفية والثقافية، لأن الحقيقة ليست بالمحايدة والمثالية، إنها ليست منفصلة عن آليات السلطة وشروطها، هي موجودة وتأتي في كل مكان.

إذا كانت نشأة أي حضارة تستلزم تلك العلاقة الترابطية بينها وبين المعرفة هذه الأخيرة التي تمثل من أهم وأعمق المكونات الأساسية لنهوض تلك الحضارة. إلا أن هذه

¹: نعوم تشومسكي، ميشال فوكو، (عن الطبيعة الإنسانية)، ص 185.

²: Grilles Deleuze, Foucault, op, cit, P 35.

المعرفة « نجدها تمارس عملها ضمن زخم كبير من الشروط التي تحيط بها وتعمل على توجيهها أو إلزامها إلزاماً يصل إلى حد الإكراه، ذلك الإكراه الذي يستمد وجوده من السلطة التي تكون حاضرة دوماً في الأماكن التي ليس من السهل أن ينتبه إلى وجودها، كحضورها في مخابر البحث أو في دور النشر أو قاعات المحاضرات... الخ وهذا ما يؤكد اقتران بعضهم ببعض بشكل مستمر مما يؤدي إلى تشكل علاقة وطيدة بين المعرفة والسلطة»¹.

حسب ما أشرنا إليه سابقاً في "خصائص السلطة"، نجد من بين تلك الخصائص وأهمها " السلطة المنتجة"، يعني أنها ترتبط ارتباطاً متداخلاً ومتشابكاً مع المعرفة « فلا وجود لعلاقة سلطة، لا ترتبط بنشأة حقل المعرفة، ولا وجود لمعرفة لا تقترض علاقات السلطة ونشأتها في الوقت ذاته»² هذا أن تلك العلاقة المتداخلة لا تعني التشابه والتطابق بين المعرفة والسلطة بل إنها مختلفتين من حيث الطبيعة، إلا أن كل ما يجمعهما علاقة قوى.

« إنهما يختلفان في الطبيعة ما دامت السلطة تبرز من خلال الأشكال بل تتقمص شكل القوى فقط، بينما تنصب المعرفة على موضوعات اتخذت هيئة (المواد) وذات وظائف متعددة وموزعة بدقة بشكليهما الرئيسيين الرؤية والكلام، الضوء واللغة، فالمعرفة اذن مبنية، ذات بناء وتتسم بجزئية نسبياً، صلبة، أما السلطة فهي على العكس تحشر موضوعات وتعبئ وظائف غير مبنية ذلك أنها لا تتقمص أشكالاً بل نقطا، نقطا مفردة، ترسم في كل فينة ممارسة قوى، فعل قوة أو رد فعلها ازاء قوة أخرى، أي ترسم تأثيراً بوصفها حالة سلطة، تمارس نفسها دوماً في مكان بعينه وبصفة غير قارة»³.

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 125.

²: جيل دولوز، المعرفة والسلطة، ص 46.

³: عبد الله عبد اللاوي، المشروع الفلسفي والأركيولوجيا عند ميشال فوكو، ص 21.

من سياق النص السابق يتضح لنا أن المعرفة لم تكن أبداً خارج السلطة ولا متعالية عليها، ترتبط المعرفة بأجهزة سلطوية لتحميها، هذا ما دفع بفوكو التوجه إلى دراسة وكشف هذه العلاقة بأدوات جينالوجية - أركيولوجية، إلا أن هذه الإشكالية لم يتناولها فوكو فقط « بل كانت حاضرة لدى كل فلاسفة التفكير المختلف في فرنسا وألمانيا بالخصوص، وذلك للتأثير الذي تركته فلسفة نيتشه على هؤلاء الفلاسفة لأنه هو الذي تنبه إلى العلاقة الوثيقة الموجودة بين الخطاب والسلطة وذلك أن إرادة الحقيقة في الثقافة الغربية كانت دائما تعبر عن ارادة القوة وهذا هو الافتراض الذي انطلق منه فوكو: إن انتاج الخطاب في كل مجتمع هو في الوقت نفسه هو انتاج مراقب ومنتقي ومعاد توزيعه من خلال عدد من الاجراءات التي يكون دورها الحد من سلطاته ومخاطره والتحكم في حدوثه المحتمل وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبية»¹.

إن تظن فوكو لإشكالية السلطة - المعرفة لم تكن بواورها ، بل نجد نيتشه F.Nietzsche ، من أوائل الفلاسفة الذين كشفوا عن العلاقة الحقيقية بين الخطاب أو المعرفة والسلطة، إنها قراءة لم تقاوم التفسير الدوغمائي، الاختزالي الشمولي، قام من خلال جينالوجيته بتقويض وتحطيم كل الأصنام التي طالما قيدت التفكير وجعلته أحادي المعنى، مسلوب الحرية، إن هذا التفكيك والتهديم بمثابة محاولة العودة إلى ذلك الملموس الذي تم تهميشه وإقصائه.

1.2.دوافع البحث في أفق السلطة - المعرفة:

اشتهر فوكو بتحليله للممارسات الخطابية وغير الخطابية، حيث ارتبطت عدة مقولات باسمه كـ "الجنون" و " الجنسانية" وتاريخها، كذلك "السلطة والمعرفة" و"المراقبة والمعاقبة"، إلا أن السؤال المطروح هنا: فيما تتمثل الأسباب والدوافع التي جعلت من

¹: عبد الله عبد اللاوي، المشروع الفلسفي والأركيولوجيا عند ميشال فوكو، ص21.

الفيلسوف ميشال فوكو أن يخوض تجربة مميزة عن باقي الفلاسفة؟ يقول فوكو « إنني أسأل نفسي عما تحدثت عنه في تاريخ الجنون ومولد العيادة، اللهم إلا السلطة؟ والحال أن لدي وعياً تاماً أنني لم استخدم عملياً هذه الكلمات وبأن هذا المجال من التحليلات لم يكن في متناولي وأستطيع أن أقول أن هناك نوع من عدم الكفاءة والقدرة وكان مرتبطاً بالتأكيد بالوضعية السياسية»¹.

إن تصريح فوكو وراء التعديل المنهجي وكذلك التوجه إلى موضوع السلطة، يوضح لنا العجز والقصور هذا من جهة، ومن جهة أخرى العامل السياسي والتاريخي التي شهدته فرنسا، كلها أسباب دفعت بفوكو إلى الحفر الجينيولوجي لتعويض الفراغ، واستدراك الغفلة في حق السلطة.

إلى جانب هذه الدوافع، نجد كذلك اعتقاد الفيلسوف فوكو أن سابقه خاصة "ماركس" وفلسفته السياسية، قد غفلوا عن "آليات السلطة"، وتجذرها في النسيج الاجتماعي، صرح قائلاً: « لم يفكر أحد من قبل في تحليل "آليات عمل السلطة البحث في كيفية عملها»². كان هاجس فوكو هو البحث في علاقة السلطة والمعرفة لا يمكننا مناقشة السلطة دون المعرفة، إنه يرفض تماماً الفصل بين الاثنين، فكليهما يقتضي الآخر.

بين فوكو العلاقة القائمة بين السلطة والمعرفة من خلال ثلاث تقنيات تعتمدها المعرفة في تحصيلها وإنتاجها وتوسيع دائرتها المعرفية، إنها ثلاث أشكال توضح وتعكس لنا طبيعة هذه العلاقة الجدلية، متمثلة في القياس، التحقيق والامتحان، نبداً بتوضيح "آليات الامتحان" .

¹: ميشال فوكو، نظام الخطاب، ص 71.

²: هشام صلاح، فوكو، فيلسوف القاعة الثامنة، ص 25.

2.2 الامتحان L'examen:

قدم فوكو مفهوم الامتحان قائلاً : « هو وسيلة للاصطفاء ويعتمد على الحساب وهو بمثابة رحم العلوم الاجتماعية كعلم النفس وعلم الاجتماع وكل ما يُعنى بعلوم الانسان »¹ إن الاختبار الذي يقصده فوكو هو الأساس الذي انبثقت منه العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس الانضباطي كما يطلق عليه فوكو، تتضح أبحاثه في دراسة وتحليل هذه العلاقة من خلال شخصية " بيير ريفيير " « في يوم 30 يوليو 1835 وقعت جريمة فضيحة حيث قتل ريفيير أمه الحامل وأخته وأخاه وذلك تحت دعاوى عديدة أهمها العلاقة السيئة التي تجمع الأم مع الأب، ولكي يثأر ريفيير لأبيه من معاملة أمه الجائرة وخلال عشرة أيام أمضاها في السجن قبل المحاكمة كتب اعترافات بناء على طلب المحققين، و بعد أربع سنوات من صدور الحكم، شنق ريفيير نفسه وأغلق الملف في علم 1971، عثر فوكو على هذه الاعترافات ضمن الأرشيف العام للسجن وعمل في إطار الحلقات الدراسية التي كان يديرها بالكوليج "دو فرانس" على نشرها الاعترافات في كتاب مستقل قدمه هو بنفسه للقارئ، كما تم تصويره في فيلم، شارك فيه ميشال فوكو وأخرج سنة 1975»² .

قام فوكو بتأسيس فريق لجمع المعلومات من خلال الوثائق والأرشيف، فنشر اعتراف ريفيير، ليثور في وجه علماء النفس وتورطهم في المؤسسات العقابية التي حكمت بإعدامه. « ... واطهارهم بمظهر المتورط في شبكة علاقات السلطة بل وإحراجهم أمام الرأي العام، وذلك بإبراز ذلك الاهتمام الذي أبداه علماء الطب النفسي في باريس في ذلك الوقت، ليدلوا على جنون "ريفيير" و سيتصدروا بذلك حكماً جديداً في تخفيض العقوبة، ويريد فوكو من هذا أن يؤكد أنه إذا كان الفعل، فعل القتل يتسم بالجنون، فإن القاتل عاقل ونصف اعترافات ريفيير، خير دليل على ذلك لأنه اثبت عكس

¹: زواوي بغورة الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 244.

²: المرجع نفسه، ص 244.

ما ذهب اليه الأطباء، ومن هنا فإن نشر الوثيقة في نظره يعد بمثابة بيان تنديد بعلم النفس وتورطه ودليل آخر عن طبيعة العلاقة بالمعرفة»¹.

لا تختلف المدرسة في آلياتها وتقنياتها عن الثكنة من خلال المراقبة المستمرة المتمثلة في عملية الانتقاء الذي يطلع عليه الامتحان، هذا الأخير بدوره يمثل بُعد إكراه لأنه يشكل ممارسة من ممارسات السلطة» يأخذ الامتحان في ذاته آلية مقترية بشكل من أشكال ممارسة السلطة... فالمدرسة هي آلة امتحان تطبق عبر فترات منفصلة، تضاعف اجراء عملية التعليم ويقوم التلاميذ بامتحان قدراتهم فتصبح ثمة دوماً فوائد من مقارنة كل واحد من التلاميذ مع غيره، تلك التي بدورها تفسح المجال لعملية الحساب والانتقاء»². يأخذ فوكو إلى شكل من أشكال ممارسات السلطة وعلاقتها بالمعرفة، انه "الامتحان" يتساءل عن تراكب هذه العلاقة، التي وضعها مؤرخوا العصر الكلاسيكي في الظل وفي الهامش، قائلاً: «...لكن من يكتب التاريخ الأكثر عمومية، الأكثر غموضاً والأكثر تحديداً أيضاً، تاريخ الامتحان ومراسيمه وطرقه وشخصيته ودورها، وبتشكيلات أسئلة وأجوبة وبأنظمة وضع العلامات والتصنيف»³.

يضرب فوكو مثلاً ليحاول بدوره الإجابة عن هذه التساؤلات بمستشفى "اوتيل ديو" من خلال البحث عن التقنيات التي كانت تمارسها السلطة المتمحورة في "عملية التفتيش" محايثة: إنها علة تظهر من خلال مفهومها وتخرج إلى الفعل من خلال معلولها، تندمج بهذا الأخير وبرز فيه، أو بعبارة أفضل العلة المحايثة هي تلك العلة التي يخرجها معلولها إلى الفعل ويندمج بها ويضفي عليها الاختلاف، ثمة أيضاً ترابط وارتباط متبادل بين العلة والمعلول بين الآلة المجردة والانتظامات العيانية (وهذه الأخيرة، هي التي

¹ :M. Foucault, surveiller et punir Naissance de la prison, nrf Gallimard, Paris, 1975, P P 188-198.

² : Ibid, P 198.

³ : ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص 197.

يطلق عليها في أغلب الأحيان "اسم آليات") إذ كانت المعلومات تظهر إلى الوجود عليتها وتخرجها إلى الفعل، فإن علاقات القوى أو السلطة كامنّة وتوجد بالقوة، وفي صيغة امكان، ولاستقرار على حال، تتلاشى مضمحلة، جزئية تحدّد مجر امكانيات، واحتمالات تفاعل ما دامت لم تتدرج ضمن مجموع ماكر سكوبي قادر على أن يمنح شكلا ما لمادتها المائعة ولوظيفتها المبعثرة¹».

هي عملية يقوم بها الطبيب على المرضى « إن أحد الشروط الأساسية في أجل اطلاق النشاط المعرفي (الابستيمولوجي) في الطب، في أواخر القرن الثامن عشر هو تنظيم المستشفى كجهاز فحص (...) ففي القرن السابع عشر كان الطبيب الاتي من الخارج يتم تفتيشه إلى أشكال الرقابة أخرى كثيرة، دينية، إدارية بالتالي أصبحت الزيارة أكثر انتظامًا ودقة اتساعًا²».

أضحى المستشفى مكان منتظم، تجمع فيه المعارف والتدريبات، بينما كان مكان ترميض وإسعاف، يقوم الطبيب بفحص المريض من خلال وضعه في حالة مراقبة شبه دائمة، إن عملية فحص الامتحان بهذا الشكل تضع المرضى في مستوى المفاضلة والانضباط، والتوزيع التصنيفي، متمثلة في تقارير تتم بفترات متقاربة، يقوم بها سواء كان ضباط أو أطباء أو أساتذة « من خلال الصفات الادبية للتلامذة وحول سلوكهم المعرفي من الجميع³».

أخذت المدرسة - حسب رأي فوكو - شكلا قويًا من أشكال السلطة وتطبيقاتها، من خلال فرض الامتحان أو الفحص نفسه، اساليب لاصطفاء التلاميذ والكشف عن عملية مدى استيعابهم إنه عبارة عن مقارنة تحمل في شقيها التقدير والشكر والتكريم للنجباء

¹: جيل دولوز، المعرفة والسلطة، ص44.

²: ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص 197.

³: المصدر نفسه، ص 194.

والعقاب للراسبين » والامتحان يُتيح للمعلم أثناء نقله لعلمه أن يقيم على تلاميذه حقلاً كاملاً من المعارف، في حين أن الاختبار الذي به ينتهي كل تعلم ضمن التقليد التعاوني يثبت كفاءة مكتسبه (...) إن الفحص يشكل بالنسبة للمدرسة مبادلاً للمعارف حقيقياً وثابتاً¹.

يعتبر الفحص الضامن الأساسي لانتقال المعرفة ومدى استيعاب التلاميذ لمعلمهم، إن المدرسة هي مكان تشييد علم التربية «، فإذا كان الفحص الذي يقام بالمستشفى قد كشف عن المعرفة الطبية، فإن المدرسة من خلال الإمتحان، قد افتتحت » عصر التفريشات والمناورات المتكررة بشكل لا ينتهي في الجيش تطور معرفة ضخمة تكتيكية أعطت مفاعيلها في الحروب النابليونية². « فالفحص يحمل في ذاته أولية كاملة تربط بشكل من الأشكال ممارسة السلطة نوعاً ما من تشكل المعرفة³.

قلب فوكو النظرة الكلاسيكية للسلطة وممارساتها وكذلك نفوذها إلى حقل المعرفة، حيث يعتبر الامتحان المعيار الوحيد، الذي له الحق في عملية التصنيف والترتيب، كانت السلطة تتدخل في شؤون التعليم وتوجيه التلاميذ ومسابقات التوظيف يعطينا "سارتر" مثلاً عن الطبقة البورجوازية، كيف لهذه الطبقة الحاكمة أن تتحكم في كفاءة الأفراد وكذلك وظائفهم، يقول: « إن تقني المعرفة العملية يجند من الأعلى ولكن ما عاد ينتمي بصورة عامة إلى الطبقة السائدة، فإن هذه الأخيرة تسميه وتعيّنه في كينونته إذ تقرر طبيعة العمل ووظيفته تبعاً لطبيعة مشروعها وتبعاً للحاجة الاجتماعية منظوراً إليها من زاوية اختياراتها الخاصة ومصالحها وتحدده الوظيفة قبلياً بوصفها تشغل دوراً يؤدي⁴.

¹: ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص 197.

²: المصدر نفسه، ص 198.

³: المصدر نفسه، ص 198.

⁴: جون بول سارتر، دفاعاً عن المتقنين، تر: جورج طرابيشي، دار الأدب، بيروت، ط1، ص22.

تعمل الطبقة السائدة بتجنيد المعلم، يقوم بتلك العملية" الفحص بشكل دقيق "لتعطي زمام الأمور للسلطة التي بدورها تتحكم في مبادئ التعليم التي تتماشى أكيد مصالحهم الخاصة، تسيطر السلطة أيضا في ميول الأفراد واختياراتهم، لأنها هي الوحيدة التي لها الحق في أن تقرر وما تراه صالحًا. « إن الطبقة السائدة تحدد التأهيل الايديولوجي والتقني للاختصاصي في المعرفة العملية، هو الآخر بتنظيم مكون من الأعلى (التعليم الابتدائي الثانوي والعالي) واصطفائي بالحكم والضرورة وتنظم الطبقة السائدة التعليم على نحو يوفر للمؤهلين الايديولوجيا التي تراها مناسبة لها، وتقوم بتلقين المعارف والتقنيات التي ستؤهلهم لممارسة وظائفهم في التعليم العالي، إنها تلقنهم بصورة قبلية دورين اثنين، فهي تجعل منهم في آن واحد اختصاصيين في البحث وخدامين للهيمنة أي حراسًا للتقاليد، أما الدور الثاني فيهيئهم ليكون على حد تعبير "قرامش" موظفين في البنى الفوقية لممارسة الوظائف التابعة في الهيمنة الاجتماعية والحكم السياسي»¹.

من هنا يمكننا القول أدخل الفحص الشخصي الفردي ضمن تقنيات التعرف على الفرد الانضباطي، حيث تقوم مؤسسات التعليم بتحديد وتصنيف استعدادات التلاميذ وقدراتهم، بالتالي يتم تحديد مستواهم، يسجل كل ما يتعلق بالتلاميذ في حقل وثائقي، « هناك أهمية حاسمة لهذه التقنيات الصغيرة في التدوين والتسجيل وتكوين الملفات والترقيم بشكل أعمدة وجداول أصبحت مألوفة لدينا، لكنها أتاحت الإفراج المعرفي في علوم الفرد »². يتساءل فوكو حول هذا النمط "دخول الفرد ضمن حقل الوثائق" هل هو ولادة لعلوم الإنسان؟.

¹: جون بول سارتر، دفاعا عن المتفقين، ص 23.

²: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 132.

3.2 التحقيق:

يقول فوكو في هذا الصدد « يعتبر التحقيق بمثابة رحم العلوم التجريبية كلها، إذ تعتمد السلطة عليه من أجل ترتيب الحقائق وتصنيف الأحداث إلى جانب مراقبة الممتلكات »¹. إذا كان التحقيق مصدره العلوم المادية، فمن الضروري يذهب إلى الشواهد الواقعية، بالتالي يعتبر التحقيق مقياس مصداقية تلك العلوم، أما مع القراءة الفوكوية تأخذ بالتحقيق إلى أبعد من ذلك لتتعدى النسيج الاجتماعي في صورة القضاء والقانون « وهذا ما تجلى في توظيف السلطة له من أجل فرز الحقائق والكشف عن ملبسات الجرائم والبحث من أجل العثور على مرتكبيها فجعلته السلطة وسيلة أساسية لمراقبة المعارف و هذا من أجل فرز النوع الذي لا بد من اتخاذ إجراءات قمعية إزاءها عمل التحقيق على تطوير وتقديم أعمال السلطة القضائية تماما مثل ما ساهم في تقدم العلوم الأخرى»².

ساهم التحقيق في تطوير العديد من العلوم، كعلم الطب والحيوان والنبات، بداية مع العصر الوسيط واستمد لعدة قرون « لقد ابتكر القرن الثامن عشر تقنيات عديدة وقام بتوظيفها ضمن خطة التأديب وتطبيق الامتحان مثله مثل العصر الوسيط الذي اخترع الفحص الذي هو أقدم تقنية جبائية وإدارية»³.

يسعى التحقيق في تاريخه بداية من العصور الوسطى إلى الكشف، لجعل العلوم والحقائق والمعارف واضحة وممكنة أمام السلطة من خلال إنشاء محاكم التفتيش « كانت ممارسة العدالة تستدعي حضور الشاهد الذي حضر وقائع القضية ويظهر لنا

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 132.

²: المرجع نفسه، ص 132.

³: M. Foucault, surveiller et punir, P 226.

جليا في العمل الذي بادر به الملك "أوديبي" وهو البحث عن الشهود الذين حضروا مصرع "لايوس" (...)»¹.

أما عن تجسيد التحقيق « نجده بإنشاء محاكم للتفتيش والتي كانت وراء اعدام الكثير من الأشخاص وقد امتدت هذه العملية إلى غاية عصر النهضة، بل وحتى العصر الكلاسيكي فمثلا إثر اغتيال "هنري الثالث" من طرف "جاك كليمان" تدخلت محاكم التفتيش لعقاب مؤيديه، قام الكاتب "ماريان" بالترويج لهذه المبادرة وأعطى لها بعداً وهو هشاشة السلطة»².

4.2 سلطة المعرفة:

♦ **المنع:** تذهب السلطة إلى أعماق من تقنية "الامتحان" و "التحقيق" لأن علاقة السلطة بالمعرفة نلمس فيها نوع من التعايش والتلازم، لا نجزم دائماً بوصف هذه الجديلة بالصراع والتنافر، يقول فوكو « لا تلعب علاقات السلطة بالنسبة للمعرفة دور التعطيل أو التسيير فقط ولا تكتفي بتفسيرها أو تزييفها أو الحد منها، ليس كل ما يربط السلطة بالمعرفة لعبة المصالح أو الايديولوجيات فقط فما من معرفة قادرة على التكوين دون نظام التدوين أو التواصل أو التجميع والنقل»³.

رغم طبيعة العلاقة الايجابية بين السلطة والمعرفة لا يمكننا أن ننكر أو نغفل عن ما تقوم به السلطة في منعها للإنتاج المعرفي الذي بدوره يتنافى مع مصالحها ويتنافر مع مبادئها. إن السلطة تقوم بوضع حدود لا يمكن للمعرفة اختراقها، وعملية المنع لم تقتصر على وضع قوانين بل تصبح أعمال مطبقة ومجسدة، انتقلت هذه العملية من التنظير إلى

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 133.

²: المرجع نفسه، ص 133.

³: ميشال فوكو، نظام الخطاب، ص 25.

الممارسة، يقول فوكو مؤكداً هذا « يعتبر المنع من بين الأكثر إجراءات السلطة خطراً على المعرفة فهو يمثل تسلطاً شديداً يمارس على إنتاجها إنه يحاول الغاؤه وليس الحد منه فقط (...) إنه يعتبر من أكثر الإجراءات بداهة وتداولاً»¹.

يتضح من سياق النص السابق أن عملية إنتاج المعرفة، مراقبة، منظمة ومحددة وفقاً لما تنصه قوانين صادرة من سلطة معين، يضع حدود لا يمكن تجاوزها بدلا من أن تكون المعرفة حرة، شفافة، محايدة، تصبح مجردة ومحكمة بحيث أننا لا يمكن أن نتحدث عن أي شيء في أي مكان، يؤكد فوكو قائلاً في لعطائه لمفهوم المنع « ... إننا نعرف جيداً أنه ليس لدينا الحق في أن نقول كل شيء وأننا لا يمكن أن نتحدث عن كل شيء في ظرف ونعرف أخيراً أن لا أحد يمكنه أن يتحدث عن أي شيء كان»².

تتدخل السلطة في الحقل المعرفي لتمنعه من حق الحرية الفكرية، خاصة في حالة ما إذا اعتبر خطراً وطعنًا في الممارسة السياسية وأنظمة الحكم. تقوم السلطة في هذه الحالة بحرق أعمال المؤلفين والكتّاب الذين يُصدرون كُتباً ومنشورات تنتافي والسلطة الحاكمة أو الكنيسة، كانت محاكم التفتيش تمثل أقوى دليل وأبشعه لمنع المؤلف وسجنه وإتلاف مؤلفاته « لقد أثار "توما كانبيلا" *Campanella Tomas سخط رجال الكنيسة ورجال الحكم بأفكاره المناهضة للنظام، فتعرض للملاحقة من طرف شرطة التفتيش، ولما أُلقي القبض عليه أصدر قرار بسجنه مدة 27 عاماً وفي داخل السجن تعرض للتعذيب بشتى الطرق، كما منعت كتبه عن القراء»³.

¹: ميشال فوكو، نظام الخطاب، ص 9.

²: المصدر نفسه، ص 8.

*: توما كانبيلا: فيلسوف إيطالي (1568-1639) سجن لمدة 27 سنة، بسبب موقفه الانتقادي للكنيسة من أبرز أعماله مدينة الشمس.

³: إبراهيمي جيبيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص ص 145 - 146.

تعدت أسباب المنع من النازع الديني والسياسي، لتقوم بعرقلة المجال المعرفي كعلم التشريح مثلا الذي صدر لأسباب دينية، حيث كان تشريح الجثث انتهاكا لحرمة الميت، بالتالي يكون الحجر والمنع وفقا لما يُنظره رجل الدين أو رجل السياسة وليس لما تحتاجه البحوث المعرفية. هذا ما أشار اليه عبد الوهاب جعفر « لقد فرق "بوكييه" Bouquiler أحد أعضاء لجنة التعليم العام بفرنسا في غضون الثورة، بين المعارف الضرورية للمواطن والتي يستحيل عليه أن يصبح حراً إلا من خلالها وبين المعارف الضرورية للمجتمع واعتقد بوكييه بأن السلطة عليها أن تساعد كل مواطن حاصل على هذا النوع من المعرفة، تماما كما توفر له الحرية، أما النوع الثاني من المعارف الذي يتمثل في العلوم فإن الدولة لها الحق في تنظيمها أو التدخل للإشراف عليها »¹. لم يقتصر المنع على العلوم التجريبية والتشريحية منها بل تعدى إلى العلوم الانسانية وهذا ما أكده فوكو قائلا : « الشيء الذي ادهشني خلال دراساتي للعلوم الإنسانية هو علاقتها بالسلطة، إنه لا يمكن الفصل بين نشأة هذه المعارف وممارسات السلطة لعملها »².

تأخذ السلطة كذلك على النحو الذي تقوم به مع المعارف التجريبية لتتلائم العلوم الإنسانية أيضا، لتفرض عليها رقابتها وتقوم بوضع سياج حديدي لا يمكن لتلك العلوم تجاوزها، لأنها تخشى روحها التحريرية والنقدية التي بدورها يمكن لها فضح السلطة وآلياتها، إن الفحص والتحقيق تخدم تلك القوى الكامنة فهي تلعب الدور المعرفي وفقاً لما تُلميه عليها يقول فوكو هنا « لا شك أن القياس والتحقيق والفحص قد طبقت في مجال الممارسات العلمية كمجرد مناهج وأدوات علمية دقيقة لكن هذا الدور المعرفي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحقل السلطة السياسية »³.

¹: عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين الفلسفة والعلم لدى ميشال فوكو، ص 129.

²: هشام صالح، فوكو فيلسوف القاعة الثامنة، ص 39.

³: سيد ولد آباه، الحقيقة والتاريخ عند ميشال فوكو، المصدر نفسه، ص 142.

يوضح فوكو جدلية المعرفة والسلطة و ممارسة هذه الأخيرة عملية المنع قائلاً: « أود أن أذكر بطريقة جميلة جدا (...) إنها ترجع كل الإكراهات التي يمارسها الخطاب إلى صورة واحدة، تلك التي ترسم حدود السلطة في بداية القرن السابع عشر، سمع "شجون" Le shogun* بأن تفوق الأوروبيين في الملاحة والتجارة والفن العسكري كان راجعاً لمعرفتهم بالرياضيات فشعر بالرغبة في الاستحواذ على معرفة ثمينة، فاستقدم ملاح انجليزي إلى قصره ولقنه دروساً فعرف الرياضيات واحتفظ بالسلطة»¹.

ما نلاحظه أن علاقات السلطة هي عبارة عن قوى ميكرو فيزيائية متعددة الأوجه ناسجة لعلاقاتها، لا يمكن حصرها في موضع واحد « عاملة على صف علاقات القوى في خطوط مستقيمة وتجميعها وجعلها متجانسة: القانون كدمج و توفيق بين نزعات لا مشروعة، أما "الآليات العيانية"*** والمتتمثلة في المدرسة والمعمل والسجن»².

♦ مكاسب العلاقة:

لا يمكننا الاعتبار حسب رأي فوكو أن علاقة السلطة والمعرفة تقوم على الإكراه والمنع بل هناك منع من التعايش والتلاحم فيما بينهما، لنجد مساهمة السلطة في حماية الحقل المعرفي وبنائه، متجلياً هذا الاهتمام في تلك المؤسسات كالمكتبة ودور النشر وحفظ الأرشيف والآثار والمخطوطات، كلها فضاءات ومواقع تقوم السلطة بحفظها وحراستها والخوف عليها من الضياع والتلف، يقول فوكو «يتعين علينا وصف المواقع المؤسساتية التي ينطلق منها في صياغة الخطاب الطبي والتي يجد فيها هذا الأخير

*: اسم القائد العسكري في اليابان.

¹: ابراهيمي جيجيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 149.

** : الآليات العيانية: هي التنظيمات ذات الشكل المزدوج و اجمالاً تكون اجتماعية قبل أن تكون تقنية، و ثمة على

الأصح تكنولوجيا بشرية، قبل أن تكون تكنولوجيا مادية (جيل دولوز، المعرفة والسلطة)، ص 46

²: جيل دولوز، المعرفة والسلطة، ص45.

مصدره الحقيقي مجال انطباق موضوعاته النوعية وأدواته التجريبية وهذه المواقع في مجتمعاتنا هي المستشفى كمكان للمعاينة الدائمة ومنهجية تسهر على انجازها هيئة طبية مكونة من أشخاص تختلف وظائفهم ومراتبهم وكما أن هناك ما نسميه (المكتبة) أو الحقل التوثيقي الذي لا يشمل فقط الكتب والمؤلفات بل حتى مجموع العروض والملاحظات والمنشورات التي يتم التوصل إليها»¹.

لم تكن السلطة ذلك المشهد "القمعي الاستبدادي" بل تسعى دائماً لقبول الناس لها، لو لا هذه الليونة لكانت هناك دائماً وبصورة مطلقة ثورات تنهض في وجه تلك الممارسة القمعية. إن السلطة تارة تلعب دور المنع وتارة أخرى تأخذ دور الحماية والإنتاج مما يخلق نوعاً من التعايش بين السلطة والمعرفة.

3. علاقة السلطة بمظاهر الإكراه العقابي والرقابي (مؤسسة الإنسان الانضباطي):

عملت السلطة من خلال آلياتها ابتداءً من القرن السابع عشر والثامن عشر إلى خلق شكل جديد يدعم تركزها في جسد الفرد، ذلك بتطويقه والتحكم في سلوكاته وخطاباته، انها تماثل "علم التشريح"، إلا أنه ليس تشريح بيولوجي للجسد بل تشريح سياسي، تجعل منه ذلك الفرد جسداً مُراقباً، منضبط تحتجزه داخل سياج.

إن الإنسان حسب رأي فوكو يعيش داخل سجن تحكمه ميكانيزمات وحتميات سلطوية يؤكد فوكو موقفه هذا قائلاً « إن ما كنت أود إظهاره في كتابي "المراقبة والمعاقبة" هو كيف هناك ابتداءً من القرن السابع عشر والثامن عشر نوع من النمو التقني لإنتاجية السلطة، لا يكفي القول بأن ملكيات العصر الكلاسيكي قد طورت الأجهزة الكبرى للدولة والجيش، الشرطة، الإدارة المالية، بل شاهدنا على وجه الخصوص في هذه الفترة

¹: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص49.

قيام ما يمكن أن نسميه آلية جديدة للسلطة، أي طرائق تمكن من توزيع تأثيرات السلطة بصورة متصلة ومنفردة في نفس الوقت، على الجسم الاجتماعي كله»¹.

عمد فوكو من خلال تحليلاته الحفرية والجينالوجية - إلى دراسة "طقوس الاعتراف" ليكشف بدوره عن مختلف الممارسات السلطوية والاجتماعية من خلال استنطاق خطاباتهم واعترافاتهم « إن الدولة مطالبة بأن تكون على علم بما يقوم به الأفراد وما يفعلونه الناس برغباتهم، في هذا السياق تقوم السلطة بتشغيل آلية كانت منتشرة في المجتمعات المسيحية وهي "آلية الاعتراف"»².

1.3 مؤسسة الإنسان الانضباطي:

احتل فوكو مكانة جد صلبة في تلك الثقافة المعاصرة، انزل الفلسفة من سماء الكليات، إلى الغوص في الجزئيات المؤسسة للكليات، يقول مطاع الصفدي في مقدمة "المراقبة والمعاقبة": « كيف أن سؤال فوكو الأصلي في كل هذا الانتاج الشاهق، أي أنه كيف يمكن للفكر أن يكتشف ترميز الواقع ويفككه بصورة يغدو فيها هذا التفكيك نفسه هو الواقع ولكن متمفصلا على محاوره ونصوصه ووقائعه»³.

« لكن المنعطف الذي دفع فوكو الابدستيمولوجيا نحوه، لم يكن مجرد إعادة تقييم لمناهج العلوم الإنسانية والمادية قد تتعرض لظاهرة العقوبات الجرمية والحلقات المرتبطة بها (...) يزيح الفيلسوف المعني المتعارف عليه للإيستيمولوجيا، إذ يجعلها علماً دلاليًا وليس تقييميًا (...) فالفلسفة تستغني عن كل تقاليدنا وتبرح لغتها ومصطلحها وتهجر

¹: ميشال فوكو، نظام الخطاب، ص 84.

²: حسين موسى، الفرد والمجتمع عند ميشال فوكو، دار التنوير، بيروت، لبنان 2009، ص 114.

³: ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص 31.

أدواتها وتنتزل المستشفيات والسجون وتوثيق المحاكم والبلديات والقصور، ومهجورات المكتبات العامة والخاصة»¹.

«إننا مخلصين حقًا لجوهر السؤال الفلسفي، إذ نحن نسأل، ماذا تعني المراقبة والمعاقبة (...) سؤال إلى ضبطهما معًا عبر الممارسة الفعلية»².

«إن الكلمات ليست معطوفة على الأشياء، ولكن هي أشياءها كذلك كلمة شيء تدبُّ على الأرض هي هذا الإنسان، عفوًا بل هذا الجسد (...) جسد الإنسان هو المكان الوحيد الذي تتقاطع فيه وحوله وعلومه وممارساته كلها. وإن تتبع تاريخ الجسد يمكن أن يضع بين أيدينا علمًا ماديًا في الأركيولوجيا المنشأة الملازمة والمزدوجة للمعرفة والسلطة عبر شبكات تمفصلاتها المتتابعة المعقدة. فمن مرحلة الجسد باعتباره قوة إنتاج إلى ذلك الجسد المسيس الذي ينبغي ضبطه اقتصاديًا واجتماعيًا، يبرز على هامشه الجسد المهمش، المعذب، المريض، المجنون، المسجون»³.

«إن أمكنة المؤسسات العامة من المستشفى إلى المدرسة، إلى السجن، إلى الدوائر الحكومية، إلى ثكنات البوليس والجيش، لا تقدم مجرد آلية حيادية، إنها مشغولة بالملفوظي والمري معًا، وهي كلها مراكز تدريب وتأهيل وتتميط، تشتغل جاهزيتها بأحدث العلوم من طب جسدي ونفسي وحقوق سياسية واجتماعية وقانون»⁴، «إن الجسد هو آلة منتجة؛ يجب تأهيله في المدرسة، لكي ينتج جسدًا منضبطًا سلوكيًا لكي يقوم بوظائفه على أكمل وجه، وفي الثكنة لكي ينتج جسدًا قويًا، عسكريًا منضبطًا»⁵.

¹: ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص 32.

²: المصدر نفسه، ص 33.

³: المصدر نفسه، ص 33.

⁴: المصدر نفسه، ص 36.

⁵: المصدر نفسه، ص 37.

« يلقي كتاب "المراقبة والمعاقبة" الضوء على شبكيات سلطوية أخرى متناهية في الصغر تتسج عنكبوتها في علاقات القوة بين الأفراد أنفسهم (...) إن الأخلاق اندمجت في الآلة الانضباطية الكبرى ولم تستطع أن تحفظ لها ثمة استقلالية وصار عليه أن تنفذ أوامر الانضباط وإن غلفتها بهالات من القيم والعقل»¹.

إن الجسد بالنسبة إلى فوكو هو بمثابة "أرشيف"، إنها وثيقة كما يصفها "نيتشه" Nietzsche "اللون الرمادي". أراد فوكو تفحص وتفكيك تلك الوثيقة ليستنتق التقنيات الحديثة التي تطبق على الجسد وتراقبه ليسقطه على الحاضر ويقرئه بعيون الراهن، إن هذه السلطة الحيوية هي المدبرة والمسيطر للجسد من خلال التشريح السياسي للجسد الإنساني.

2.3 جسد المحكوم عليهم:

♦ الجذب بالحصان:

حسب وثيقة* 1670، لجأ رجال القانون والسلطة إلى تقنيات جديدة وصارمة من خلال تأسيس منظومة جزائية تتص على شدة الصرامة القضائية المتعلقة بما يرتكبه المجرمون من أعمال، تلك القوانين تُصدر أشكال عديدة للتعذيب تكافئ مع حجم الجريمة وهذا ما أوضحه فوكو قائلاً « ها هي اذن الأشكال العامة للممارسة الجزائية التي تتص عليها الوثيقة التي تمت صياغتها عام 1670 والتي استمرت صلاحيتها إلى غاية قيام الثورة الفرنسية وها هي درجات العقاب التي سجلتها تنوعت أشكال العقاب من الحكم

¹: ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص 37.

*: وثيقة 1670: وثيقة قانونية محررة من طرف مجلس القضاء الفرنسي في 1670 والتي تعتبر من بين أهم الوثائق التي قامت بوضع شتى أشكال العقاب التي تكون مقابلة لكل جريمة معتمدة في ذلك على طريقة ممارسة التعذيب بشتى أنواعه وبدرجات متفاوتة وقد نصت على العقاب الشديد والخفيف في آن واحد (ابراهيم جيجيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 56).

بالموت والأعمال الشاقة والنفي والإعدام شنقاً. فالبعض يتم عقابه بقطع اليد أو اللسان أو يؤخره ويتم شنقهم وآخرون يعذبون حتى يلفظون أنفاسهم في الشارع بعد قطع أعضائهم وذلك لسبب ارتكابهم جرم أكثر شناعة ومنهم من يعدم جذباً بالأحصنة وثمة فئة من المجرمين من يتم كسر جماجمهم أو قطع رؤوسهم»¹.

قدم فوكو صورة ومشهد يصف فيه عملية تنفيذ اعدام جذبا بالأحصنة في الفصل الاول من كتابه "المراقبة والمعاقبة" يقول « حكم على "دميان" * "Damien" في الثاني من آذار سنة 1757 بأن يدفع غرامة معنوية هي الإقرار بذنبه علناً أمام باب كنيسة باريس الرئيسي، حيث أن يسحب ويقاد في عربة عاريا إلا من قميص يستره ، حاملا مشعل من الشمع الملتهب وزنه قرابة الكيلو غرام، ثم وفي العربة نفسها عند ساحة غريف "Grève" وفوق منصة الإعدام التي ستصب هناك يجري قرصه بالقارصة في حلمتيه وذراعيه، وركبتيه وشحومات فخضيه، على أن يحمل في يده اليمنى السكين الذي بها ارتكب الجريمة المذكورة جريمة قتل أبوه، ثم تحرق يده بنار الكبريت وفوق المواضع التي قرص فيها يوضع رصاص مذوب وزيت محمى وقار صمغي حارق وشمع وكبريت ممزوجان معاً، وبعدها يمزق جسده ويقطع بواسطة أربعة أحصنة ثم تتلف أوصاله وجسده بالنار حتى تتحول إلى رماد يذرى في الهواء»².

يمكننا استخلاص من هذا المشهد المروع محتوى وثيقة 1970، إنها صورة لشكل من أشكال التعذيب من خلال استخدام الحيوان بغرض تعميق شدة الألم، وتنفيذ عملية الاعدام تكون في ساحة مكشوفة يلزم فيها الناس بمشاهدة الطريقة الوحشية والغير انسانية لتنفيذ الحكم، إن هذا المشهد بمثابة احتفال شعبي انها عملية تنفيذية للعقاب والجرم

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص56.

* دميان: مواطن فرنسي (1715- أعدم 1757) لاعتدائه على الملك لويس الخامس عشر وجريمة قتل أبوه.

²: ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص 47.

المباشر لتكون عبرة وتذكير لسلطة الحاكم وقوته وصرامة قوانينه. إن هذه الخطة التأديبية يكون الجمهور المشاهد هو المستهدف، يؤكد فوكو هذا قائلاً « يعتبر الجمهور الشخصية الرئيسية اثناء الاحتفال العقابي على أن كل ما يهم صعب في آن واحد هو فرض الآلام التي تعتبر بمثابة الثمار المرجو جنيها ولهذا يجب أن يكون التهيب ممارسة بطريقة جيدة على المذنب»¹.

تباينت أشكال "انتزاع الاعتراف منذ العصور القديمة والعصور الوسطى المسيحية رافقتها محاكم التفتيش بحضور القضاة أنفسهم على غرار عملية تنفيذ الإعدام ولجذب بالأحصنة التي تجعل من الجسد حيزا يشهد أنواع وحشية للتعذيب الطويل المسرع للألم والجزئي، فهو لا يهتم بقتل ذلك الشخص مباشرة بل تستهدف هذه العملية «الحاق الألم بأجزاء و أطراف الجسم كله دون أن يعقل عن أي جزء من أعضائه إلا أننا نجد طرف آخر من أجل انتزاع الاعتراف ضمن ما يسمى "الامتحان اللاهي" «... فمن ذلك ما يسمونه "الأورد آليا"، بحيث يتم أخذ في تحقيق الجرائم الخطيرة كثيرا من الشعوب المتحضرة في العصور القديمة ومن بينها الشعب اليوناني نفسه في أرقى عصور نهضته (...). بحيث كان يؤتى بقطعة من حديد فتحمى حتى تصير نارا ويكلف المتهم أن يقبض عليها بيده أو يكلف بالمشي على الجمر، فان أصابه ضرر من هذه الأمور دل ذلك على إدانته وإن حدث وأنجها الله من ذلك وأصبحت النار بردا وسلاما عليه كان ذلك برهانا كافيا على ثبوت براءته ولكن هيهات أن تحدث هذه المعجزة»².

♦ النفي والتهجير:

إن هذا الشكل من أشكال العقوبات قد طبقت قبل إصدار 1770 منذ العصور القديمة ومع المجتمع اليوناني، يتمثل هذا النوع في الابعاد والتهجير من بلاد إلى بلاد

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص59.

²: المرجع نفسه، ص 60.

تكون بعيدة او تكون عبارة عن مستعمرة، نفي مرتكب الجريمة إلى بلد أجنبي « تعاقب الشرائع اليونانية القديمة على كثير من نوع القتل الخطأ وخاصة ما كان منها صادرا عن الاهمال، فقد ورد في « القيادة هوميروس » ما يدل على أن هذا النوع من الجريمة كان يحكم على مقترفها بالقتل أو النفي إلى بلد بعيد، فعندما قتل "باتروكل" Patrocle وهو لم يتجاوز بعد دور الطفولة طفلا آخر من زملائه بدون قصد، قضى على والده أن يعيش في بلد أجنبي»¹.

طبق "النفي" أو "التهجير" منذ العصور القديمة و الوسطى حتى العصور الكلاسيكية والنهضوية إلى غاية العصور الحديثة، فهي لم تقتصر على المجتمع اليوناني القديم، هذا ما أشار إليه "نبيل السيمالوطي" «طبقت عقوبة النفي في روما القديمة بنطاق واسع جدا وإلى جانبها نجد انجلترا التي صدر فيها أول تشريع للإبعاد عام 1598، طبقت بشكل كامل بعد قيام الثورة الأمريكية حيث أرسلت انجلترا العديد من المجرمين إلى أمريكا وبعض مستعمراتها 1768، كما طبقت هذه العقوبة في استراليا و استمر هذا الاجراء إلى غاية 1868»².

♦ التعويض بالغرامم المالية:

بدلا من ألم الجسد الذي تخلقه العقوبات المفروضة أو الموت أو النفي من مكان إلى مكان آخر، توجد عقوبة ذات بعد اقتصادي، حيث أصبح المجرم يتحمل جرمه بتقديم مبلغ مالي لتغطية ما ارتكبه بمثابة تعويض يفرض على الجاني فعوض دخوله السجن أو الموت يقول "نبيل السيماروطي" «انتشرت عقوبة التعويض في الكثير من بلدان أوروبا وأمريكا بنسبة 75%، فمثلا في أمريكا كانت جرائم النصب اقدر بـ 11%، فصدر الحكم

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص60.

²: نبيل السيماروطي، علم اجتماع العقاب، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، جدة 1986، ص 142.

بشأنها بدفع غرامات مالية وهذا في سنة 1868 أصبحت نسبة 47%، سنة 1996 تحول اجراء التعويض من قانون مدني إلى قانون جنائي إذ شرع له رجال القانون و الفكر أمثال "بونفيل Poufil" وأصبح "رجالو" Maragologo من أكبر المدافعين عنه إلى جانب "فييري فيورتي" Fiortti¹ طبق هذا النوع من العقوبات على القتل الخطأ أو جرائم النصب والاحتيال والنهب والسرقة.

♦ القصاص:

يقدم فوكو تعريفًا للقصاص قائلاً «يقوم القصاص بتسليط عقوبة تكون متكافئة مع الجرائم التي ارتكبها الجاني (...).» قدم ف حادثة تؤكد ذلك إنها تلك التي وقعت 1778 حيث قمت خادمة بقتل سيدتها فحكم عليها بأخذها إلى المكان الذي اعتدت فيه على الضحية، فقام المنفذ بقطع قبضة يدها اليمنى ورميها في النار وبعدها قام بطعنها في الرأس والصدر إلى أن ماتت².

إن تنفيذ عملية القصاص تجعل من مرتكب الجريمة يعيش نفس فعلته أو جرمه وكأنه قبل ارتكابه الذنب سوف يحدد مسبقاً بأي طريقة سوف يموت. تعددت المسارح العقابية بين الشنق والإغراق والوَأد ودفن المجرمين أحياء، انه فن التعذيب، قوانين توضح لا للحد من ارتكاب الجرم بقدر ما تطبق قاعدة اليقين العام التي تنص على أن المشاهد أو السامع الطريقة العقابية يتيقن من أنه سوف يعاقب ويتعرف على طريقة نهايته المأساوية إنه أسلوب ترهيب موجه للناس للاعتراف بقوة الحاكم ونفوذ سلطته.

كان هناك تسابق في الاختراعات والآليات والوضعيات لهذا الفن التعديبي و التطوبي للجسد أو لصاحب الجرم فخلفت الآلة مكان الجلاد، كأنه تحول الموت من

¹: نبيل السيماروطي، علم اجتماع العقاب، ص 142.

²: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص ص 63-64.

احتضار طويل إلى موت رحيم، كانت الروح هي المستهدفة وليس لاستهداف الجسد في هذا الشأن تساعل فوكو: « إذا كانت العقوبة بأشكالها الأكثر تشددًا لاستهداف الجسد فعلى ماذا تأسست دعائمها؟ لقد كانت الإجابة لدى المنظرين جاهزة وسهلة وهي كالتالي: بما أن ليس الجسد هو المستهدف لابد أن الروح هي الغاية والمستهدفة من طرف تنفيذ هذه القوانين بشكل صارم للغاية»¹.

3.3 من الساحة العقابية العلني إلى الظل:

أصبح العيد والاحتفال التعديبي يُمهد بزواله وانطفائه ليتحول إلى عمل إداري فقد « ألغي الاعتراف العلني بالذنب في فرنسا أول مرة سنة 1791 ثم ألغي ثانية سنة 1831 بعد اقراره من جديد لفترة وجيزة وألغي عمود التشهير سنة 1791، والأشغال الشاقة التي كانت النمسا وسويسرا وبعض الولايات الأمريكية تطبقها في الشوارع أو في الطرقات العامة، قد ألغيت تقريبا في كل مكان في أواخر القرن الثامن عشر (...). توقف القصاص على أن يكون علني بصورة تدريجية (...). اتجه العقاب ليصبح الجزء الأكثر ضفاءً في العملية الجزائية»².

بدأ المشهد الكبير للعقاب العلني بالرجوع إلى الوراء وإلى الانمحاء خاصة مع طلوع القرن التاسع عشر ما بين 1786-183، إلا أن هذه التحولات لم تأتي دفعة واحدة بل كان شبه تقريبي، فمثلا انجلترا من بين الدول العظمى التي كانت معرضة لهذا التغيير للمشهد العقابي يقول فوكو « ربما بسبب الدور النموذجي الذي أضفاه على عدالتها الجرمية نظام المحلفين وإجراء العلنية»³.

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 67.

²: ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص 51-52.

³: المصدر نفسه، ص 55.

زالت ظاهرة "القسوة الجزائية" لتأخذ مجرى آخر أقل فظاعة، متسامحة أكثر، ضعيفة الألم والضرر، كذلك تغيرت طريقة تحديد المخالفات من خلال المقاييس والأدوات « كل ذلك قد تغير إلى حد بعيد منذ مئتي سنة، فجرائم كثيرة لم تعد جرائم لأنها مرتبطة بنوع من ممارسة السلطة الدينية، أو بنمط الحياة الاقتصادية فالكفر فقد وضعيته كجريمة والتهريب والسرقة من المنزل فقد جزءاً من خطورتها، احتفظ التقسيم إلى صباح ومحظور من قرن إلى قرن، بنوع من الثبات»¹.

إذا كان القانون الكلاسيكي يصبو إلى بسط القوة الحاكمة، بالتالي العقوبة تخول إلى ما وضعه الحاكم من قوانين، إنه الوحيد المتمتع بالسلطة، فإن مع بداية القرن التاسع عشر، ذهب المراسيم الجزائية إلى نهج آخر، مثلاً جريمة الكفر في العصور الوسطى والعصر الكلاسيكي، جريمة يعاقب عليها القانون تصل إلى الشنق والحرق إلا أن فوكو يرى أن هذا التخفيف العقوبي يحمل أشكال أخرى من القمع « إن الهدف حسب فوكو هو جعل العقوبة وقمع التشريعات وظيفة اعتيادية شاملة للمجتمع، ليس الغرض هو تخفيض العقاب وإنما تدعيمه، وقد يكون ذلك بأقل قسوة ولكن من أجل عقاب أشمل وأكثر جبرية ومن أجل إدماج سلطة العقوبة بصفة أعمق داخل الجسم الاجتماعي»².

حسب رأي فوكو أن ذلك التخفيف والتلطيف المتزايد للعقوبات، يستكشف لنا أغراض أخرى للسلطة، بدايتها مع إبرام عقد اجتماعي ينص على احترام مواد هذا العقد من بينها « احترام أجساد البشر الذين وقعوا العقد وليس جسد المجرم»³.

كان الجسد هو موضع وهدف السلطة في العصر الكلاسيكي "L'homme machine"، إلا أن السؤال المطروح هنا هل آليات السلطة القصاصية والعقابية هدفها الجسد فقط، هل

¹: ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص ص 57-58.

²: سيد ولد آباه، التاريخ والحقيقة عند ميشال فوكو، ص 190.

³: المرجع نفسه، ص 191.

هو وحده يُعدّ الموطن لإجراء العقوبة؟ أو هناك موقع آخر تستأثره السلطة حسب فوكو؟ يجيب فوكو قائلاً « إن الحقيقة التاريخية لهذه النفس التي تختلف عن النفس التي يقدمها اللاهوت (التيولوجيا) المسيحي، لا تولد خاطئة وقابلة للقصاص، بل تولد من إجراءات القصاص والمراقبة والعقاب والإكراه، هذه النفس الواقعية وغير الجسمية، ليست إطلاقاً جوهرًا، إنها العنصر الذي تتمفصل حوله مفاهيم نمط من السلطة مع مرجع من المعرفة»¹.

كانت حيلة السلطة في إلغاء "الاحتفال العقابي" لكي لا يعلم الجمهور ولا يتطلع على ممارساتها القمعية وآلياتها العقابية المرعبة، بالتالي تحمي السلطة حقلها وسمو قوتها فلا أحد يجراً على محاكمتها أو الوقوف في وجهها من بين رجال القانون الذين صدّوا "ممارسات العقوبة والتعذيب" وثاروا ضد السلطة الحاكمة نجد "روش" Rush من بين ممثلي هذا الموقف فهو لم يتردد في اعتبار تلك الطرق البربرية في ممارسة التعذيب بمثابة تصرفات تقدّم صورة سيئة جداً عن الإنسان والتفاؤل باليوم الذي تختفي فيه كل المشاهد المثيرة للرعب يقول « لا شيء يمنعني من التفاؤل، إنه ليس بالبعيد ذلك الزمن الذي يصبح كل ما في تاريخ التعذيب عبارة عن محطات كبرى تبدي جلاء همجية القرون والبلدان وتكون بمثابة براهين واضحة وقعة على ضعف تأثير الدين والعقل على الضمير الإنساني كله»².

كان "روش" من بين هؤلاء الرافضين للممارسات القمعية والعلنية فالسلطة هنا هي المنتجة لذلك الحقل وللمواضيع والطقوس العميقة والاقتصادية حيث شهد التاريخ الجزائري الغربي نوعاً من الهمجية والبربرية حسب قول "روش" وتفاؤل هذا الأخير بزوال كل مقولات السلطة القمعية التعديبية، وحقيقتها حصل على مستوى "العقاب" أو "الخطة

¹: ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص 67.

²: ابراهيمي جيجيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 69.

التأديبية"، هو الحفاظ على السرية التامة، فتغير المكان لتلك الخطة التأديبية من مشهد أو ساحة علنية أمام الكثير من الجمهور إلى حيز مغلق يحيطه سياج حديدي وجدران سمكية وضخمة إنه "السجن" « لقد أصبح السجن هو المكان الذي يتكفل بها، أصبح السجن هو الشكل العام للعقوبة وحل محل التعذيب المرئي»¹.

كان التحول الذي جادل به فوكو "الدولة الحديثة من الفرض الجزائي والعقابي" على الجسد إلى الفرض النفسي وُظف السجن كثورة للقيام بقطيعة مع أشكال العقاب التي شهدها العصر الكلاسيكي، كانت بدورها تبحث عن العدالة، فقد اعتمدت السجون من خلال تنفيذ عقوباتها على " التوزيع والتطويع".

يتطلب السجن من خلال خطته التأديبية الممارسة على المسجونين، فنونا هندسية ومهارات فردية يمتلكها هؤلاء الذين يشتغلون داخله « تقوم الخطة التأديبية على توزيع الأفراد في مكان محدد وتأتي ضمن هذه العملية آليات وتقنيات مختلفة بحيث أن التأديب يتطلب في بعض الأوقات وفرة الحصون المسيجة فالمكان يتطلب خصوصية تجعل حيزه دائماً غريباً على الآخرين ومحكماً»².

يخضع الجسد للمراقبة داخل السجن لتحقيق "السيطرة على الذات وتطويع ذلك الجسد وإبقائه تحت الأنظار بشكل دائم مع تسجيل وأخذ بعين الاعتبار كل ما يصدر عن السجناء، مثلاً نأخذ "جيرمي"* وإنشائه لأول سجن بإنجلترا قام بوضع هندسته متمثل في

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص70.

²: M. Foucault, surveiller et punir, P P 188-198.

*: جيرمي بيننام : رجل قانون ومفكر ليبرالي (1748-1832)، كان له دور فعال في إنشاء السجون و دعا إلى الإصلاح الدستوري وإصلاح حالة السجون في إنجلترا من أشهر كتبه "مقدمة في مبادئ الأخلاق والتشريع "حرروا مستعمراتكم"، أحرز سنة 1766 شهادة الماجستير من جامعة أكسفورد، ليكون أصغر متخرج عرفته الجامعات الإنجليزية، اهتم بالكيمياء وشرع في إرساء مذهب فلسفي عرف باسم "النفعية" وكان لمواقفه فيه تأثير كبير في الإصلاحات التي شهدها التاريخ الإنجليزي أدخل إصلاحات على قوانين العقوبات والقانون الدستوري.

حيز دائري وزنانات محيطية وبرج مراقبة مركزي « استطاعت "طوباوية بنتام" أن تتخذ شكلا مادياً مرة واحدة بكاملها، فأصبح المستشرف حوالي السنوات (1830- 1840) البرنامج الهندسي البنائي السائد في معظم مشاريع السجون لقد كان الأسلوب الأكثر مباشرة لترجمة ذلك الانضباط بواسطة الحجر ولجعل الهندسة البنائية شفافة امام تنظيم السلطة»¹.

اقترن السجن بكل مقولات الانضباط و "الرقابة" و "العقاب" ، لتأتي ولادة بعد الثورة الفرنسية، إلا أن هذا لا يعني أنه لم يكن موجوداً قبلها « إن السجن لم يكن كمؤسسة عقابية لها إدارتها وهيئتها القانونية كما ينبغي إلا بعد إصلاحات الثورة الفرنسية، فعند تنفيذ العقوبة بالسجن لم يعد مهمًا العمل بالأساليب الكلاسيكية بقطع يد السارق بل لا بد عليه أن يوجه يده من أجل خدمة المجتمع الذي يمتلك الحق في استعادة تعويضاً عن الخسارة التي ألحقها به»² كان الاهتمام بالهندسة البنائية للسجون سواء من الداخل أو الخارج هو الهدف الرئيسي للسلطة، فجعلت من المسجونين "أجساداً مَرَّوضة، مطوّعة"، إنها « عبارة عن مؤسسة هشة و قابلة للنقد، والسجن في الحقيقة لا يصلح، إنّه يسترجع نفس الأشخاص»³.

وجه فوكو عدة انتقادات لتلك المؤسسة التي تدّعي الإصلاح الاجتماعي وهي في حقيقة الأمر ترمي إلى التحكم بالأفراد وإقصائهم. إن السجن شكل من أعمق الأشكال الإكراهية التي ساهمت وبقوة من خلال فرض استراتيجيتها في تهميش وإقصاء وقمع الأفراد. لم يعد السّجن ذلك الحيز الذي يحمي المجتمع من خلال إصلاح

¹: ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص248.

²: ابراهيمي جيجيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص74.

³: المرجع نفسه، ص83.

المجرمين، بل بالعكس عمد إلى تكاثر الجريمة خاصة داخل السّجن. أمّا الإصلاح الحقيقي فكان على مستوى الهندسة البنائية التي كانت همّ المصلحين ذلك الوقت.

4.3 موقف فوكو من المؤسسات الانضباطية ومن الخطة التأديبية:

نستخلص مما سبق ذكره سلفاً، أن فوكو كان من الرّافضين لتلك المعاملات البشعة التي تمارس كعقاب كالجذب بالأحصنة وتقطيع الأجساد والإغراق والحرق والشنق كلها آليات سلطوية استعملت لانتزاع الاعتراف، إلا أن نقده اللاذع لآلات التعذيب لا يعني أنه يبرر الأعمال الإجرامية، بل يعتبره انحراف في القانون الجزائي.

كشف فوكو عن تلك المؤسسة العقابية التي خلقت من خلال حيزها الرقابي، أفراداً مروّضين ومطوّعين وفقاً لما تملّيه عليهم الإدارة ومحاولات الإصلاح لتلك المؤسسات همها الكبير "الهندسة البنائية" من الدّاخل والخارج؛ أما عن المسجونين فهم ثانويين.

يكون هدف السّجون الإصلاح، لكن حسب رأي فوكو - تقوم تلك المؤسسات باسترجاع نفس الأشخاص داخلها أو أعلى درجة من أعمالهم الاجرامية التي سُجنوا من أجلها. يرى فوكو أنه لا جدوى من تواجد السّجون ما دامت لا ترمي إلى التقويم والاستقامة.

حسب القراءة الفوكوية تكون المؤسسة العقابية التي شُيدت من أجل الإصلاح و التقويم قد فشلت في هدفها و مهمّتها التي تدعوا إلى استئصال الجريمة من المجتمع وتقويم سلوكياتهم، حيث أصبح السّجن لبعض المجرمين أحسن من الخارج، يفضل فيه البقاء، موفراً له المسكن والمأكل ومرافق الترفيه المتنوعة، كلّها شروط تجعله يحنّ إلى العيش فيه هروباً من حياته المزرية خارج السّجن، لنختتم هذا المبحث بقول فوكو « لقد

انتهت تراجيديا ما وبدأت كوميديا ومعها اشباح من الظلال، وأصوات بدون وجود وكيانات لا يمكن حسّها»¹.

4. علاقة السلطة بالجنس:

لا يخفى عنا اهتمام فوكو البالغ، بدراسة علاقات السلطة وكيفية تواجدها في مختلف الشبكات الاجتماعية والحقول السياسية، المواطن الطبية وحتى النفسية منها رغم نفي فوكو أكثر من حوار على أنه مختص بهذا المجال، إلا أن أعمال أبحاث الحفريات كشفت العديد من الإكراهات التي مارستها السلطة، فأستخلص أن هذه القوة خفية وليست ظاهرة تتأتى بوجود مقاومات، أنها متغيرة، متعددة.

نفهم من الدراسات الفوكوية للسلطة، أن ما يهمه هو كيف تعمل السلطة؟ ووفقا لأي آليات تحدد وتتهج طريقها؟ لم يكن البحث عن ماهية السلطة مطلب فوكو، إنه عمل المختصين بعلم السياسة، وبما أن السلطة متحركة فلا يصعب عليها الولوج إلى المصحات والمستشفيات والمعتقلات ومقرات الشرطة والسجون، حتى المكتبات التي تحتفظ بالأرشيف والوثائق المهمة.

نشر فوكو بعد عام ونصف كتاب "ارادة المعرفة" بعد نشر كتاب " المراقبة والمعاقبة" الذي يتحدث فيه عن تاريخ الجنسانية. ان ما يميز فلسفة فوكو " الغموض" و "اللاخصوصية"، وهذا ما أراده من خلال بحثه في علاقة السلطة بالجنس، هو الكشف عن كيفية عملهما وفضح آليات السلطة عبر التاريخ في كيفية تعاملها مع هكذا مواضيع، كان اهتمام فوكو ينصب دائما حول الذات، الذات الخاضعة والمقاومة، الذات العارفة والذات الفاعلة، إن هذه الحلقة لا تنفصل عن باقي الحلقات كموضوع الجنون وميلاد العيادة يقول فوكو « أود أن أوضح أولا إذا كانت غاية عملي طوال السنوات العشرين

¹: ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص248.

الماضية، لم تكن تحليل الظاهرات السلطوية ولا إرساء قواعد هذا التحليل لقد سعيت مما لا شك فيه سوف يجعلنا فوكو نتوقف عند تصريح له وعدة تصريحات ومؤلفات تدعو إلى ضرورة الاهتمام بالسلطة وبعلاقتها، إنه يضعنا أمام مفارقة إلا أننا وفي نفس الوقت نستذكر قوله بالقطيعه والتغير والاختلاف ،يقول صديقه "جيل دولوز" لقد مر فوكو بأزمة من كل الجهات ،سياسية وحيوية وفلسفية إضافة إلى منطق الفكر في حد ذاته، يتشكل من جملة الأزمات التي يحاول تجاوزها»¹.

عرفت مرحلة ما بعد انتفاضة 1968، تجاوز لعدة مواضيع طالما كانت سائدة آنذاك، ليذهب التيار إلى زوايا كانت تسودها الظلمة والسواد، أصبح مثقفو السبعينات يهتمون بـ " الهوية "، " الذات " الفردية ،هذا ما دفع بفوكو كذلك إلى محاولة رسم مسار لهذه الذات وكشف علاقاتها، أرد أن يبحث عن طرائق تذويت الكائن البشري لكن نتساءل هنا، لماذا بالذات الجنس لماذا ذهب فوكو إلى هذا النوع من الطرح في بداية أعماله المهمة بالتذويت؟.

إن الجسد بمثابة حلبة مصارعة، تستثمره السلطة وتروضه وتراقبه، تقمعه وتمنعه، إنه يقع تحت إرادة حتميات ،تعمل جاهدة وبكل قوة على طمس هويته وفردانيته، حتى حياته الجنسية ،هذه الأخيرة التي تعتبر من بين المواضيع المركزية التي اهتم بها فيلسوفنا، من جهة ما نلاحظه من خلال دراساته الأخيرة، إنها مشروع ضخم يتضمن ثلاث أجزاء أطلق عليه " تاريخ الجنسية"*

¹: الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقته لدى ميشال فوكو، ص 273.

*: تاريخ الجنسية: لقد نشر ميشال فوكو كما هو معلوم ثلاث أجزاء ضمن مشروعه كتابة تاريخ الجنسية، صدر الجزء الأول منه بعنوان: إرادة المعرفة 1976 ،وأتبعه بعد فترة زمنية ليست قصيرة بجزئين مختلفين عن الجزء الأول هما " استعمال الذات " ، الاهتمام بالذات " 1984 وهذه الأجزاء رغم اختلافها في الحقبة إلا أن منطلقها سؤال أولي هو لماذا يخضع الجنس للأخلاق؟ (الزواوي بغورة، بحث في الخطاب وعلاقته عند فوكو، ص 278) .

يذهب فوكو دائما في دراسته الحفرية سواء الخطابية كتاريخ الجنون أو ميلاد العيادة أو غير الخطابية المتعلقة بالسلطة وحيثياتها، إلى التقسيم التاريخي (عصر النهضة ثم العصر الكلاسيكي، حتى العصر الحديث)، لكن مع تاريخ الجنسانية يذهب بنا فوكو إلى ما قبل النهضة، إنه يعود إلى اليونان والرومان، ذلك من أجل التقصي وراء مختلف الممارسات التي خضع لها الجنس، ليقسمها في ثلاث خانات « يميز فوكو ثلاث مراحل في تاريخ الجنس، هي مرحلة الأفعال الجنسية أو الأفروديزيا (Aphrodisie) في اليونان التي لم تعرف هوية جنسية وإنما عرفت من يمارس ومن لا يمارس الجنس ومرحلة اللحم أو الجسد والرغبة (Chais) في المسيحية ومرحلة الجنسانية (Sexualité) في العصر الحديث التي تتميز بظهور معرفة وعلم حول الجنس (Scientia Sexualité) وآليات وجاهزيات سلطوية حول الهوية والجنسية في مقابل الفن الشعبي الشرقي (Ars Erotica)، والسؤال الذي طرحه في هذا السياق بسيط ومباشر وهو: لماذا جعل الانسان من الفعل الجنسي مسألة أخلاقية؟¹».

لم تقتصر السلطة من وضع بصماتها على حيز المعرفة أو على الخطة الأدبية، بل جعلت من الجنسانية حيزها المشبع بكل أنواع الاكراهات.

1.4 تجربة اللذات (ما قبل العصور الوسطى) :

يقول: «إن الإغريق لم عرفوا لا الجنسانية ولا جسد الخطيئة ، بل هم قد عرفوا جملة من الأفعال المسماة "Orphodisia" وهي تدخل في نفس الفئة وتضع في الصدارة نفس النوع من السلوك ونفس ممارسات الجسم (Corp.)... الخ، ولكن مهما يكن في الأمر هي أفروديسيات، هي أعمال جنسية وليست شيئا من فتيل جسد الخطيئة (Chair) أو من فتيل الجنسانية {...} "Aphrodisia" لدى اليونان و"Veniria" عند اللاتين هي

¹: الزواوي بغورة الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته لدى ميشال فوكو، ص276.

النشاط، هي ليست خاصة في الطبيعة ولا سمة طبيعية وليست بعدا للذاتية، بل هي نوع متوالية من الأفعال المخصصة بشكلها المخصصة بعنف الرغبة التي تخرقها، بحدة اللذة التي نشعر بها ويكونها نشاط هي تكاد ،بسبب هذا العنف في الرغبة نفسها وهذه الحدة في اللذة، تلفت من نفسها وتفقد السيطرة على نفسها هكذا كانت الأفروديسيات في الثقافة والفكر اليوناني»¹.

من سياق النص السابق ، نفهم أن فوكو أراد أن يوضح لنا أن الثقافة اليونانية و الرومانية لم تشهد بعد لا " تجربة الجسد " ولا " علم الجنس " ،الا أنهم تكلم لنا عن الأفروديسيات* .

2.4 التقنيات السلطوية الممارسة لرقابة الجنس :

♦ الحماية وأنواعها:

حمية الإنجاب:

« شاع منذ القديم اعتقاد أنه لا يمكن الحصول على أطفال ذوي صحة جيدة إذا لم يتخذ الآباء عددا معيناً من الاحتياطات اللازمة، فاضطرابات الحمل تضع وتؤثر مباشرة على الجنين وذلك لا يعود فقط إلى كون المولود يشبه والديه فحسب بل لأنه يحمل في ذاته خصائص الأفعال التي صاحب ولادته ولعلنا نتذكر توصيات أفلاطون وأرسطو في

¹: الزواوي بغورة الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته لدى ميشال فوكو، ص 277.

*: الأفروديسيات: اللذات تجربة الجسد التي بدورها تتمحور في شقين سر التوبة مع المسيحية، والفن الشبقي مع الحضارات الشرقية (الهندية والصينية والفارسية)، أما المرحلة الثالثة يطلق عليها فوكو " تجربة الجنسانية " و " علم الجنس " .

هذا المجال ، إذ تتطلب الممارسة الجنسية في أهدافها الانجابية -حسب رأيها - العناية الكبيرة وذلك مبدأ نجده بانتظام في كل الحميات الطبية»¹.

منذ الحقبة الإغريقية، ظهر بما يعرف الحمية Le Régime، يخص بمجال الإنجاب، فكان كل من "أفلاطون" و "أرسطو"، يوصون بالعناية اللازمة للحمل، لأن الحالة النفسية المضطربة سوف تؤثر في صحة المولودين، هناك علاقة تأثر وتأثير بين الوالدين والجنين أو المولود، ذلك للحفاظ على النسل والسلالة البشرية، وفي هذا الصدد يشير فوكو إلى أن مقطعا من أثيني يذكره فيه "أوريبارز" بشكل صريح حول هذه النقطة بالذات « على الآباء الذين يريدون إنجاب الأطفال أن تكون نفوسهم هادئة وخالية تماما مما يمكن أن يعكر مزاجهما ولا بد أن يكون الجسد سليما وأن لا يكون معتلا بأي شكل من الأشكال تجبر هذه الخاصية من "الحمية" الوالدين العناية المستمرة بالأولاد وبمستقبلهم تجعلهم مسؤولين أمام ما تتطلبه قوانين الصحة، هي احتياطات ضرورية لا تختلف اهتمام الوالدين بأولادهم من الناحية البيولوجية، إنها العناية بالحالة النفسية التي بدورها سوف تجعل من ذلك الطفل، جسدا سليما يتمتع بصحة جيدة»².

« أما عند المسلمين فإننا نجد بأن الاهتمام بالإنجاب لا يقل عن اهتمامهم بتحقيق المتع بل وظفوا في خطابهم حول الجنس معارفهم في علم الفلك مستعين بتأثير الكواكب على الانسان فحاولوا أن يستثمروا ذلك في تحديد هوية الجنين " إن من أراد أن يولد به ابن أو بنت جميلي الصورة فليعمد لذلك إذا الطالع الثور أو الميزان أو الحوت والقمر متصلين بالزهرة أو مقارنا لها ،فإن لم يحدث فالزهرة والمشتري في الأصل»³.

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 97.

²: المرجع نفسه، ص98.

³: المرجع نفسه، ص، ص 98، 99.

♦ حمية المتع:

ارتبطت هذا الشكل من الحمية مع المحيط الخارجي وما تحتويه من ضروريات للمواد الغذائية اللازمة لتحقيق متعة جنسية، هذا ما أشار إليه فوكو من خلال الرسالة بعثها ديوكلس إلى ملكه « ففي طول الشتاء الذي هو الفترة الزمنية التي يكون فيها المرء أكثر تعرضاً للزكام الشديد فإن الممارسة الجنسية يجب أن لا تكون محصورة في أثناء فترة صعود الثريا، وهي الفترة التي تسيطر فيها الصفراء المرة على الجسد إنه لابد اللجوء إلى السلوكيات الجنسية المعتدلة بل لابد التخلي عنها تماما في فترة الصيف حين تسيطر المرة السوداء ويجب الامتناع كذلك عن كل شيء مجيء الاعتدال في الربيع»¹.

أصبحت الطريقة والاستراتيجية التي تمارس بها حمية المتع تحمل صيغة قانونية هنا نلمس تدخل السلطة حتى في الحياة الجنسية، إنها مجموعة من القوانين قد وضعها "أبيقراط" في كتابه تحمل جملة « من التمرينات ونوع من الأطعمة والمشروبات وأوقات النوم والعلاقة الجنسية وكل التي يجب أن تكون منظمة فمن بين التمرينات مثلا يجب أن نميز بين الطبيعية كالمشي والتجوال وبين النفعية كالعدو والمصارعة، و لابد من تحديد التمارين التي يجب ممارستها مع احترام ساعة النهار و فترة السنة و سن الممارسة و الاهتمام بنوعية الطعام الذي يجب تناوله إلى جانب نوع الاستحمام الأكثر أو الأقل حرارة»².

اقتترنت هذه الحمية بالجسم وبحالته الصحية من جانب النظام الغذائي المتوازن والراحة الجسمية (العلاقة الحميمية و فترات النوم)، تتسم الحمية بنوع من خطته، رقابية مستمرة والتي بدورها سوف تتعارض مع البعض الذي لا يستطيع تطبيقها مما قد يسبب له آثار جانبية واضطرابات نفسية.

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص98.

²: المرجع نفسه، ص105.

يعني هناك فئتين، الأولى ملتزمة بهذه الحمية وبقواعدها الرقابية الصارمة، أما الفئة الثانية التي تعيش حياتها الطبيعية وفقا لما تمليه غرائزهم، مما تنشب مقارنة بينهما الأولى تعيش نوع من التقيد والالتزام والثانية تحظى بكل الحرية والراحة وعدم الإكراه. إن هذا النوع من الإكراه الذي يعيشه الإنسان، يرجع إلى بعض العراقيل التي ألزمها القانون كتحديد "السن" و"استراتيجية الحاجة"، و"الأمزجة الفردية"***. إنها حمية تهتم بصورة فائقة لتحقيق المتع مما ينبج عنها « نوع من الالتزام والإكراه الذي تصاحبه الرقابة من طرف الأطباء ورقابة الشخص لنفسه ليجد بعد ذلك أنه أمام حقيقة يفرضها عليها الواقع بحيث أنه إذا أراد الحصول على المتعة فذلك لن يكون إلا بطريقة ذات تقنية عالية من التصميم وذات دقة عجيبة في الوصف لما يلزم وما لا يلزم القيام به أو أكله وبذلك يمكن أن نجد المرء لا يبلغ المتعة إلا إذا بالغ في الاهتمام بذاته وما يقترن بها من مستلزمات»¹.

♦ الاعتراف:

خلقت السلطة عملية جديدة أكثر فائدة وأقل ضرراً وألماً مقارنة بالآلات التعذيب فلو تتبعنا التسلسل الزمني لآليات القمع نجد نقطة تكون الاعتراف خاصة مع السلطة الدينية

*: السن: كان السن من بين العوائق التي تقف ضد المتعة، بالتالي يجب مراقبة السن لضبط ميول الفرد. هناك علاقة بين السن الفردي وصحته يقول فوكو «إن استعمال المتع لا يجب أن يستمر لفترة طويلة ولا يجب أن يبدأ منذ وقت مبكر».

*: استراتيجية الحاجة: يقول فوكو «إننا نعرف جميعاً تلك الفضيحة التي أقدم عليها "يوجين لايبورس" عندما كان يشعر بحاجة ملحة إلى اشباع حاجته الجنسية، لقد كان يرضيها هو بنفسه وفي الساحة العمومية دون أن يأبه المارة و لم يشعر بالخجل منهم " يعني دون مراعاة أي سلطة خارجية ولا المحيط الاجتماعي، فقد كان يبهر عمله قائلاً : « إن لم يكن الأكل شراً فإنه بالتأكيد ليس بعمل شرير إن أكلت في العلن» .

***: الأمزجة الفردية: يضع ريفوس الأمزجة الفردية القادرة على ممارسة الجنس كمبدأ عام وخاص بالرغبة وهي تلك التي تكون حارة ورطبة كثيراً (...). تكون هذه الحمية معقدة وكاملة في نفس الوقت فمن المقيد شرب النبيذ الفاتح اللون وأكل خبز النخالة ومن المستحسن أكل لحوم الجدي والخروف"، إنها حمية تتبع مزاج الفرد.

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة فوكو، ص 105.

التي سمحت لنفسها بالتطفل على حياة الآخرين بغرض ممارسة "سر التوبة" المقترنة بالعصور الوسيطية المسيحية.

كان الاعتراف من الطقوس الكبرى التي وضعت لإنتاج الحقيقة « فمذ القرون الوسطى على الأقل، وضعت المجتمعات الغربية الاعتراف بين الطقوس التي ينتظر منها إنتاج الحقيقة: تنظيم سر التوبة سنة 1215 من قبل "مجتمع لاتران" الكنسي وما تطور عنه من تقنيات الاعتراف وتراجع الدعاوى الاتهامية في القضايا الجنائية»¹.

وضعت الحضارة الغربية هذه العملية الاجرائية لإنتاج الحقيقة، حيث أصبح بابات الكنائس يتدخلون في الحياة الخاصة ويتطفلون على أسرارها، بغية كشف المستور والغامض كالحياة الجنسية التي تكون مصاحبة للرغبات واللذات والخطايا وهذه الطريقة تمارس بصورة تلقائية وليست تعسفية تصدر عن قناعة الأفراد فيبوحون بما اقترفوه من أفعال « مقابل نيل الغفران أو إرضاء الذين استطاعوا إيجاد حيلة أقنعوا من خلالها الجميع بأن لا شيء يخفى عنهم وبأن سلطتهم تخترق كل الحدود حتى الأمور ذات الخصوصية الكبرى»².

يتم الاعتراف بصورة سلمية، تلقائية، عفوية، من طرف هؤلاء الأفراد، لكن إذا حدث رفض، أو تمرد ماذا سوف يكون من طرف هذه السلطة الدينية؟ يجيبنا فوكو قائلاً: « نحن مجبورون على الاعتراف، عندما لا يكون تلقائياً، أو مفروضاً من قبل ضرورة داخلية فإن الاعتراف ينتزع انتزاعاً، فنحن نلاحقه أو ننتزعه من الجسد ومنذ العصر الوسيط يرافقه التعذيب هكذا صار الإنسان حيواناً اعترافي بامتياز»³.

*: مجتمع لاتران: conseil du Latran: مجتمع كنسي انعقد للمرة الثانية 1215، برئاسة البابا.

¹: ميشال فوكو، ارادة المعرفة، ص 72 .

²: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة فوكو، ص 90.

³: المرجع نفسه، ص 90.

يصف فوكو الاعتراف بالتقنية الضخمة التي مورست على أفرادًا أو كما يطلق عليهم حيوانات اعترافية، إنها طريقة تعسفية، تهكمية، متطفلة، يخضع الأفراد في هذا النوع من الطقوس للمراقبة، إنه الأكثر جدية في إنتاج الحقيقة بحسب رأي فوكو فنحن نعيش في داخل مجتمع اعترافي في العلاقات الاجتماعية وحتى الطبية والقضائية، فنحن دائماً نمارس هذا الطقس بطريقة تلقائية أو بطريقة تعسفية «يعترف كل منا بجرائمه وخطاياها، بأفكاره ورغباته، يعترف بماضيه وأحلامه وطفولته، يعترف بأمراضه ومصائبه يقول بأكبر قدر من الصحة ما يصعب قوله أكثر من سواه يعترف كل منا علانية، وعلى حده لأهله ومربيه، لطبيبه وللذين يحبهم، يعترف كل منا لنفسه في السراء والضراء بما يستحيل الاعتراف به لأي شخص آخر وتؤلف نته كتب نعترف أو نجبر على الاعتراف»¹.

أضحى الفرد مستعبداً بالاعتراف لكثرة خضوعه لطقوس السلطة الكنيسية استدرجت السلطة الدينية الفرد الغربي تحت ظل هذا الشكل من الطقوس فخلقت منه حيواناً مستعبداً، خاضعاً، مسلوب الحرية "حرية الرفض"، بل العكس قامت هذه السلطة بإقناع الناس أنهم أحرار، يمكنهم البوح بما يختلج في صدورهم، أو تصريحهم بما يقترفونه من أخطاء كان هذا هو شعار الاعتراف "أنتم أحرار يمكنكم قول ما تشاؤون والبوح بما تفعلون".

لكن تلك الحرية التي تدعيها السلطة الدينية وحتى القضائية والطبية والأسرية مقترنة بالضغط والتعسف واللاحرية، عكس ما تنادي به هذا من جهة ومن جهة أخرى لو تسعت شبكة الاعتراف فلم تعد مقتصرة فقط في الكنيسة ومحكرة في البابا أو الراهب عن طريق تطوير تقنيات للاعتراف نذكر منها:

¹: ميشال فوكو، ارادة المعرفة، ص 73.

♦ التقنيين العيادي:

توسعت "الممارسة الاعترافية" لتشمل بدورها السلطة الطبية يقول فوكو « تظهر عملية التقنيين العيادي للبحث على الاستنطاق Codification clinique de faire parler في تركيب وادماج الاعتراف مع الفحص الطبي والسيرة الذاتية مع انتشار العلامات والأعراض القابلة للكشف والتنويم المغناطيسي مع استرجاع الذكريات والاعتماد على التداعيات الحرة»¹.

يقوم مبدأ التقنيين العيادي على استنطاق المرضى والكشف عن عقدهم النفسية من خلال جلسات طبية يكون فيها المريض إما واع أو غير بما يحصل له إن كل من التنويم المغناطيسي أو التداعي الحر تمارس على المريض بغرض بوح المريض بحياته والكشف عن أسراره، يكون الطبيب هنا مثله مثل الراهب أو المحقق مقرات الشرطة أو المراقب في السجن.

♦ مبدأ الاستتار والكمون الباطني للجنسانية:

يقوم مبدأ الاستتار المحايث للجنسانية على كشف الحياة الجنسية لأن عمله غامض وسري وهذا ما يعيق عملية الاعتراف، يقول فوكو « إذا كان يجب انتزاع حقيقة الجنس بواسطة تقنية الاعتراف، فليس فقط لأن قول هذه الحقيقة صعب أو لأن موانع الحشمة تحول دون ظهورها، ولكن لأن عمل الجنس غامض ولأن طاقاته و كذلك آلياته محتجبة ولأن قدرته العلية سرية جزئياً»².

لم يقتصر الاعتراف من خلال هذا المبدأ على ما يريد الفرد أن يخفيه، بل تعدى إلى الحياة النفسية والباطنية، فلم يعد الاعتراف يرتبط فقط بالعوامل والظروف الاجتماعية إلا

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص92.

²: ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص79.

أن هذا المبدأ سوف يشهد عرقلة في العملية الاعترافية، لكن فيما تتمثل هذه العرقلة؟ هل في تلك القوانين التي تنص على معاقبة الشواذ وسجن مرتكبي الخطايا؟ « إن الشيء الذي يصعب عملية الاعتراف هو تلك المميزات الأساسية التي تتسم بها الحياة الجنسية من الداخل وهذا ما يؤدي إلى عدم قدرة اللغة على استيعاب ما يكشف الجنس من غموض ويجد المعترف نفسه غير قادر على الإجابة على الكثير من الأسئلة التي تكتسب طابعا ميتافيزيقيا كأن يعجز الشاذ عن ايجاد السبب المقنع الذي يبرر به ميوله الجنسية الغريبة»¹. يعمل مبدأ الكمون المحايث للحياة الجنسية على الاكراه الذي يؤدي إلى الاغتراب تلك الحالة التي يعيشها الفرد المعترف بأسرار ذلك الجانب المخفي، إن العملية الاعترافية التي تقوم بين المستجوب والمستجوب، تجعل من هذه الأخيرة يعيش اغترابا بين ما اعترف به وبين ما يعيشه من شذوذ.

♦ بواسطة طريقة التأويل (منهج التأويل) :

يقول فوكو في هذا المبدأ: « إذا كان على المرء أن يعترف، فليس لأن من يعترف له يملك سلطان العفو والمؤاساة والتوجيه، بل لأن صنع الحقيقة يجب أن يمر عبر العلاقة»² يشير فوكو هنا إلى نقطة جد مهمة وهي أن عملية الاعتراف، لا تهتم بسلطة الغفران فحسب بل يجب على المعترف له أن يتحلى بالقدرة على التأويل وفك الرموز الغامضة والخفية قدرته لا تقتصر على نقل الحقيقة جاهزة، إن سلطته تكمن « في تكوين خطاب الحقيقة من خلال الاعتراف وحل رموزه»³.

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفریات الاكراه في فلسفة فوكو، ص 92.

²: ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص 80.

³: المصدر نفسه، ص 80.

إن من يصغي إلى الاعتراف لن يكون ذلك المالك لسلطة العفو والغفران بل هو مالك الحقيقة من خلال ممارسته التأويلية؛ من هنا أصبح الجنس موضوعاً للتفسير والتأويل والقدرة على فك الرموز وإعادة صياغتها في شكل خطاب علمي منتظم.

قام علم النفس بتوظيف الاعتراف ومنهج التأويل *la méthode de l'interprétation* واتخذ منه مادة خصبة اشتغل عليها، فلم تتوقف مهمة الطبيب في الاستماع إلى ما يدلي الشخص المعترف، بل راح يبحث عن دلالات ما يصرح به أما ما يجده غامضاً فإنه يلجأ إلى تفكيك رموز التي يقدمها فيما بعد على أساس أنها معاني ثابتة يعتمد عليها لفهم الجميع بتطبيقها عليهم، من دون مراعاة جوانب الاختلاف وقد شملت هذه العملية خاصة الأحلام والميول الجنسية¹.

منذ بدايات القرن التاسع عشر ومع ظهور "علم النفس" إلى النور، أخذ الاعتراف شكلاً آخر مغاير ومختلف عن باقي الأشكال، حيث أصبحت الحقيقة تكمن في قدرة المستمع على التأويل، فمهمة الطبيب في جلسات الاستماع إلى مرضاه ليست في تدوين ما يبوح به المعترف، بل في حل ألغاز أحلامه وفك رموز ميوله الجنسية .

إلا أن هذا المبدأ يحمل ميزة عند فوكو، يؤكد هذا قائلاً «في تلك الطاقة الكبيرة من تكنولوجيات الجنس (...). كان التعليل النفسي، حتى أربعينيات القرن العشرين هو التقنية التي قاومت بشدة النتائج السياسية والمؤسسية لنظام الانحراف - الوراثة - انحطاط النوع»².

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة فوكو، ص 92.

²: ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص ص 124 - 125.

♦ مبدأ طبينة نتائج الاعتراف:

يقول فوكو في هذا الصدد: « يتم الحصول على الاعتراف ونتائجه من خلال إعادة صياغتها { في عبارات علمية } تحت شكل عمليات علاجية؛ مما يعني أولاً، أن ميدان الجنس لن يوضع فقط في نطاق الخطأ والخطيئة، والإفراط والمخالفة، ولكن ضمن نظام الحالات العادية والمرضية (.....) فيظهر الجنس كميدان ذي هشاشة مرضية عالية: سطح لانعكاس الأمراض، إنما أيضاً مركز لوصف أمراض خاصة بالغريزة والميول والتطورات والملذات والسلوك. وهذا يعني أيضاً أن الاعتراف سيستمد معناه وضرورته من التدخلات الطبية»¹.

إذا كان رجل الدين هدفه من الاعتراف هو الغفران فهو مالك السلطة لنيل التوبة، فإن الطبيب سوف يستولي على هذه المهمة لكن في طابع علمي تطبيبي وإذا كان الراهب يربط الحياة الجنسية بالخطايا والذنوب، فالطبيب يقرأها بالعقد النفسية والحياة المضطربة من خلال هذه الجلسة الطبية سوف يتعرف المريض على نفسه أكثر، تجعل منه تلك الاعترافات شخصاً يمتلك الشجاعة والقدرة على مجابهة عوائق الحياة من خلال تحمله أعباء أخطائه.

إلا أن مبدأ التطبيق لم يقتصر فقط على الأفراد الأصحاء، بل اتسع مجال التطبيق إلى المعاقين والمختلين والمجانين: يقدم لنا فوكو مثالا عن ذلك بحادثة أحد المعاقين والمختلين والمجانين: « يقدم لنا فوكو مثالا عن ذلك بحادثة أحد المختلين الذي تم إجباره على الكلام من طرف من حوله " في إحدى أيام من عام 1867 كان سشتغل عامل فلاح من قرية لابكور Lapcour وهو شخص متخلف ذهنياً بعض الشيء، كان يشتغل حسب الفصول عند هؤلاء أو أولئك، كان قد حصل على بعض الملامسات من صبية كما كان

¹: ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص80.

يفعل من قبل وكما سبق شاهد الآخرين يفعلون ، فاشتكاه والد الصبية إلى زعيم القرية الذي أبلغ عنه رجال الشرطة الذين بدورهم حضروا اليه وأخذوه إلى القاضي الذي قام باتهامه وبعد ذلك عرضه على الطبيب الذي يتوجب عليه تولي فحصه»¹ .

3.4 جدلية الجنسانية والفن الشبقي:

تراجعت السلطة الدينية، لم تبقى علاقة الفرد بالراهب بتلك الصورة السابقة، توسعت التقنيات إلى مواطن جديدة لتشمل الطبيب والمحلل النفسي والمصلح الاجتماعي وقاضي المحكمة، كلها مجالات أصبحت تتدخل في تحديد الحياة الجنسية الخاصة، إنها كلها فضاءات خارجة عن نطاق الكنيسة وبعيدة عن احتكار رجال الدين، اضمحلت تلك القداسة المطلقة للكنيسة، حلت محلها المدرسة والأسرة والسجون والمصحات التي تمارس الاعتراف طوعاً أو كرهاً.

يقول فوكو: « ... منذ مئة وخمسين عاماً نشأت جاهزية معتمدة لإنتاج خطابات حقيقية عن الجنس "جاهزية تتجاوز التاريخ بكثير، لأنها تربط فريضة الاعتراف القديمة بطرائق الاصغاء العيادي؛ ومن خلال هذه الجاهزية، ظهر شيء شبيه بـ "الجنسانية" وكأنه حقيقة الجنس وملذاته»².

تمت صياغة خطابات جديدة منذ حلول القرن التاسع عشر، داخل نطاق الطب والطب النفسي، تجمع بين تقنيات قديمة كالاعتراف والتطبيب والتأويل والاستشارة كما ذكرناهم سلفاً، لكن التساؤل المطروح ما المقصود بـ "الجنسانية"؟ هل هي علم الجنس؟ هل الجنس أوجد الجنسانية أو العكس؟ يجيبنا فوكو قائلاً: « تكون الجنسانية الاسم الذي يمكن أن نطلقه على جاهزية تاريخية إنها ليست واقعا سلفاً تمارس عليه تأثيرات صعبة

¹: ابراهيمي جيبيكة، حفريات الاكراه في فلسفة ميشال فوكو، ص 96.

²: ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص 81.

بل شبكة سطحية كبيرة تترايط فيها بينها وفقا للاستراتيجيات المعرفية والسلطوية الكبرى، العوامل التالية: تنشيط الأجسام، تقوية الملذات، الحث على الخطاب، تكوين المعارف تعزيز المراقبة والمقاومة»¹.

إن بحث فوكو وحفره في موضوع الجنس، لا يعني بذلك اهتمامه بالسلوك الجنسي بل الكشف عن الحقيقة الخفية للفرد، هذا ما يبرر قوله «إن الجنس لا يشكل مرجعا بيولوجيا ولا جوهرًا خفيا محددًا، بقدر ما هو عنصر تاريخي في جاهزية كاملة هي الجنسانية التي تعتبر موضوعا للبحث العلمي والرقابة الإدارية والاهتمام الاجتماعي وعنصرًا أساسيًا لمعرفة صحة الفرد ومرضه وشخصيته وترتبط ارتباطًا وثيقًا ببروز استراتيجيات سلطوية، ونظفت الفرد والجماعة في السلطة الحيوية (...). أصبحت الحياة الجنسية موضوع خطاب مستثمر ومرتبطة بخطابات السلطة وممارستها وأصبح الجنس شأنًا خاص من شؤون الشرطة وعلم الديموغرافيا وإدارة السكان»².

يأخذنا فوكو إلى حقل جديد ليكشف لنا التباين القائم بين المجتمعات الشرقية والغرب ليضع علم الجنس مقابل الفن الشبقي* (Ars Erotica) يقول في هذا الصدد « ليس بحضارتنا فن شبقي، كما يتراءى لنا في مقارنة أولية على الأقل. بالمقابل أنها الحضارة الوحيدة التي تمارس "علما جنسيا" أو بالأحرى إنها الوحيدة التي طورت خلال

¹: الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقته عند ميشال فوكو، ص 283.

²: المرجع نفسه، ص 285.

*: الفن الشبقي: خصت مجتمعات كثيرة نفسها بـ" الفن الشبقي" كالصين واليابان والهنود والرومان والمجتمعات العربية – الاسلامية، في الفن الشبقي تستخرج الحقيقة من اللذة نفسها، المناللة كممارسة والمحصلة كتجربة يحسب حساب اللذة لا بالنسبة إلى القانون المطلق الذي يحدد المسموح والممنوع ولا بالاستناد إلى معيار المنفعة إنما أولا وقبل كل شيء، يجب التعرف إليها كلذة وبالتالي حسب قوتها وصفقتها النوعية (إرادة المعرفة ص 72).

قرون من الزمن ومن أجل قول الحقيقة الجنسية إجراءات تنظم أساسا في شكل من أشكال السلطة - المعرفة يتعارض بشدة مع فن التلقين ومع السر الأعظم¹.

يوضح لنا فوكو أن تلك المجتمعات الشرقية لم تشهد "علم الجنس" بل عرفت بما يعرف "فن شبقي"، وما يقصده الفيلسوف هنا هو أن الحضارة الغربية لم تقم بتعليم وتلقين الجنس كفن يقوم بهذه المهمة مرشدا أو معلم، في مقابل علم الجنس الذي يقوم على استراتيجيات سلطوية معرفية، منذ ظهور "سر التوبة"، حيث لم تقتصر تقنية "الاعتراف" فقط في المحكمة، بل تعددت وتشكلت عدة صور لهذه النوع من الإجراءات، تعدى إلى الاعتراف بما نفكر به وبما يجب في خاطرنا، اعتراف بإرادتنا وبرغبتنا، بواسطته يمكن للفرد أن يغير ذاته من خلال اعتراف المجرم بجرمه واعتراف المجنون واعتراف المريض أو الشاذ كما هو الشأن في الطب النفسي، إنه يتحكم في علاقتنا بأنفسنا ومع غيرنا ومع السلطة.

يقدم فوكو أمثلة ليرصد لنا تلك المستجدات الكبرى التي لحقت بها السلطة يقول فوكو « في القرن الثامن عشر هو ظهور السكان كمشكلة اقتصادية وسياسية : السكان - الثورة، السكان - آلية العاملة، السكان - التوازن بين نموهم الذاتي ونمو الموارد التي يملكونها، إن الدولة تواجه سكانا مع ظاهرتهم النوعية ومتغيرة إنهم الخاصة ولادات، أمراض، معدل الحياة، خصب، حالة صحية (...) تتقاطع كلها مع الجنس»².

ظهر بما يعرف علم الديموغرافيا وعلاقته بالاقتصاد، فنمو السكان مرتبط أو يؤثر في مستقبل بلدهم وثروتهم، إنه علم يحاول تطبيق النظام بدقة، متحكم بذلك في وتيرة العلاقات الجنسية بتحديد النسل وسن الزواج ونسبة الولادات ومنع الحمل، كلها تعد من الحملات المنهجية التي قامت بها السلطة لتصنع بذلك سلوكا اقتصاديا وسياسيا من

¹: ميشال فوكو، ارادة المعرفة، ص 72.

²: المصدر نفسه، ص 45.

خلال سلوك الأزواج الجنسي. منذ القرن السابع عشر - الذي يعد بداية عصر القمع - أصبحت تسمية كلمة جنس أكثر صعوبة وأبهظ كلفة (...) إنه الحياء العصري حصل على منع الكلام في الجنس، حتى دون أن يذكر اسمه (...) حصل تطهير صارم للمفردات المسموح بها (...) بليس الملفوظات ورقابة على التلفظ أيضا، لقد حدد بشكل صارم أين ومتى لا يمكن الحديث عن الجنس، أين ومتى يجوز الحديث عنه، لقد أنشئت مناطق احتشام وذوق، إن لم يكن مناطق صمت مطلق: مثل: بين الأبوين والآباء، بين المربين والطلاب، بين الأسياد والخدم»¹.

حتى غاية العصر الفيكتوري ساد هذا النوع من الاقتصاد المنعي، اقتصاد في اللغة والحديث يقول فوكو «... خيمت الليالي الرتيبة للبرجوازية الفيكتورية، فيحبس الجنس آنذاك بعناية، ينتقل تصادره العائلة، تستوعبه كليا فيما للإنجاب من وظيفة جادة، فحول الجنس يصمت الناس، الزوجان، شرعيان منجبان وهما يصنعان القانون، يقيمان المعيار. يحفظان الحقيقة ويحتفظان بحق الكلام مع احتكار مبدأ السر الحيز الاجتماعي، كما في قلب كل منزل، مكان واحد للجنس معترف به و لكنه نافع وخصاب، إنها غرفة الأبوين وكل ما عداه عليه أن يمحي (...) وما لا يهدف إلى الإنجاب أو ما يحمله الإنجاب فإنه يفقد وجوده وحقه في الوجود»².

عمدت السلطة منذ بداية القرن السابع عشر إلى تطويع جسد الفرد، قامت بدمجه في نظم المراقبة، إنه الركيزة الأساسية للتحويلات والتطورات البيولوجية، إنها خطة تأديبية سياسية، اقتصادية للجسد، مرورا بالعصر الفكتوري، عصر القمع والمنع كما يصفه فوكو، الذي حصر "علم الجنس" في الإنجاب ومعدل الخصوبة وجدول الولادات والوفيات مع الحرص على الاقتصاد في لغة هذا الخطاب، كل مراقبة، هناك ما هو مسموح به،

¹: ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص ص 38-39.

²: المصدر نفسه، ص ص 27-28.

وهناك ما هو ممنوع به، منذ العصر الكلاسيكي كانت صيغة العلاقة بين السلطة والمعرفة والجنس هو القمع، نظام اقتصاد جديد وضعته البرجوازية، إن المتحدث عن الجنس في هذه الحقبة يجد نفسه محكوم عليه « بالوجود والخرس»، فإن مجرد الكلام عنه والكلام عن قمع، يكاد يتخذ شكل عصيان مفقود، من يتحدث عن قمع الجنس يجد نفسه إلى حد ما خارج السلطة، يستعمل القانون، يستبق ولو قليلا الحرية المستقبلية، فالديموغرافيون وأطباء القرن التاسع عشر، حين كانوا يذكرون الجنس، كانوا يستميحون العذر من قرائهم لأنهم مضطرون أن يسلطوا انتباههم على موضوعات دنيئة وتافهة إلى هذا الحد»¹.

4.4 العلاقة السلبية (السلطة - الجنس):

نستنتج مما سبق ذكره، أن العلاقة القائمة بين السلطة والجنس هي، منع وقمع ورفض، تصد السلطة دائما الخطابات التي تهتم بهذا الموضوع الحساس، تقول دائما لا، هذه هي سياستها، نعرف أن طبيعة السلطة منتجة، لكن إنتاجاتها في نطاق طبيعة علاقاتها، تنتج الانقطاعات والانفصالات، تقوم بعدة مهام نذكرها كما لخصها فوكو أربعة أدوار متمثلة في:

- **سلطان القاعدة** : يقول فوكو « السلطة جوهريا الشيء الذي يملي قانونه على الجنس، مما يعني أولا: أن الجنس من قبل السلطة تحت نظام ثنائي: مشروع و غير مشروع مباح أو ممنوع (...). وتعمل السلطة بإطلاق القاعدة التالية: يتم تأثير السلطة على الجنس بواسطة اللغة، أو بالأحرى بواسطة فعل الخطاب يخلق حالة قانونية بمجرد النطق به»²

¹: ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص 30.

²: المصدر نفسه، ص 94.

يعني هنا أن السلطة هي تقوم بوظيفة المشرع، الواضح للقوانين القائمة للجنس إنها سلطة عاجزة، قادرة فقط على وضع الحدود، سلطة تحمل طابع النهي .

- **دورة النهي:** منذ مؤسسات التي عرفت العصور الوسطى والسلطة تقوم بتعسفاتها يقول فوكو « لا تمارس السلطة غير قانون المنع، لن تقترب، لن تلمس، لن تستهلك لن يتلذذ، لن تتحدث، لن تظهر للعيان، وفي أقصى الحالات، لن تكون موجودا، إلا في الظل، وفي الخفاء»¹. وإن تكلمت أو تجرأت تجد نفسك خارج السلطة، ملزم بالعقاب، تحت المراقبة دائما.

- **منطق المراقبة:** يأخذ هذا المنطق ثلاث أشكال « هذا ليس مسموحا به، وضع أن يقال هذا، ونفي هذا هي أشكال ثلاث يصعب التوفيق بينهما ظاهرا ولكن هنا يستطيع المرء أن يتصور نوعا من المنطق التسلسلي الذي يميز آليات الرقابة (...). قد يكون منطق السلطة التي تمارس على الجنس هو المنطق المفارق لقانون، يمكن التعبير عنه على الشكل التالي : أمر بعدم الوجود و بعدم الظهور وبالصمت»².

- **وحدة الجاهزية :** « تمارس السلطة على الجنس بالطريقة نفسها على المستويات فمن أعلى الى أسفل في قراراتها الاجمالية، كما في تدخلاتها الجزئية الدقيقة وأيا تكن الأجهزة أو المؤسسات التي تعتمد عليها، تتصرف السلطة بشكل متماثل ومكثف (...). نجد شكل الخضوع العام عند الشخص الذي تكرهه السلطة سواء تعلق بالتابع ازاء الملك والمواطن ازاء الدولة والولد ازاء الأهل والتلميذ ازاء المعلم»³ .

¹: ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص 95.

²: المصدر نفسه، ص 95.

³: المصدر نفسه، ص 96.

تقوم السلطة هنا بعملين هما: المشرعة والمطيعا وفقا لهذه الجاهزية تحمل السلطة آليات وتقنيات موحدة ومتعددة التكاثف ومتكررة، تنتقل من الدولة إلى الأسرة ومن السلطان إلى الأب، ومن فضاء المحكمة إلى الحياة اليومية البسيطة.

ملخص:

ارتبطت الجنسانية بعدة مفاهيم كالمنع والرغبة، هذا راجع إلى تدخل السلطة في هذا الحقل الخصوصي، بل عمدت إلى فرص تقنيات تتحكم من خلالها في الفرد وفي جسده يكون دائما تحت الرقابة، يعاقب لو تعدى حدودها الصارمة، بالتالي تمكن فوكو من استنتاج تاريخ هذه العلاقة (السلطة والجنس)، فهو لا يهتم السلوك الجنسي ولا الطابع البيولوجي للجنس، بل البحث عن حقيقة الذات، تلك الحقيقة الخفية المهمشة و المقصية إن بحث فوكو في هذا المجال كان قصده الكشف عن جاهزية تاريخية "الجنسانية" التي شغلت مكانه في حيز الأركيولوجي-الجنالوجي وكيف لهذه الجاهزية أن تصبح موضوعا للبحث العلمي وللرقابية وعلم الديموغرافيا ومقرات الشرطة والقضاء .

أراد فوكو أن يجيب عن تلك التساؤلات المطروحة حول كيفية تشكل الذات الغربية انطلاقا من الجنس؟ فوجد ضالته من خلال تحليله لجملة العلاقات التي نسجها لسلطة كما هو معتاد فثم ادخال الجنس في عملياتها وخطاباتها العملية، مما يعني أن موضوع الجنس خضع إلى عدة ممارسات يمكن أن نقول إنها تاريخية كشد التوبة والاعتراف، إن هذه الجاهزية التاريخية تترابط فيما بينها في ظل تلك الاستراتيجيات المعرفية-السلطوية، من ثم تشكل شبكة علاقاتها (المعترف، المعترف له، السلطة). قام العصر الفكتوري بتغيير مسار "الجنس"، ليصبح في يد السلطة يتطلب إجراءات إدارية، يدخل ضمن شؤون الشرطة، كل هذه الاستراتيجيات لا تدخل فقط في التحريم والمنع وإنما التنظيم والمراقبة، فقد عدت مشكلة السكان قضية حساسة ضروري والزامي القيام بتقنيات وإجراءات لكي تتحكم في هذه المعضلة من حيث تنظيم الولادات وتحديد الزواج ونسبة الوفيات ونوع التغذية كما يطلق عليها (الحمية) Le régime، كلها تنطلق من أجل السياق الاقتصادي - السياسي.

سئل فوكو من قبل دريفوس ورايينوف، عن فلسفته، ماذا ستكتب بعد الانتهاء من

شرح تاريخ الجنسانية، أجاب الفيلسوف فوراً «سأهتم بذاتي...»

في حوار مع ميشال فوكو

المبحث الثاني: العودة إلى الذات في شكلها الأخلاقي والجمالي عند ميشال فوكو

اقتترنت السلطة الرعوية* لعدة عقود من الزمن بالمؤسسة الدينية، ولكنها وفجأة انفجرت في شتى بقاع الكيان الاجتماعي، قامت عدة مؤسسات التي بدورها تشكل شبكة العلاقات الاجتماعية كالعائلة والمدرسة والشرطة والإدارات والعيادات الطبية بدعمها للسلطة الرعوية.

اهتم فوكو بدراساته الجينيةالوجية المتعلقة بالسلطة وعلاقتها بالمعرفة والاقصاء والمراقبة والعقاب، كذلك حضور الذات في منظومات السلطة وخططها، مما دفع بالفيلسوف إلى دراسة نظام السلطة والمعرفة والجنس، من خلال كتابه "إرادة المعرفة"، هذا المشروع يعد بداية تحول مسار فوكو، يصاحبه الخوض في " تاريخ الجنسية"، يقول فوكو مقابلة له سنة 1981 « إن دراساتي حول الملجأ و السجن كنت قد بالغت كنت قد بالغت في التقنيات (...) و رغب في السنوات القادمة أن أقوم بدراسة علاقات السلطة انطلاقا من علاقات الأنا»¹.

قدم فوكو الكثير في حق السلطة وربطها بالمعرفة والمعاقبة والجنس «وضمن البحث في مفهوم السلطة يتجلى بعد الجسد بوصفه مجال صراع تقليدي للسلطة وكيف يتجلى هذا الصراع؟ وما موقع الجسد في تحديد إشكالية الجنس عند فوكو والتي تمثل البعد الأخلاقي»².

*: السلطة الرعوية Power Pastoral التي نشأت وترعرعت داخل منظومة التقاليد و المؤسسات المسيحية القديمة، على اعتبار أن الديانة المسيحية هي الوحيدة التي انتظمت في شكل بيئة كنيسة بما يترتب عن ذلك من تراتبية اجتماعية جديدة تضع مقاييس جديدة لتصنيف الناس و النظر اليهم حسب مواصفاتهم و خاصة الدينية منها

¹ :London keiew of books, 21 mai-3 jun 1981 in marquior, Nihilisme la chair,P 141.

² : عمر مهيبيل، اشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ص 267.

أجريت مقابل في أواخر 1984 بين وميشال فوكو، هذا كان قبل رحيله بأيام قليلة، دارت حيثيات الحوار حول قلق فوكو الفلسفي خصوصاً المتعلقة بإشكاليات الأخلاق. إذ كانت أواخر السبعينات قد اتجه فيها فوكو إلى دراسة السلطة وعلاقتها بالمعرفة والجنس من خلال بنيتها الخفية. فإن كتبه الأخيرة مختلفة جداً عما اعتدنا عليه، خاصة مع كتابه "تاريخ الجنسية"، بجزأيه " استعمال الذات" و " الانهماج بالذات". كان هذا الكتاب هو عودة إلى الأخلاق أو بمعنى أدق عودة إلى الذات يقول فوكو مجيباً عن سؤال طرح عليه في المقابلة التي ذكرناها سابقاً «ألم تصبح خلال تخليك عن أسلوب مجددا الفيلسوف الذي لم تكن عليه من قبل» يجيب فوكو «على افتراض - أنا أوافق القدر - اعتمدت في الكلمات والأشياء، تاريخ الجنون وحتى في المراقبة والمعاقبة دراسة فلسفية قائمة في الأساس على نوع من استخدام المفردات والأداء والتجربة الفلسفية التي انغمست فيها تماماً، بالتأكيد أنا أحاول التخلي عن هذا الشكل من الفلسفة. وهذا جيد كي أستفيد من التخطيط والتنظيم كحقل تجارب للدراسة، حيث أن هذه المرحلة التي يمكن في عيون البعض أن تعد لا فلسفة جذرية، هي في الوقت نفسه بأصولية أكبر بالتجربة الفلسفية»¹.

حدد فوكو مشكلاته الفلسفية في ثلاثة أبعاد أو أنماط: بعد يبحث فيه عن الحقيقة وبعد قرأ السلطة من ثلاثة مستويات (علاقتها بالمعرفة، والجنس، والمراقبة والانضباط)، أما البعد الثالث: عبارة عن عودة الذات والانهام بها من خلال القواعد التي تحدد المسموح والممنوع للفعل الأخلاقي كذلك دراسة الأفعال والسلوكيات والمعاملات الأخلاقية، أما المستوى الثالث والأخير هو علاقة الإنسان بالذات. يقول فوكو: «لقد حاولت أن أعين ثلاثة أنواع كبرى من المشاكل: مشاكل الحقيقة، مشاكل السلطة، مشاكل السلوك الفردي، إن هذه المجالات الثلاث للتجربة لا يمكن أن تفهم إلا في علاقة بعضها ببعض

¹: اندريد سكال، جيل باريدات، (عودة الأخلاق كسؤال فلسفي ما بعد حديثي)، مجلة الاستغراب، العدد 04، 2016، ص 15.

وليس في انفصالها إن ما أزعجني هو كتاباتي السابقة، هو اهتمامي بالتجربتين الأوليتين دون أن أعير الثالث اهتماماً، لقد بدالي، بإظهاري للتجربة الثالثة وجود نوع من الخط المستقيم والذي لم يكن في حاجة إلى أن يتبرأ باللجوء إلى طرق بلاغية دقيقة و التي من خلالها نتجنب أحد هذه المجالات الثلاثية الأساسية للتجربة»¹.

قام فوكو من خلال النص السابق بربط مشكلة المعرفة بالسلطة، والتجربة الفردية بحيث لا يمكن الفصل بينهم، إلا أنه صرح بإهماله بالمشكلة الأخلاقية، أو أنه قد غفل عن السلوك الفردي، إن فوكو هنا يتجه نحو حقل جديد ليحاول فهم كيفية تحول تلك السلوكيات إلى موضوع للمعرفة، تعتبر صياغة جديدة حول كيفية تشكل الذات «إنه البحث في أشكال التدويت»².

انتقل فوكو من مشكلة المعرفة إلى كيف تقام السلطة بألوانها المختلفة، وصولاً إلى مشكلة الفرد من خلال تشكيله وعلاقاته بذاته. يعد الجزء الأخير من كتاب " تاريخ الجنسانية" شكلاً جديداً يقدم فيه فوكو القواعد الأخلاقية والجمالية، قصد فهم السلوك من ثم الوصول إلى حقيقة " علاقة الفرد مع ذاته، من خلال تخلصه من القيود التي يفرضها المجتمع المؤسساتي الذي يُعد سقفاً حديدياً، يحد من حرية الفرد ويقصدها بشتى مظاهر الإكراه والتهميش والاحتقار، إنها اللحظة التي يلتقي فيها الإنسان مع ذاته. كانت بدايات فوكو الأولى مع محاولات الكشف عن مواضيع وقضايا قد همشت كالجنون والمرض؛ إنها المناطق المظلمة تشمل كل مظاهر القهر والاضطهاد والإقصاء كل هذه التابوهات شكلت حقل معرفي عند فوكو، كأنها مغامرة خاضها ليفضح هذه الأرضية، لكن ما يثير الدهشة، كتبه الأخيرة، المختلفة عما ألفناه، كأنها العودة إلى الذات، التي أعلن ذات مرة

¹: ميشال فوكو، الانهزام بالذات، "جمالية الوجود وجرأة قول الحقيقة"، تر: محمد ازويطة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2015، ص 05.

²: المصدر نفسه، ص 06.

عن موتها وأقولها. إن نصوص فوكو الأخيرة عبارة عن نهوض لأفق جديد، مختلف، لكن هذا ليس بالجديد، فنحن اعتدنا على التغيير، في الألوان الفلسفية الفوكوية؛ من البحث عن المعرفة وامكانية وجودها إلى السلطة وعلاقتها، إلى العودة إلى الذات والانهام بها.

يقول فوكو: « مشكلتي اليوم هي أن أصنع ذاتي «Faire Moi-Même»¹.

إن فلسفة فوكو، هي انطولوجيا الحاضر، فلسفة اليومي، إنها الراهن وما يحدث « إن فلسفة فوكو، هي فلسفة الاهتمام باليومي من خلال الحفر في ثنايا الواقع بكل تلبساته و هامشياته والولوج إلى صميمه و محاولة تفكيكه بما هو تفكك " موضوعي خالص"، إذ يفسر هذا التفكيك حسب فوكو بأنه « موضوعي خالص، بمعنى أنه لا يعني تفكيك جزء من الكل الذي يشمل الواقعية الاجتماعية في لحظة تاريخية معينة، بل هو تفكيك موضوعي خالص للفضاء الاجتماعي»².

تُعدُّ محاولات فوكو، قراءة حاسمة في تاريخ الفكر الفلسفي خاصة الغربي منه أظهر من خلال التنقيب والحفر وجوه عدّة؛ معرفية منها واجتماعية و أخلاقية، إن هدف فوكو دائماً هو إعادة التفكير من جديد، بُغية الوصول إلى الكيفية التي يطرح بها الناس مشاكلهم.

إن المنعرج الذي سلكه فوكو، هو بمثابة الانتقال من الطرح الموضوعي لمشكلة المعرفة والسلطة وعلاقتها البرانية سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو تاريخية إلى الأفق السلوكي للفوز بالذات والانهام بها، لكن هذا الانتقال لم يحدث فجأة؛ بل كان الهم الفوكوي منذ بداية مساره الفكري «... ومنذ «تاريخ الجنون " و "مولد العيادة"، وصولاً إلى

¹ : Michelle Foucault, Entretien Avec duccio Tombato, n°04, 1980, Paris, P28.

²: حسين موسى، الفرد والمجتمع عند ميشال فوكو، دار التنوير، بيروت، لبنان 2009، ص 06.

"لكلمات و الأشياء" و "المراقبة و المعاقبة" كان محور تفكيره هو التحفير العميق الشامل عما يقع الذات من تقنيات الخارج الذي يمنع ولوج الذات كداخل إليه، وصولاً في النتيجة إلى اكتشاف النقلة المختلفة إلى تشكلها تقنيات الذات إزاء ذاتها ليس بمعزل عن هذا الخارج بنفسه، ولكن في صميمه، وفي طريقة اختراقه، وجعله يقبل كذلك بخارجيتها المختلفة وسط خصمه¹.

قدم فوكو من خلال سياق هذا النص دراسات حول الجنون والطب السريري، فقام بتحليل الملفوظات، ثم حفر في حقل السلطة وربطها بالمعرفة و الجنس لممارسات الذات، يقول فوكو: «بعد دراسة ألعيب الحقيقة من حيث علاقتها ببعضها البعض من خلال مثال عدد من العلوم التجريبية في القرن السابع عشر والثامن عشر ثم ألعيب الحقيقة من حيث ارتباطها بعلاقات السلطة، حيث مثل الممارسات العقوبية، بد أن هناك عمل لا بد من القيام به هو دراسة ألعيب الحقيقة من حيث علاقة الذات بالذات وتشكل الذات نفسها كذات، باعتماد ما يمكن أن نسميه تاريخ إنسان الرغبة كمجال مرجعي و حقل بحث²» أراد فوكو من خلال حفره في حقل الذات، أن يكشف كيفية تشكلها من خلال «أنماط أشكال السلوك البشري»³. كانت محاولات فوكو هو البحث في أشكال التذوت و كيفية صناعتها من خلال العودة إلى الحقبة اليونانية، ثم الخوض في الثقافة المسيحية وصولاً إلى المجتمعات الأوروبية الحديثة ليُعيد إحياء نظريات قديمة يقول فوكو: «(...) منذ القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثاني الميلادي، تخطى الناس شيئاً فشيئاً عن التساؤلات حول الحقيقة وحول السلطة السياسية، تساءلوا عن القضايا الأخلاقية. في الواقع من سقراط إلى أرسطو شكل التفكير الفلسفي الإطار النظري المعرفة والسياسة

¹: ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص 07.

²: سيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة، لدى ميشال فوكو، ص 209.

³: المرجع نفسه، ص 209.

والسلوك الفردي ومن ثم تراجع النظرية السياسية، لأن المدينة القديمة اختفت واستبدلت بممالك خلفت الاسكندر¹.

إن ما يثير انتباهنا هو عودة فوكو إلى الحقيقة اليونانية، فما هو الدفاع الذي جعله يسلط الضوء على هذه الفترة بالذات؟ وبماذا تميزت هذه الحقبة عن باقي العصور الأخرى؟ يقول فوكو: «إن ما يذهلني هو أن الناس في أخلاق اليونان، كانوا يهتمون بتصرفاتهم الأخلاقية، بأدبياتهم، بعلاقاتهم مع الذات والآخرين أكثر بكثير من اهتمامهم بمسائل دينية»² كانت الفلسفة عند اليونان القدامى بمثابة، فن العيش أو صناعة للذات وتشكلها فلم تكن نظريات مسطرة و مقننة بقدر ما كانت طريقة لدخول الحياة حيث اهتمت الفلسفات القديمة (الأبيقورية، الفيثاغورية، الرواقية...) بتقديم دروس ونظريات تجسد فيهم نمط العيش للانهمام بالذات. يقول فوكو في هذا الصدد: «... فقد جعل الأبيقوريين من الفلسفة تمرينا دائم الاهتمام بالذات، معتبرين فعل التفلسف ضمانا لصحة الروح»³.

1. العودة إلى اليونان (الاهتمام بالذات في الثقافة القديمة):

في هذه الفترة كان اعتناق الفلسفة بمثابة اعتناق الدين، باعتبار هذا العلم هو تنظيم الوجود وتنقية الذات روحانيا، فإن ما يميز هذه الحقبة حسب فوكو هو «كثافة اهتمام الفرد بذاته، أي أنه يتوجه بالعناية ليس إلى الموضوعات الخارجية ليتخذ منها موضوعاً للمعرفة إنما أن يتوجه إلى ذاته»⁴.

¹: أندرية سكالو، جيل باريدات، عودة الاخلاق كسؤال فلسفي ما بعد حداثي، ص 17.

²: دريفوس ورايينوف، ميشال فوكو، مسيرة فلسفية، ص 202.

³: ميشال فوكو، الانهمام بالذات، ص 10.

⁴: حسين موسى، الفرد والمجتمع لدى فوكو، ص 20.

كانت الدعوة السقراطية " اعرف نفسك بنفسك" هو الاهتمام بالنفس دون إهمالها فقيه سقراط هو إقناع الناس بأن لا يولعوا أبا لجسد ونزواته «إن الفكر القديم وبشكل خاص اليوناني أدان الجسد وأعتبره مما هو مدنس، هو ما نتبينه من خلال فلسفة أفلاطون الذي أعطى للجسد الكثير من الأسماء وهذه الأسماء تدين مثل: القبر، السجن، العاق، فالجسد هو قبل النفس وسجنها وهو العائق أمام المعرفة»¹.

إن المبدأ السقراطي المعروف ذو أهمية بالغة عند كل من أفلاطون و أبيقور، يعد جوهر الحياة المستقرة الفاعلة «...أفلاطون هو شخص أقل ما يمكننا القول عنه أنه لم ينم عن اهتمام بالذات كممارسة مكتوبة، كالاهتمام بالذاكرة أو الاهتمام بإعادة كتابة الذات انطلاقاً من الذكريات إن كان قد كنت إلى حد كبير حول عدد من المشاكل السياسية والأخلاقية والميتافيزيقية، نصوصاً تبدو محدودة نسبياً وتدل في النقاش الافلاطوني، على العلاقة بالذات ولدى أرسطو أيضاً»².

شكل السلوك الجنسي في الحقبة اليونانية (أفلاطون و أرسطو و سيناك)، موضوع اهتمام أخلاقي، هذا ما دفع فوكو إلى التفقيش في ثنايا الحضارة اليونانية ليجيب عن التساؤل «هل من الممكن أن تتحقق في ذات الإنسان و لذاته و بذاته؟ وهل من الممكن نقل هذا السؤال من "الميتافيزيقي - جينياالوجي" و "الميتافيزيقي الانطولوجي" إلى "الابستيمولوجي - جينياالوجي" و "الابستيمولوجي- الانطولوجي" الحيز ممكن التطبيق في التجربة المعاشة في الواقع المحسوس»³.

¹: حسين موسى، الفرد والمجتمع لدى فوكو، ص 25.

²: المرجع نفسه، ص 25.

³: محمد عودة السبتي، ميشال فوكو والتزهد الجنسي، جماليات فن العيش، مجلة العلوم الإنسانية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ص 243.

قبل عرض عودة فوكو إلى الحقبة اليونانية لابد أولاً الإشارة إلى مفهوم للرغبة، كذلك القانون الأخلاقي، يعرف فوكو هذا الأخير يقول «هو الذي يدرس إلى أي مدى تتطابق أفعال فئة من الأفراد والمجتمعات، أم مع القواعد والقيم المقترحة من مختلف المراتب وتاريخ القوانين أو المدونات القانونية، هو الذي يحلل مختلف أنظمة القواعد والقيم سارية المفعول في جماعة معينة أو أجهزة الإكراه التي تروج لها والأشكال التي تتخذها تعددها وتبايناً لها وتناقضاتها»¹.

إذا كان القانون الأخلاقي يدرس تطابق سلوكيات الأفراد و أفعالهم وفقاً لما نصت عليه القوانين و القيم و الأنظمة، يعني مصدر القانون هو المشرع أو رجل القانون فكيف كان اليونان يحولون أنفسهم كفلاسفة و أطباء كموضوع أخلاقي، من خلال محاربة الغرائز و الرغبات، فالرغبة هي «رغبة في الشيء المستحب و لا يمكن أن يكون هناك رغبة بلا حرمان، دون فقدان الشيء المشتهي أو المرغوب به بدون امتزاج بشيء من المعلنات لكنه لا يمكن أن تكون هناك إثارة الرغبة إلا بواسطة عرض الشيء الذي تلذ صورته أو ذكره»². كانت نصوص "أرسطو" "وزينون الإيلي"، و"مارك أوريل"، تقرر بوجود مشكلة أخلاقية من خلال التصرفات الجنسية والرغبات والزهد والتعفف.

«يشير فوكو إلى صعوبة إيجاد مفهوم مماثل للجنسانية عند اليونان واللاتينيين على السواء، مع أنهم استعملوا كلمات عديدة للتدليل على مختلف التصرفات الجنسية و لعل المفردة التي تتدرج ضمن جميع هذه التصرفات هي مفرد الافروديزيات» (Aphrodisies)، التي يمكن ترجمتها إلى الفرنسية بلذات أو متع الحب (Plaisirs de l'amour) و بالنظر إلى صعوبة مطابقة مصطلح الجنسية، لمختلف التصرفات الجنسية اليونانية والرومانية، استعمل فوكو كلمة " الافروديزيات" التي تضمن «الموضوعات الأخلاقية

¹: ميشال فوكو، استعمال اللذات، ج2، تر: جورج صالح، مركز الانماء القومي، د.ط، د.س، ص 23.

²: المصدر نفسه، ص 34.

الأربعة المشار إليها (الزواج، الجسد، الغلمان، الحب أو الحكمة) مع إظهار السمات العامة لها»¹.

كان الفلاسفة الأخلاقيون في الحقبة اليونانية، يدعون إلى التأمل من خلال التحكم في الرغبات، فعلى المرء أن يحكم نفسه بنفسه، بالضبط والاعتدال والتحفظ فيكون الفرد حرًا أمام رغباته ونزواته، لا يتقيد بها ولا ينصاع لها أما العبد هو الذي يعجز أمام التحكم في أهوائه ويتم ذلك عن طريق « الاحترام الدقيق للمحظورات » والواجبات في الأفعال نفسها التي نقوم بها، كذلك السيطرة على الرغبات وفي المعركة الضارية التي نسنها ضدها، ثم من خلال قوة مقاومتنا للإغراءات»² ارتبط مفهوم الذات الأخلاقية عند اليونان من خلال علاقته بذاته أو بغيره، إن تلك الذات مشروطة بالمعرفة أي أن هناك تطابق بين الذات الأخلاقية والذات العارفة، يعني تطبيق قانون لا إفراط و لا تفريط «فالمعتدل كما يقول أرسطو لا يرغب إلا بما يقضي به العقل السليم»³.

إن الاعتدال يفرض أو يتشترط، أن يكون العقل هو القانون الأسمى في نمط العيش، فلا يمكن ضبط النفس دون معرفة أن الاعتدال هو جمالية الوجود، إن المقصود بجمالية الوجود ليس قانون مشرع ولا سلم لقيمة أخلاقية محددة، إنه "فن العيش"، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالجمال أكثر منه الأخلاق من خلاله وصول الفرد أو الذات إلى حقيقتها من جهة وإلى حقيقة العالم من جهة أخرى، كانت جمالية الوجود في الفكر اليوناني هي السمة البارزة في التجربة الحياتية، حيث ارتبطت بجملة من المبادئ والتمارين والممارسات في مجالات الطب، الشيخوخة، الموت.

¹: الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 295.

²: محمد عودة السبتي، ميشال فوكو والتزهيد الجنسي... جماليات العيش، ص 244.

³: المرجع السابق، ص 298.

أولاً: العلاقة مع الطب:

« يمكن القول بأن الممارسات المرتبطة بالذات والانهمام بها، قد تفاعلت مع الطب بصيغ مختلفة وخاصة مع الدور الجديد الذي أصبحت تلعبه تلك الممارسة وذلك الانهمام يقول "موزينوس" إننا نستدعي الفلسفة كما نستدعي الطب في حالة المرض، ذلك أن ما تقوم به الفلسفة لصالح الروح هو نفسه ما يقوم به الطب لصالح الجسد»¹. إن العلاقة بين الفلسفة والطب، تأخذ شكل التكامل إلى نفس الفضاء، هذا يعبر على نمط العيش في الفترة اليونانية. إن كلا من الفلسفة والطب يقومان بالوظيفة نفسها اتجاه شفاء الروح والعناية بالنفس.

ثانياً: العلاقة مع الشيخوخة:

يقول فوكو: «إن الشيخوخة هي الحكمة لكنها هي أيضا الضعف، الشيخوخة هي التجربة المكتسبة و لكنها أيضا عدم القدرة على أن يكون الإنسان نشيط سواء في حياته العادية أو السياسية (...). إن الشيخوخة في الثقافة اليونانية القديمة هي جديرة بالتقدير والاحترام ولكنها غير مرغوب فيها (...). غير أنه ومنذ اللحظة التي أخذ فيها الانهمام بالذات كل أبعاده وآثاره أصبحت الشيخوخة هي المرحلة الأعلى والأهم في الاهتمام بالذات والعناية بها»².

إن الحكمة من التعامل مع الشيخوخة هي تجربة سابقة نتعلم منها، نأخذ منها المفيد و الصحيح، إنها المسكن الآمن، فالنقطة المهمة في هذه العلاقة «أن يعيش الفرد حياته كما لو أنها انتهت»³.

¹: ميشال فوكو، الانهمام بالذات، ص 14.

²: المصدر نفسه، ص 16.

³: المصدر نفسه، ص 16.

ثالثا: العلاقة مع الموت:

« يتعلق الأمر هنا بمجموعة من التمارين التي تجري في حيز الواقع والتي تشكل في أساسها تدريبات على التجلد والتكشف والتمارين التي تشكل تدريبات في الفكر وعن طريق الفكر»¹. إن هذه العلاقة أو التجربة تجعل من الموت واقعا معاشا، ليقنتع الناس إنها ليست شرا، و من الضروري التأمل في الموت، «إنها اللحظة التي يمكن للمرء أن يكون حكم نفسه، كما يمكن أن يقدر التطور الأخلاقي الذي تقدر حتى آخر يوم في حياته»².

◆ النظام الأخلاقي:

الحمية: ذكرنا سابقا في التقنيات السلطوية الممارسة لرقابة الجنس موضوع الحمية، هذا النظام الغذائي الذي يخص به مجال الإنجاب، كان الحكماء والأطباء يوصون بمثل هذه التقنية أو بالأحرى النظام الأخلاقي خلال الحقبة الإغريقية، حيث يرى اليونانيون « أن الجنس و بالتدقيق الفعل الجنسي ليس شرا في ذاته، إنما يشكل تهديدا لعلاقة الفرد مع نفسه وتشكله بوصفه ذاتا أخلاقية، وإذا لم يتم الفعل الجنسي بشكل معتدل وموزع بطريقة سليمة، فإن نتائجه السلبية ستصيب الوجود الإنساني»³.

لم يحاول الإغريق حصر الفعل الجنسي، من خلال وضع نظام كالحمية، إنما قام بوضع مجموعة من القواعد (أغذية، تمرينات، رياضة، ممارسة جنسية) تقوم بتحقيق اعتدال للوجود أو عبارة عن فن العيش، على الفرد أن يحترم هذه القواعد من أجل الوصول إلى ممارسة منتظمة وصحية وعاقلة «... لكن على الرغم من إدراك الفكر

¹: ميشال فوكو، الانهماج بالذات، ص 17.

²: المصدر نفسه، ص 17.

³: الزواوي بغورة، الخطاب بحيث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 300.

اليوناني لهذه الحقيقة إلا أنه لم يحاول تقييد الفعل الجنسي و إنما اهتم بالاستعمال وبتقنية العيش عمادها الاعتدال والسيادة وضبط النفس»¹.

كان "أفلاطون" في كتاب القوانين، يلح على ضرورة أن يظل حاضرا في ذهن الزوجين «أنهما مطالبان بإعطاء المدينة الأطفال الأجمل والأفضل»².

♦ الزواج: تميزت الحقبة اليونانية بكثافة اهتمام الفرد بذاته وحرص الحكماء والفلاسفة والأطباء على ذلك، لتطهير النفس وتركيتها لكن هذا ليس بموجب ديني أو بوازع إلهي بل هذا الحرص هو عبارة عن فن العيش في حياة مستقرة عاقلة، فاهتمام الفرد بذاته حسب مقولة سقراط "اعرف نفسك بنفسك" هي ذات الوقت هم جماعي، يعني اهتمام مزدوج بين النفس و ذاتها وبين النفس و المجتمع، فبالتالي كان الزواج، هو نظام أخلاقي، شرعي يحافظ على الفرد والمجتمع في آن واحد، لكن يذكر لنا فوكو نقطة مهمة، هي «حصر الزواج في الإنجاب ورعاية الأسرة، أما اللذة فتتحقق خارج مؤسسة الزواج»³. يعني أن «لدينا المؤسسات للذة والخليلات للاهتمامات اليومية و الزوجات لينجبن خلفا شرعيا و تكن حارسات أمينات للأسرة»⁴.

لكننا نلاحظ مفارقة في مثل هذا النظام "الزواج" و كأن الزوجة ملزمة بالممارسة الجنسية الشرعية مقارنة مع الزوج، فهي تعاقب في حالة الخيانة أو الزنا، «أما الزوج فإنه غير ملزم إلا ببعض الواجبات وله الحرية في عدم التقيد بالعلاقة الزوجية»⁵. لأنه توجد الخلية والموسم، كأن الإخلاص من طرف الزوجة فقط، لا وجود لإخلاص متبادل، في هذه النقطة المهمة سوف تختلف الحقبة اليونانية مع المسيحية.

¹: الزواوي بغورة، الخطاب بحيث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 300.

²: حسين موسى، الفرد والمجتمع، ص 11.

³: المرجع نفسه، ص 301.

⁴: المرجع نفسه، ص 300.

⁵: المرجع السابق، ص 301.

• الشبق: لم تقتصر اللذة فقط مع الموسم ولا الخلية، بل يمكن للرجل كذلك أن يستمتع بالغلام، فإذا كان الزواج ينحصر فقط من أجل الإنجاب والحفاظ على الخلف الشرعي كذلك إدارة الأسرة و الاهتمام بالأطفال إلا أن التاريخ اليوناني شهد مثل هذه الظاهرة لكن مع التحول الذي طرأ في نظام الزواج كارتباط بقيم الحب والمودة و التكامل في الواجبات هذا ما أشار إليه فوكو « الانتقال من مسألة السلوك العشقي إلى التساؤل حول كينونة الحب فأصبح سؤال الحب، سؤال يتناول ماهيته وطبيعته أو أنطولوجيته»¹.

كان الاهتمام بالذات في العصر اليوناني، بمثابة الحقبة الذهبية لموضوع العناية بالنفس والحفاظ على المجتمع، هذا ما مثلته فلسفات ذلك العصر من حكمة سقراطيه و أفلاطونية كذلك مدارس الابيقوريين، و الرواقيين، ارتبط الاهتمام بالذات ارتباطا وثيقا بالطب والفلسفة يقول "إبيكتيت": «إن مدرسة الفيلسوف هي غرفة طبية وعندما يخرج المرء منها يجب أن لا يكون قد استمتع بل تألم»² أدى الاهتمام بالذات إلى فكرة مفادها أن اللذة الطبيعية هي زائلة وناقصة لأنها متعلقة بجزء من الطبيعة فقط وليس الإرادة الصالحة والكلية، « فلم يتم النظر إلى السلوك الجنسي كبرهان أخلاقي من حيث المحظورات والممنوعات أو المسموحات ولم يكن التفكير في السلوك الجنسي كميدان أخلاقي، طريقة لاستنباط المحظورات بل إمكانية لإعداد جمالية للحياة و أسلوب للعيش وفن للوجود»³ ما نستخلصه، هو أن أكثر ما شغل فوكو في دراسته للحقبة اليونانية الرومانية هو الكيفية لتكون فن العيش وأسلوب الحياة الجمالية، من خلال تحوّل المادة الفلسفية والمعرفية إلى أرض الواقع، لتصنع أثراً فنياً من خلال قاعدتي " الاعتدال " – "التحكم" في الذات بتحقيق البعد الجمالي لحياة الفرد والجماعة .

¹: الزواوي بغورة، الخطاب بحيث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص302.

²: المرجع نفسه، ص305.

³: المرجع نفسه، ص 309

2. الانهماج بالذات بين العصور القديمة والمسيحية:

إذا كانت المبادئ اليونانية قد قدمت مجموعة من القواعد والممارسات تحافظ النفس من خلالها على الالتزام الأخلاقي من خلال الاعتدال وضبط النفس و كبح الأهواء والرغبات كذلك مدى تأثيرها في تحول مسار السلوك الفردي وحتى الجماعي، فإن التعاليم المسيحية بدورها تحمل جملة من القيم والعقائد التي توجه الفرد و تهتم به سواء كان من حيث علاقته بنفسه أو بالجماعة. ففيما تتمثل هذه القيم والتعاليم التي ترفض سجن الشهوات وتدعو إلى التزهد؟ و ماهي القواعد والأنظمة التي ينص عليها الفكر المسيحي في توجيه سلوك الفرد نحو ذاته ونحو الآخرين؟ « لقد ابتكرت المسيحية صيغة جديدة في إطار تشكيل علاقة الفرد بذاته وبالأخرين هذه الصيغة الجديدة تستند إلى ما تقتضيه تعاليم ومبادئ هذه الأخلاق التي تنظر إلى النفس البشرية نظرة حذر واحتياط ولهذا لا نجد حربا في أن تكون مبادئ الأخلاق المسيحية صبة حول توجيه لسلوك الفرد نحو غايات اجتماعية من خلال الحد من كبرياء النفس والبحث المتواصل على استنهاضها حتى لا تقع في الأخطاء»¹.

يختلف الانهماج بالذات عند اليونان والرومان عما تنص عليه التجربة المسيحية خاصة مع فكرة الخلاص، هذه هي الصيغة الجديدة، فإذا كانت عند اليونان فكرة الموت تجعل منها واقعا ليقتنع الناس أنها ليست شرا ومن الضروري التأمل في الموت، هذا ما نجده في رسائل "سينيك" الذي يقول: « لنسرع نحو الشيخوخة لنعجل نحو النهاية التي ستمكننا من اللحاق بذواتنا»² ، فإن التزهد المسيحي يؤمن بفكر الخلاص الآخروي

¹: حسين موسى، الفرد والمجتمع عند ميشال فوكو، ص 50.

²: ميشال فوكو، الاهتمام بالذات، ص 18.

« الذي يمثل الحركة التي توجه الوجود إلى النقطة التي لا يكون أي شيء أمامها غير إمكانية الموت»¹.

اقتبس التصور المسيحي عدة نقاط من مجموعة قواعد النظام اليوناني بالذات خاصة إزاء قلق العلاقات الجنسية، لذا يمكن اعتمادها كمدخل أساسي للأخلاق المسيحية، رغم ما لهذا التحول من أسباب سياسية و اجتماعية إلا أن الأساسي في نظر فوكو « زيادة لا قيمة الزهد الجنسي في التفكير الأخلاقي لا تأخذ شكل تطبيق القانون الذي يحدد الأفعال الممنوعة، بل شكل و تقنية العلاقات مع الذات التي بواسطتها يتكون المرء كأفعاله»².

قدم فوكو خلال السنوات الأخيرة اهتماما خاصا بمشكلة الذات، هذا ما دفعه للحفر والتنقيب والعودة إلى الفترة المسيحية، لأن هذه المرحلة شهدت انتقال وتطور في المؤسسات الرهبانية، إن ما يثير اهتمام فوكو في هذه المرحلة الانتقالية من العصور القديمة إلى غاية التجربة المسيحية هو فكرة الاعتراف ومن خلال تحليله الجينيولوجي قاده إلى البحث والتساؤل حول خصوصية نمط عيش المسيحيين من خلال قول الحقيقة والاعتراف بالخطايا.

« إن الاعتراف* هو القول الذي يصدر عن الموجه وعلى اعتبار أن عليه أن ينتج خطايا حقيقيا حول ذاته، موجهها إلى الآخر (المرشد أو المعترف إليه) على الموجه أن يتخذ من نفسه مرجعا لخطاب حقيقي وأن يكشف للآخر الذي يظل أساسا صامتا ما يملكه من رغبات وأفكار»³.

¹: ميشال فوكو، الاهتمام بالذات، ص 18.

²: الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 304.

*: الاعتراف: كلمة إغريقية. exomologese تترجم لاتنيا كذلك confession .

³: المصدر السابق، ص ص 94-95.

إن المقصود من قول الحقيقة هو التصريح من طرف المعترف بكل خصوصياته خاصة المتعلقة برغباته ونزواته وخطاياها، إن فكرة الاعتراف هي شهادة من قبل الموجه ضرورية لمعتق المسيحية، يعني أنها التزامات وليست مجرد معتقدات من خلال « قبول السلطة التي تمنحها الشرعية وبالمجاهرة لها علنيا عند الاقتضاء والامثال لها»¹.

ينال المعترف الصفح بصفة مباشرة من قبل المرشد أو المعترف إليه، ليكفر عن ذنبه بالبوح بذنوبه، مع هذه العملية يمكننا القول أنها نقطة مفصلية في تاريخ الذات أخلاقيا إنه شكل من الخضوع والطاعة، إنه نمط جديد تكشف فيه الذات عما تخفيه من خبايا لتطهر جسدنا ونفسها، تطمح فيها الذات لبلوغ الكمال الأخلاقي، يقول فوكو: « ترتبط معرفة النفس ومعرفة الحقيقة في المسيحية، كما نجدها في نص الوحي وأن معرفة النفس هذه قد تطورت وبالتالي عليها أن تتطهر وعلى القلب أن يتطهر حتى يفهم الكلمة، وأنه لا يمكن أن يتطهر إلا بمعرفة النفس وأنه يجب أن تكون الكلمة قد استقبلت حتى يمكن الشروع في تطهير القلب وبالتالي الشروع في معرفة النفس، إنها علاقة دائرية في المحصلة بين المعرفة للنفس ومعرفة الحقيقة والاهتمام بالنفس»².

إن " الاستماتة " هي هدف المسيحية لبلوغ النفس إلى الكمال الأخلاقي، لكن الاستماتة هنا ليس الموت، بل التخلي عن كل لذات الحياة الدنيا، إنه موت يطمح للعالم الآخر، تصل النفس فيها إلى المعرفة الحقيقية، من خلال العودة إلى النفس لكن هذا يتم إلا عن طريق " نكران النفس "، تتأسس هذه العودة في المسيحية « على التخلص والتخلي وإنكار النفس بشكل أساسي وجوهري من خلال التضحية الدائمة من قبل النفس والخضوع لنسق من القواعد في الوقت ذاته، أصبح قول الحق يتحدد بالوحي أساسا وانطلاقا من

¹: دروس ميشال فوكو، 1970-1982، تر: محمد ميلاد، دار توفال للنشر الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994، ص 68.

²: ميشال فوكو، الاهتمام بالذات، جمالية الوجود وجرأة قول الحقيقة، ص ص 94-95.

النص المقدس ومن علاقة الذات بنفسها وقول الحق على ذات النفس أضحي عنصرا أساسيا لانتماء الفرد لجماعة معينة»¹.

تنص المسيحية يجب على كل إنسان التخلص من ذاته الجسد وشهواته يقوم الفرد لجملة من الممارسات والتمرينات ليكبح نفسه الشهوانية من ثم يحقق السيطرة عليها ويكسر قيودها، ليصل بذلك الخلاص من شروره « لهذا نجد أن من أهم التعاليم التي أرسنها هذه الديانة تتمثل في حث النفس ومساعدتها على تحقيق طهارتها وذلك بالتخلص إذا كان التصور اليوناني يطمح لبلوغ الاعتدال من خلال سيطرة النفس العاقلة وكبح النفس الشهوانية للتحكم في الذات، فإن المسيحية تذهب إلى نوع آخر من الاستقامة الجسدية، لا التحكم في الذات وهذه هي النقطة الفاصلة بين النمط اليوناني والتصور المسيحي، هذه الأخيرة التي أدت إلى حجب "جمالية الوجود" «فصار من اللازم على الأنا المسيحية هي أن تكون موضوع امتحان مستمر، لأنها كانت أنطولوجيا موسومة بالشهوة وغرائز الجسد وعلى أساس ذلك فالتعارض بين الوثنية والمسيحية لم يكن في الحقيقة بين التزمت والتسامح ولكن بين شكل من التزمت ارتبط بجمالية الوجود وأشكال أخرى من التزمت ارتبطت بضرورة التكفير عن الذات و تأويل حقيقتها الخاصة »².

3. الانهماج بالذات واللحظة الحديثة:

عمدت المسيحية على خلخلة أرض "انهماج الذات اليونانية" من خلال إدماج فكرة الخلاص والتزهد المسيحي، فإذا كانت اليونان يهذب بمقولة "اعرف نفسك بنفسك" بربطهم مشكلة المعرفة والحقيقة بمشكلة الذات، فأخذت صبغة جمالية للوجود أكثر منها أخلاقية، فإن التزهد المسيحي يأتي بجملة من الممارسات والتدريبات ليحقق الأخلاق ويهذبها عن

¹: ميشال فوكو، الانهماج بالذات، ص 163.

²: المصدر نفسه، ص 163.

طريق التزهد والاستماتة. إن الأخلاقيات اليونانية توجه النفس البشرية نحو الفضيلة والاعتدال مقابلها التعاليم المسيحية بتوجيه الفرد حسب حدود التي يرسمها المجتمع، لأن ما استنتجناه هو أن اليونان كان همه ضبط النفس وتنظيمها بدافع الحفاظ على الرجال وسلامتهم، « أما المسيحية كانت ترى في الرغبة الجنسية نوعاً من الغواية الشيطانية التي تتسلط على الجسد وتعمل على ضياع الإنسان وحرمانه من نعيم الآخرة، فعملت على العناية الفائقة بتنظيم وتقويم الأفعال من منطلق الحفاظ على طهارة الإنسان خاصة أثناء أداء الفرائض المقدسة»¹.

تميزت المسيحية بالصرامة لما ترى فيه من ضعف الإنسان أمام شهواته ونوازعها فخلقت نوعاً من الإذلال لإخضاع النفس للإرادة الإلهية، لكن الانهماج بالذات " في هذه الحقبة أخذ القسط الوافر حتى اللحظة الديكارتية بداية العصر الحديث، يشير فوكو والى نوع من الإقصاء والتهميش للذات، هذا التحول كانت بدايته مع كتاب " تأملات" للفيلسوف" من خلال فكرة البداهة والوضوح « إن الفرنسي رونييه ديكارت René Descartes مع المسار الشكي قد عمل على إقصاء مبدأ الانهماج بالذات من حقل التفكير الفلسفي المعاصر»².

يرى فوكو انغلاق وقصور في عملية المعرفة منذ اللحظة الديكارتية ، لأنه منذ هذه الوهلة أضحي التركيز على العقل وإنكار الجنون، ومما لا شك فيه هذا ما أثار استفزاز فوكو تجاه الفلسفة العقلانية الديكارتية، الذي يحمل فيها فوكو هنا ديكارت مسؤولية خلق التمرکز حول الذات، حيث حاول فوكو تدارك إهمال الجنون باعتباره حقيقة وفي المقابل "أنا أفكر إذا أنا موجود" « يضع فوكو " أنا أفكر في الآخر الذي يفكر بي أنا، فالعقل

¹: ميشال فوكو، الانهماج بالذات، ص 20.

²: المصدر نفسه، ص 20.

عند فوكو غير مبدع و حتى يمكن للأفراد أن يبدعوا لابد من الشعور بالجنون كبديل للعقل»¹.

في الحقيقة أخذ موضوع " الجنون " مع فوكو المقام الرفيع، ليقوض بذلك مقومات الفلسفة الديكارتية، التي بدورها خلفت نرجسية للعقل وهمشت في ذات الوقت الجنون الذي يمثل عند فوكو الحقيقة، الأنا عند ديكارت تشكل في حلقة الذات وداخلها أما مع فوكو فإنها خارج حدود نواتنا «إن الأنا الحقيقية هي ما نختبره في حالات الاضطراب النفسي والعقلي، حيث الشخصية هشة وممزقة لأن الانغلاق على الذات في حالة الجنون يعني الإمساك بالعالم الممزق السابق على توحد الطفل بالصورة فالإنسان بدون الآخر ليس لديه وعي بذاته وعليه فالوجود ليس بالكوجيطو الديكارتى " أنا أفكر أنا موجود " بل من خلال الآخر»².

إذا كانت الحكمة مع ديكارت هي العقل والفكر، مع فوكو أصبحت ظاهرة الجنون هي البديل، لأن الحقيقة ليست كما تظهر إنما هي ما يخفيه الإنسان من حالات ضعف وتهميش واغتراب، حسب فوكو « إن الذات لديها القدرة على الولوج إلى حقل المعرفة وأرض الحقيقة، لكن العكس غير ذلك فإن الحقيقة ليس لديها القدرة على إنقاذ الذات كأن ديكارت هنا حسب رؤية فوكو قام بفصل التصور الجمالي عن مشكلة الحقيقة، لأن الذات يمكنها أن تعرف الحقيقة في ذات الوقت تكون لا أخلاقية وهذا ما يتنافى مع الفلسفة الإغريقية التي سعت جاهدة إلى توثيق المعرفة والأخلاق، لأن اللاأخلاقى بالضرورة سوف يفتقد للروح المعرفة»³.

¹: ميشال فوكو، الانهمام بالذات، ص 21.

²: المصدر نفسه، ص 21.

³: حسام أبو حامد، (الذات بوصفها موضوعا جماليا)، صفحة ثالثة، منبر ثقافى عربى، 15 يونيو، 2020، ص 02.

« هنا يستدعي فوكو سقراط لمواجهة ديكارت وسقراط القائل « العلم فضيلة والجهل رذيلة فالتحولات الإغريقية التي يجب إجراؤها على الذات كي تصبح جديدة بأن تكون صادقة ليست لها أهمية عند ديكارت، وبينما لم يسأل الإغريق النص وإنما الذات التي تتلفظه، يجد التلفظ عند ديكارت أساسه داخل تجربة عقلية خاصة ببراهمة ذاتية، هنا تتعلق المعرفة على ذاتها فليست الحقيقة هنا أخلاقية جمالية بالمعنى الإغريقي للمصطلح حيث الممارسة الأخلاقية ترتبط بالتلفظ بالحقيقة»¹.

ملخص لأهم الأفكار الأخلاقية عند فوكو:

سعى فوكو من خلال الحفر الأركيولوجي - الجينيولوجي، التوغل داخل حقول جديدة أو بمعنى أدق طرح قراءة مميزة، استنتق من خلالها النسيج الاجتماعي بكل تلبساته من أجل الكشف عن تلك الشروط، إن ولع فوكو بالبحث في الأماكن المظلمة، دعانا إلى الترحال معه داخل الواقع المعاش، ضمن حقل الممارسات اليومي أراد فوكو أن يعود بنا إلى المجتمع اليوناني ليبين لنا كيف « أنصب انهماك الفرد بذاته ، واتخذها موضوعاً استيطيقيا في المجتمع اليوناني - الروماني من خلال أشكال العناية المتعلقة بذاته والموجهة لها »².

بناء على تحليل فوكو للانهمام بالذات عند اليونان ليتحول بدوره إلى موضوع استيطيقي، وصولاً إلى الحقبة المسيحية، حتى اللحظة الديكارتية، التي تعد نقطة فاصلة لتقضي بذلك موضوع الذات التي تحصرها في الجانب المعرفي - الفكري، يمكننا أن نستخلص جملة من النتائج التي توضح لنا أهم الأفكار الأخلاقية عند ميشال فوكو، نبدأ:

¹: حسام أبو حامد، (الذات بوصفها موضوعاً جمالياً)، ص 03.

²: حسين موسى، الفرد والمجتمع عند ميشال فوكو، ص 140.

أولاً: «يميز فوكو بين الأخلاق والسلوك ويهتم أكثر بالممارسات والتقنيات التي تستعملها الذات. وبذلك يكون فوكو قد طبق منهجه الأركيولوجي - الجينيالوجي الذي يتوجه إلى الطريقة التي يجب أن نكون بها أنفسنا بأنفسنا كذات أخلاقية فاعلة»¹. ما نشهده مع فوكو هو فلسفة اليومي، أنطولوجيا الحاضر بالتالي حتى الأخلاق بدورها، عنده عبارة عن جملة من التقنيات والتمرينات والتدريبات هذا ما دفعه بالعودة إلى اليونان لأن الحكمة من " اعرف نفسك بنفسك " كيفية تتكون فيها الذات تكون فاعلة داخل مجتمعا، كان الناس في هذه الفترة يهتمون بتصرفاتهم وسلوكياتهم الأخلاقية و كذلك أدبياتهم مع الآخرين، بصورة أعمق من اهتماماتهم بالمسائل الدينية.

ثانياً: « تربط الأخلاق اليونانية بمفهوم السلطة هو الحكم والحرية، وتخص قسما من السكان الذي يتكون من الراشدين الذكور والأحرار»². كانت الثقافة اليونانية تنص على وجوب سيطرة الفرد على ذاته، ليكون مواطناً صالحاً راشداً وحرّاً، تخص فئة معينة من المجتمع، تحمل الطابع الرجولي يضعها ويكتبها و يحكم في الفصل فيها رجال سواء كانوا فلاسفة أو سياسيين أو حكماء، أما النساء فدورهن الحفاظ على النسل.

ثالثاً: « الأخلاق عند فوكو، ممارسات تخص الذات وتشمل موضوعات أساسية متعلقة بالصحة وبالعلاقة مع المرأة وبالغلام وبالحقيقة ولقد تم النظر إلى هذه الموضوعات بوصفها ممارسات تخص الذات، لذلك تطلب الأمر دراستها بوصفها ممارسات الذات وتحديد مكانتها في المجتمع»³.

¹: الزواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، ص 308.

²: المرجع نفسه، ص 309.

³: المرجع نفسه، ص 309.

إن الانهماج بالذات والاهتمام بها مرتبط بالممارسات والتنظيمات التي تحقق شروط " الاعتدال " من هنا انبثقت فكرة جماليات الوجود، ومما لا شك فيه أن مثل هذه التقنيات تساهم في كسر هيمنة الأصل الميتافيزيقي لأن الذات التي سلبت وهمشت هي المنطقة التي علينا أن نطبق فيها قيمنا الجمالية إنها حياتنا اليومية، حاضرنا، وحقيقتنا.

المبحث الثالث: قراءات نقدية غربية وأخرى عربية

استطاع فوكو أن يُشيد مشروعاً فلسفياً متنوعاً ومتكاملاً، تتراوح قراءاته بين نظرية المعرفة والسياسة والأخلاق، لم يكتفي بالتنظير فقط، أو الخوض في القضايا الهامشية واستنطاق الأرشيف بل كان الواقع المعاش والحياة اليومية مبلغه الفلسفي والثقافي، كانت الذات والانهمام بها، محطته الأخيرة، وكان اهتمامه بتلك الفئات المنسية والمقهورة والمنبوذة تأخذ الشكل الحماسي.

أثارت كتابات ميشال فوكو ردود فعل تراوحت بين السلبي والإيجابي، تقتصر فقط على ذكر البعض منها ونقسمها إلى محورين هما: نماذج عربية وأخرى غربية.

1- بين الأركيولوجيا الفوكوية والتفكيكية الدريدية:

إنّ « التفكيكية » من بين أبرز المناهج المتداولة والحاضرة بقوة في الدراسات النقدية المعاصرة. ظهرت مع الفيلسوف جاك دريدا JACQUES Derrida*، كانت بداية مساره الفكري مع نقده اللاذع للفكر البنيوي تقوم النظرية التفكيكية على (الأثر، الاختلاف، الانتشار)، تمحورت انتقاداته بين مقالتي الأولى: « البنية واللعب في خطاب العلوم الإنسانية»، أمّا المقالة الثانية كانت تحت عنوان: « الكوجيطو وتاريخ الجنون»، فهي مقالة موجهة للكتاب تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي « تحدث فوكو عن الجنون كما لو أنه يعارف ما هو الجنون وقام باعتبارها مغالطة فلسفية من قبله واعتبرها موضوع شك، لأن فوكو يعتبر الجنون هو الوجه الآخر للعقل»¹.

*: جاد دريدا: فيلسوف فرنسي من مواليد الجزائر، صاحب نظرية التفكيك، ولد عام 1930 بالعاصمة، توفي 2004، درّس بعدة جامعات (جامعة باريس، كاليفورنيا)، صاحب أشهر كتاب "الكتابة والاختلاف".

¹: هيثم سرحان، جماليات النقد المعرفي وحرفة التواصل الفلسفي، الاتحاد، السبت 06 أكتوبر 2007.

يرى جاك دريدا في أركيولوجيا الجنون إساءة لقراءة ديكرت، لاعتقاده أنه أول من قام بالفصل بين العقل والجنون» قام دريدا بمهاجمة فوكو من خلال دفاعه عن التحليل النفسي الذي كان فوكو قد نعته بمونولوج العقل عن الجنون (...). بذلك يفقد فوكو صفة الأركيولوجيا التي يدّعيها لخطابه، إن هذه الأركيولوجيا تفقد جدواها طالما أنها تفرض كلام العقل على صمت الجنون وطالما أنها تدّعي كتابة تاريخ الجنون قبل أن تستولي عليه المعرفة»¹.

أراد دريدا من خلال السياق السابق أن يُعيد الاعتبار للكوجيطو الديكرتي من خلال قرائته تفكيكية ومواصلة نقده للبنوية مستمداً مفاهيمه من نيتشه وهایدجر - يرى دريدا أن ديكرت « منح الكوجيطو اسم الجنون قبل أن يبدأ بتدشين مقتربه "أنا أفكر"، "أنا أفكر والكوجيطو مفهومين قابلين للتبادل حيث يمكن لكل منهما أن يحل محل الآخر (...). ومن جانبه قام فوكو بكتابة مقاله يرد فيه على مقالة دريدا ضمنها في الطبعة الثانية لكتابه تاريخ الجنون عنوانها "جسدنا" أشار فيها إلى إساءة دريدا إلي تركز على الكوجيطو قبل إدراكه في حين أن قراءة فوكو تشدّد على استبعاد ديكرت للجنون وعدم استبعاد الحلم، وفي النهاية فإن فوكو يرى أن قراءة دريدا تتضمن تعميمات للشك الذي يقصي اليقين الديكرتي عن ديكرت»².

كان مقال دريدا "كوجيطو ومشكلة الجنون" بمثابة بداية سجال دار بينه وبين فوكو يدور حول قضية الجنون وعلاقتها بالعقلانية الغربية، ورغم الاختلاف والنقد الذي وجهه كل منهما، إلا أنهما يمثلان قطبا من أقطاب الفكر الفلسفي الغربي المعاصر.

¹: هيثم سرحان، جماليات النقد المعرفي وحرفة التواصل الفلسفي، ص 02.

²: المرجع نفسه، ص 2.

2- بين الأركيولوجيا الفوكوية والوجودية السارترية:

تتعارض البنيوية تعارضا مطلقا مع الوجودية، ومن الطبيعي يأتي رد فعل الفيلسوف الوجودي جان بول ساتر ليناهاض وبشدة انتشار البنيوية وينتقد روادها «وإن كان ليفي ستراوس قد احتفظ بخيط رفيع بينه وبين سارتر، فإن فوكو من بعده قطع كل صلة بينه وبين سارتر ودفع بالنقاش الدائر بين البنيويين والوجوديين إلى نقطة اللارجوع بتدعيمه للبنيوية على حساب الوجودية، حتى إن اسم سارتر لم يرد في كتاب فوكو ولو مرة واحدة (...) والطريف في الأمر أن سارتر لم يقرأ كتاب "الكلمات والأشياء" قراءة مباشرة وشخصية، وإنما اطلع على ملخصات قامت بها مجلة "الأزمنة الحديثة" " Le temps modernes" التي كان يديرها، وهذا ما أكدّه في إحدى المقابلات الصحفية والذي هاجم فيه فوكو بشكل حاد»¹. ما نشهده أن فلسفة سارتر هي ذات طابع إنساني وتاريخي بحث وتعارض البنيوية مع المذهب الوجودي، وجه بول سارتر P. sartre نقدا لاذعا لمفهوم الأركيولوجيا ليعتبرها صورا متحركة لا صلة بينهم في نظره، هي مجرد جينالوجيا لا يصح لنا استخدامها في المجال الإبستمولوجي، زد على ذلك يأتي سارتر إلى اتهام فوكو بأنه خادم للبرجوازية « ذلك بأن القول بثبات الأنساق المعرفية وبوجود قطيعة بين نسق وآخر في المستوى الفلسفي يقابله حبّ المحافظة على الوضع الاجتماعي السائد وهذا ما تهدف إليه البرجوازية وعندما سئل عما إذا كان يرفض البنيوية إذ تخطت ذلك فإنها تتخطى حدود شرعيتها، فالبنيات لا توجد من عدم، وإنما هناك من أوجدها ألا وهو الإنسان»².

التساؤل الذي يظهر جليا هو كيف لهذا الإنسان الذي يتميز بثبات بنياته، أن يخلقها باستمرار إلا أننا نقع هنا في مفارقة. لكن ما نعرفه أن فلسفة سارتر الوجودية تقوم على

¹: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 91.

²: المرجع نفسه، ص 92.

أساس الحرية والاختيار، ذات علاقة شديدة بالتاريخ، يقابلها المذهب البنيوي الذي يُقصي دور الذات وفعاليتها مع التاريخ.

إن إنسان سارتر له الحرية المطلقة في تقرير مصيره، يقابله إنسان فوكو الذي يعيش يوميا إقصاء مؤسساتها مكرها يخضع للنظام، تتحكم فيه البنى التي قامت باختراجه وتجاوزها، يرد فوكو على سارتر حول اتهامه بأنه يمثل السد البرجوازي الأخير: « إنه عندما كان في الحزب الشيوعي الفرنسي لشهور فحسب، فإن سارتر كان داخل الحزب نفسه يمثل المتراس الأخير للإمبريالية البرجوازية... إذن فاتهمه لي لا قيمة له إلا من باب ردّ الدين، إنه يردّ ما تبقى من قطعة نقدية كنا قد أعطيناها له من قبل»¹، صرح سارتر في إحدى المرات في مجلته بأن فوكو سوف يشكل آخر حاجز برجوازي خاصة بعد نشره لكتاب "الكلمات والأشياء" الذي شهد بدوره نجاحا كبيرا وفي نظر سارتر كان هذا النجاح متوقعا لماذا؟ في أواخر الستينيات نعلم أن الماركسية انتصرت في فرنسا والغرب، ولذلك يكون موقف ميشال فوكو من النظام البرجوازي ورفضه له هو في نفس الوقت ترحيب للماركسية وللكتب التي تدافع عنها في الأوساط الفرنسية، ليرد عليه ميشال فوكو "إن سارتر ينتمي إلى القرن التاسع عشر" وأن جيله اكتشف شيئا مغايرا بعيدا عن السياسة والحرية والوجود، إنه الشغف بالنسق والنظام.

أما عن اتهام سارتر بلا تاريخية الفلسفة الفوكوية واحتقار فوكو للتاريخ وإقصاءه للذات الفاعلة يجيب فوكو قائلا: " أن التهام سارتر ليس صادر من أهل الاختصاص، إنه اتهام قدمه فيلسوف وليس بمؤرخ، فلهم تاريخ خاص بهم"، يقول: « التاريخ الخاص بالفلاسفة عبارة عن أسطورة لا تمدّ بصلة للتاريخ العام والحقيقي، التاريخ الخاص بالفلاسفة هو نوع من التواصل الكبير إنهم يمارسون التاريخ على نمط مختلف جدا وإذا

¹: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 93.

كانوا يتهمونني بأنني أريد قتل الأسطورة الفلسفية للتاريخ فإنني سأكون ممنونا إلى أقصى درجة، وهذا ما كنت أقصده»¹.

نلمس من النص السابق نوعا من السخرية الفلسفية في ردّ فوكو على اتهام سارتر باللا تاريخية، ليقصفه بأن التاريخ الذي أتهم بقتله هو نفسه التاريخ الخاص بالفلاسفة، خاصة بسارتر وميرلوبونتي وغيره، لأنه في حقيقة الأمر يعيش إنسان القرن العشرين عدّة ضغوطات وإكراهات تقصيه وتهمسه والقول والدفاع عن حرية الإنسان يتغاضى بها الفلاسفة عن الحقيقة ويهرون من روعها، إن مقصد ميشال فوكو من إعلانه عن نهاية هذا الإنسان، هو وصف رمزي وليس بيولوجي.

كانت النزعة الإنسانية في العصور السابقة تهتم بالله والعالم والتشابه والتماثل بين الكلمات والأشياء، لكن ومع بداية القرن العشرين خاصة ما شهده وما عاشه الإنسان من ويلات الحروب والتقدم التكنولوجي والصناعي وتطوير الأسلحة الحربية والنووية، كل هذا دفع بفوكو ليتنبأ ويعلن عن نهاية الإنسان المرتقبة والحتمية.

رغم الاختلاف الذي شهده تاريخ الفلسفة بفرنسا خاصة مع فوكو وسارتر، ورغم تباين مشاربهم الفكرية، فإذا كان سارتر زعيم الوجودية فإن ميشال فوكو يعدّ من أكبر رواد البنيوية في المجال الفلسفي، إلا أنهما يشتركان في عدّة تظاهرات 1968 الطلابية ولكل منهما مرحلته المختلفة لا من حيث التطورات الثقافية وهذا ما صرّح به فوكو موضحا أن المسار الفلسفي يتميز بالانفصال والاستمرارية، حيث كانت فترة سارتر وميرلوبونتي، تقدم لنا حلول لأسئلة وجودية جوهرية حول الموت والحياة وحول الحرية، وحسب رأي فوكو أخذت الفلسفة من بعد ذلك مجرى آخر مختلف ومتعدد.

¹: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 93.

3- موقف مايكل ديفران M. Dufrenne من بنيوية ميشال فوكو:

جاء في كتاب "دفاع عن الإنسان" أو "لأجل الإنسان" "pour L' homme" للمفكر الفرنسي ذو النزعة الإنسانية "مايكل ديفران" ردًا لاعتبار الإنسان ونقدا لاذعا للتيار البنيوي، إنها نزعات لا إنسانية بالعميق حسب رأي ديفران - خاصة مع ميشال فوكو، بحيث يرى فيه جرأة كبيرة، دفعت به إلى إعدام الإنسان وقتله، ليتساءل "مايكل ديفران ما الجرم الذي اقترفه هذا الإنسان حتى يكون مصيره الموت والإعدام « في بداية كتابه يعلن ديفران بأن محاولته تهدف إلى تعرية النزعة الإنسانية الخاصة والسائدة في الفلسفة المعاصرة (...) وخاصة مع فوكو لأنه وبمهارة أدخل موضوعات جديدة لم نتعرض لها بعد كما هو الحال في ميدان اللغة والبنية واللاشعور»¹.

إن الأنساق التي بناها أصحاب البنيوية تقذف بالإنسان إلى الهوة وتجرده من إنسانيته وتجعل منه مجرد مفهوم عن الأنساق والأنظمة المغلقة يقول ديفران: « إن الفلسفة المعاصرة لم تعطي الإنسان قيمته ولم تقدمه كموضوع لها وهذا ليس راجع لأي صعوبة أو عائق وإنما في الأصل لا تعترف به، في الحقيقة أنها تعترف بوجود كائنات حية بشرية، أما عن فكرة وجود الإنسان قائم بذاته ما هي إلا أكاذيب جاءت جراء أفكار فارغة»².

يتساءل ديفران بأي حق ولأي مرجعية يتتبأ فوكو بنهاية الإنسان ويعلن اختفائه، رغم ما عايشه من ويلات الحروب، إلا أن فسحة الأمل تخلق فيه الإرادة والقوة والقدرة على الاختيار، وإن تجريد وتعرية العلوم الإنسانية وجعلها علوما دقيقة تستمر بالوضوح والدقة، فهي في ذات الوقت مجالات تخص الإنسان، مثل بدوره العنصر الرئيسي على جميع الأصعدة.

¹: عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 94.

²: M. Dufrenne , La philosophie du néo- positivisme, in esprit mai, 1967, p 781.

4-نقد روجيه غارودي * "البنوية فلسفة موت الإنسان":

"قبل مئة سنة أعلن نيتشه موت الإله، هكذا استهل روجيه غارودي كتابه، ليعدّ هذا الإعلان المخيف والمرعب، بمثابة صوت الإنسان كذلك، إلا أن نيتشه بقتله للإله هو بمثابة تحطيم القيم، ليخلق إنسان جديد "super men" ويجعل منه المركز وينتزع منها الغلاف الميتافيزيقي ويتجرد من الأكاذيب والأضاليل، يقول نيتشه في كتابه "هذا الإنسان" « قد جرى تجريد الواقع من قيمته ومعناه وحيويته عن طريق اصطناع عالم مثالي شيد بالأكاذيب»¹، لكن المشكلة الفلسفية المطروحة: هل يقودنا موت الإله بالضرورة إلى موت الإنسان. يقول روجيه غارودي: « إن مفهوم البنية في أيامنا هذه يحمل فلسفة تمثل في طبعها الدوغمائية، نقطة الوصول إلى فلسفة موت الإنسان، للفلسفة التي بلا ذات»².

فقد تبدو الأطروحة التي صاغها ميشال فوكو في كتابه الكلمات والأشياء محاولة بسيطة لما تناوله من توضيح وتحديد إستيمية كل من البنى التاريخية الثلاث (عصر النهضة، العصر الكلاسيكي، العصر الحديث) إلا أن روجيه غارودي يصرح أنه لا بد أن نسجل بعض الاعتراضات والتي صنفها في خانتين الأولى اعتراضات وقائعية، والثانية مبدئية يقول: « إن الأسس التاريخية التي يبني عليها فوكو بناءه الباهر هشة للغاية

*: روجيه غارودي Roger Garaudy (1913-2012) فيلسوف وكاتب فرنسي عمالية ملحدة ثم اعتنق المسيحية البروتستانتية ثم بعدها اعتنق الإسلام انضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي، ترأس لجنة التربية الوطنية في البرلمان مناهض للصهيونية اعتقاله بسجون في الجزائر كانت بسبب لاعتناق الإسلام، بقي مدة سنة في الجزائر بعد إطلاق سراحه، تعرف فيها على العلامة البشير الإبراهيمي أهم مؤلفاته: لماذا أسلمت، الإرهاب الغربي، حوار الحضارات، وعود الإسلام.

¹: فريدريك نيتشه، هذا هو الإنسان، ص 8.

²: روجيه غارودي، البنية فلسفة موت الإنسان، ص 14.

فلتنظيم هذا التاريخ الموازي، أو بالأحرى علم الأثریات (...). لم يكن ثمة مفر من تحريف تاريخ الوقائع التاريخية والتسلسل الزمني بعض الشيء»³.

حسب قراءة غارودي، أعطى ميشال فوكو القيمة العلمية في صياغته للقانون الحالات الثلاث دون أن يشير للقيمة التاريخية وتعامله مع التسلسل التاريخي بخفة وتفاعل، أما عن الاعتراضات المبدئية، يصفها روجيه غارودي بالمشكلات الأشدّ خطورة، استنادا لما صرح به الفيلسوف سارتر. sartre في مجلة القوس "ينبئنا فوكو بما يمكن أن يكون هو الأكثر إثارة للاهتمام: أعني كيف يتم بناء كل فكر انطلاقا من تلك الشروط وكيف ينتقل الناس من فكر إلى آخر" ¹.

إن فوكو في وصفه الحالات الثلاث بارتباطاتها البنائية، يختزل حياة البشر وممارساتهم وتاريخهم بإيمانه القطائعية والاستمرارية، يقدم غارودي مثالا: « فوكو يعتبر على سبيل المثال أن إحدى المراحل الفاصلة في تغيير منظور العلم الغربي هي المرحلة الممتدة من 1775 إلى 1975، لكنه لا يطرح في أي وقت مسألة الدور الذي أمكن للثورة الفرنسية التي أمكن لغيرو وهيبوليت»².

زيادة على هذا يرى روجيه غارودي أن فوكو قد تسرع، هناك نوع من التهور عندما وصف الماركسية بالسمة التي إذا خرجت من الماء ماتت، هذا ما جاء في الصفحة 274 من كتابه "الكلمات والأشياء" يقول غارودي: « ومما يؤكد الطابع المتهور لهذا الإعلان أن فوكو يحدد سمات معرفة القرن التاسع عشر التي كانت بمثابة بداية حدثتنا

³: روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الانسان، ص 39.

¹: المرجع نفسه، ص 40.

²: المرجع نفسه، ص 43.

بأنها بحث عن البنى الخفية، الباطنة، بالتعارض مع المعرفة الكلاسيكية التي كانت تبحث عن البنى على مستوى التمثيل على مستوى المنظور المرئي»¹.

لم يستطع فوكو إعطاء دليل أو كيفية انتقال المعارف من بنية إلى أخرى لما يقدمه لمفهوم البنية على أنها كلية ومغلق وغريبة عن الإنسان وهذا القول هو حجر الزاوية في فلسفة ميشال الذي تصرح فيما بعد عن النهاية المحتومة لهذا الإنسان، إنه يسعى إلى تحديد متعال بلا ذات، إن الإنسان في نظره اختراع حديث العهد وما يلبث أن يحول إلى أفوله وزواله.

أما حول استخفاف فوكو بالتراث المسيحي، يكتب: « فيما خلا الأخلاق الدينية، لم يعرف الغرب سوى شكلين من المذاهب الأخلاقية: القديم في شكل الرواقية أو الأبيقورية المتمفصل حول نظام العالم والمستطيع بفضل اكتشافه لقوانينه (...) والحديث الذي لا يصوغ بالمقابل أي أخلاق»²؛ يقول غارودي أن هذه الطريقة في إطراح التراث المسيحي بهزة كتف وفي أربع كلمات "فيما خلا الأخلاق الدينية" مع أن هذا التراث هو الذي شغل إلى حد كبير الفترة الفاصلة بين ما يسميه فوكو بالأخلاق القديمة (الرواقية والأبيقورية) وبين النفي (الحديث) للأخلاق من منظور البنيوية المتمذهبة، لتمثل بالفعل أسلوباً صلفاً وفجاً في معاملة التاريخ»³.

لقد قرر فوكو حسب رأي غارودي- شطب عديد من القرون ليتساءل كيف لفوكو أن يغفل عن "موضوع اعترافات القديس أوغسطين، أو تلك الأبحاث القيمة التي صاغها رجال الكنيسة حول قراءاتهم ورؤيتهم للشخص الإنساني، إن الشطب الذي قام به فوكو للعديد من صفحات تاريخنا، هو بمثابة تصور مجرد يجعل من حركة التاريخ صعبة الفهم

¹: روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، ص 42.

²: المرجع نفسه، ص 47.

³: المرجع نفسه، ص 46.

ويوصي غارودي بعدم الوقوع في فخ الدوغمائية التي تخلق من البنية المركز، أما باقي البنى لا وجود لها إلا بزوال الأولى لتحتل الأخرى.

5- حضور المنهج الفوكوي في متن إدوارد سعيد:

أضفت تأملات فوكو من خلال كتابه "حفريات المعرفة 1969" المتمثلة في علاقات السلطة بالمعرفة والمؤسسات الانضباطية القمعية والمهيمنة، حيث أثارت اهتمامات متباينة لدى المثقفين من جميع الأجناس خاصة منها "المستعمرات". تعدّ أعمال ميشال فوكو حقلا جديدا يتقاطع مع الحياة السياسية والفلسفية والنقد الأدبي والتحليل النفسي، كما يطلق عليها "دراسات ما بعد الكوليانية" وكان أول من انطلق من قضية نقد الاستشراق هو المفكر الفلسطيني "إدوارد سعيد" (1935-2003) فانطلق من فرضية أساسية يوضح فيها "خطاب الهيمنة" من خلال فحص والكشف عن تلك النصوص والكتابات الإيديولوجية الغربية التي خلقت من الشرق حقلا معرفيا متباين المجالات والزوايا.

يقول إدوارد سعيد: «تركيز الاهتمام على الاستشراق كان بالنسبة لي عبارة عن شراكة بين النصية الخطابية والأرشفية والسلطة الدنيوية باعتبار كل منهما مؤشرا للآخر وانحرافا عنه، الاستشراق خطابا منظما وبناء عليه فإنه معرفة مكتوبة لكن كونه في العالم وعن العالم مباشرة، فهو أكثر من مجرد معرفة، إنه سلطة، فالاستشراق بالنسبة إلى الشرقي، هو المعرفة المؤثرة والفعالة التي أوصلته نصيا إلى الغرب والتي احتلته الغرب من خلال جلب موارده إنسانيا بمساعدتها¹.

¹: إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، حوارات مع إدوارد سعيد: تر: نائلة قلقل حجازي، دار الأدب، بيروت د. ط، 2008، ص 50.

إن نقطة التلاقي بين كل من ميشال فوكو، وإدوارد سعيد تعود إلى موقفهما من مفهوم الخطاب السلطوي الغربي ينطلق إدوارد سعيد موظفا آليات وأدوات فوكوية ليدرس الظاهرة الاستشراقية، التي تعدّ بدورها صنفا من أصناف الخطاب الذي بنّت صرحه تلك المؤسسة الإمبريالية التوسعية، ليذهب مع فوكو إلى مدى تأثير النصوص بالسياقات الاجتماعية والتاريخية، وعلى منوال المنهج الأركيولوجي، حاول إدوارد سعيد أن يأخذ بتلك الآليات ليفجر المسكوت عن تلك الخطابات عبر عملية الحفر في المنسي، والكشف عن النظم والتفاعلات في تلك المعرفة المهيمنة، التي وجدها في كتب فوكو خاصة "المراقبة والعقاب" "surveiller et punir" وحفريات المعرفة "L'archéologie du savoir" ليعترف بفضل ميشال فوكو قائلا: « ميشال فوكو الذي أدين لعمله دينا عظيما»¹، يشير مترجم كتاب "الاستشراق" بشير كمال في المقدمة إلى نقطة مهمة وهي علاقة هذا الكاتب "إدوارد سعيد" بأعمال الفيلسوف ميشال فوكو « باعتباره جزءا من ثورة جديدة في الدراسات الإنسانية تضرب جذورها في الماركسية والثورة الألسنية والبنويوية وما تكاد مدرسة جديدة من التاريخ الجديد تنتسب بعمق إلى أعمال ميشال فوكو بشكل خاص»². لم يخطر ببال أحد سابقا أن يأخذ بسياقات المنهج البنوي الأركيولوجي ليطبقها على القضية الاستشراقية إلا مع إدوارد سعيد، كأنه أراد أن يحارب الغرب في عقر دارهم وبسلاحهم يقول إدوارد في هذا السياق: « إن الاستشراق جعل من الشرق مسرحا غريبا بمعنى وضع دراما شاملة يكتبها الغرب عن الشرق (...) إن الشرق الذي تمت دراسته كان بشكل عام، كونا نصيا،

¹: عبد الرزاق بلعقروز، المعرفة والارتباب (المسألة الارتبابية لقيمة المعرفة عند نيتشه وامتداداتها في الفكر الفلسفي المعاصر)، منتدى المعارف، ط1، بيروت، 2013، ص 400.

²: سعيد إدوارد، الاستشراق (المعرفة، السلطة، الإنشاء)، تر: كمال أوديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث، 1981، ص ص 1-2.

فقد جاء وُقع الشرق عبر الكتب والمخطوطات، لا عبر مصنعات محاكية مثل النحت والخزفيات، كما كان انطباع اليونان عن عصر النهضة¹.

أصبحت تلك الكتابات والمخطوطات عبارة عن خطابات عرقية، كما يوضحها فوكو بالعنف المعرفي أو السلطة المعرفية، هذا ما يتجه إليه إدوارد سعيد: « فالاستشراق يغدو ممارسة لقوة ذات اتجاهات ثلاث على الشرق والمستشرق وعلى المستهلك الغربي للاستشراق²».

يعدّ إدوارد سعيد من أشهر الذين تحدثوا عن مصطلح "ما بعد الاستعمارية" التي بدورها تعد مصطلحات ومفاهيم ما بعد البنيوية أو ما بعد الحداثة، التي شهدت رواجاً على مدار ثلاث عقود ماضية تتراوح بين الثقافة والفلسفة والأنثروبولوجيا والسياسة، ليأتي إدوارد سعيد الذي أعجب بأركولوجيا فوكو محدداً بذلك حقلاً جديداً يدعى "ما بعد الاستعمارية" ليفتح مجالاً للبحث الأكاديمي ناقداً ظاهرة الاستشراق التي يعدها خطاباً استعماريًا يؤكد قائلاً: « نحن نستخدم مصطلح ما بعد استعماري ليغطي كل مجالات الثقافة المتأثرة ماضياً وحاضراً بالعملية الاستعمارية من اللحظة التي بدأت فيها تلك العملية وحتى الآن³».

إن مفهوم "ما بعد الاستعمارية" لا تشير إلى زوال الاستعمار أو إلى البلاد المستعمرة سابقاً والتي تخلصت من قمع المستعمر، بل تجدر الإشارة إلى أن "ما بعد الكوليانية" إلى أن الأمم المتحررة لا تزال خاضعة ثقافياً واقتصادياً للدول العظمى، نجد هنا جهود إدوارد سعيد، المتمثلة في استنطاق الخطاب الاستشراقي والكشف عن ألعيب الغرب حسب رأي فوكو فإن هذا الخطاب يمارس قهراً وإكراهاً، لأن المعرفة الاستشراقية أصبحت سلطة في

¹: سعيد إدوارد، الاستشراق (المعرفة، السلطة، الإنشاء)، ص 82.

²: المرجع نفسه، ص 95.

³: المرجع نفسه، ص 95.

يد الغربيين، متمركزة حولهم فقط، أما الباقي فهو عبارة عن هوامش، يقول فرانز فانون "لقد تم بناء رفاه أوروبا وتقدمها بعرق الزنوج والعرب والهنود والجيش الأصفر وجثثهم، فأوروبا هي تماما صنيعا العالم الثالث"¹.

أخذ إدوارد سعيد أدوات ومنهج فوكو وقام بتحليل علاقة المستشرقين بالآخر، بالتالي اختلافا في حقل المنهج، موضحا كل منهما ذلك العنف أو القهر الذي يمارسه الغرب رغم التقدم العلمي والتكنولوجي الذي أحرزه، إلا أنه لم يستطع كبح مازوخيته التي يمارسها على نفسه وعلى الآخر.

6- بين بنية العقل الغربي عند ميشال فوكو والعقل العربي عند محمد عابد الجابري:

اقتحم محمد عابد الجابري* عالم العقل الواسع، المتشاك والمتابين في نشاطاته ليقوم بتعريف عالم العقل العربي، متوغلا في طبقاته وفي بنيته، من خلال الكشف أو محاولة الكشف عن السلطة المرجعية له، انطلق المفكر المغربي من رؤى وتصورات ومسلمات ساعدته في عملية النقد ومن ثم إعادة بناء عقل عربي جديد، متجليا في مشروعه الكبير المتكون من جزأين:

1- تكوين العقل العربي.

2- بنية العقل العربي.

أراد الجابري أن ينقل الصراع القائم في المجال السياسي إلى المجال الإبيستمولوجي، يقول في هذا الصدد: « لقد استبعدنا مضمون الفكر العربي، الآراء والنظريات والمذاهب وعبارة عامة، الإبيديولوجيا من مجال اهتمامنا، وحصرنا محاولتنا في المجال الإبيستمولوجي

¹: سعيد إدوارد، الاستشراق (المعرفة، السلطة، الإنشاء)، ص 96.

*: محمد عابد الجابري: مفكر وباحث مغربي له حوالي 30 مؤلفا استطاع المفكر القيام بتحليل العقل العربي عبر دراسات المكونات والبني الثقافية واللغوية التي بات مع عصر التدوين اهم مؤلفاته: نحن والتراث، العصبية والدولة، تكوين العقل العربي، بنية العقل العربي، مدخل الى القرآن، المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي.

وحده، فقلنا ما نريد تحليله وفحصه في الفكر العربي بوصفه أداة للإنتاج النظري وليس بوصفه هذا الإنتاج نفسه»¹.

السؤال المطروح هنا: ما الدافع إلى اتخاذ محمد عابد الجابري فلسفة ميشال فوكو مرجعية فكرية مهمة في دراسة قضايا عربية خاصة المعاصرة منها؟

في حقيقة الأمر لو أخذنا بعين الاعتبار الفترة الزمنية المعاصرة، نجد رواج التصور البنيوي الذي أصبح بدوره موضة "Une mode" فكانت بدايات الاهتمام العربي بفلسفة ميشال فوكو عبارة عن نسج على ما كان متداولاً عند الغرب، كانت الصورة الحقّة هي صورة الفيلسوف البنيوي خاصة ميشال فوكو لما تحمل فلسفته كل معاني التغيير والاختلاف والنقد والاهتمام بالقضايا والمواضيع المنسية والمهمشة عن طريق الحفر المعرفي، يقول الدكتور الزواوي بغورة: «... ولكن يمكن القول إجمالاً، أن الدافع الأساسي يتمثل في الاستفادة من طريقة ومفاهيم فوكو في دراسة التراث العربي الإسلامي بالنسبة إلى أركون والجابري ومناقشة القضايا المعاصرة بالنسبة إلى التريكي وصفدي (...) لكن ما أودّ التشديد عليه هو أن قراءة ميشال فوكو تفرض نفسها على كل قارئ، لأن فوكو نفسه لم يكف عن الحديث عن الاستعمال والتوظيف ووصف كتبه ونصوصه ومفاهيمه بعلبة الأدوات "boite a outille" مما يعني أن كل قارئ عليه أن يستعمل المفتاح الذي يحتاج إليه لكن يجب أن لا ننسى العلبة أيضاً»².

تتسم المفاهيم الفوكوية بالعمل والحرص على التغيير والدعوة إلى القطيعة المعرفية، كذلك تهتم بمحاولة فهم لقضايا الواقع المعاش واستيعاب الحاضر من خلال التحليل التاريخي، إن هدف الفلسفة الفوكوية هو القدرة على كشف الممكنات الحياتية الجديدة والاهتمام بالذات والانهمام بها. يلتقي الجابري وفلسفة فوكو في تحليل الخطاب وفي مفهوم

¹ : محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص37.

² : حوار بين الزواوي بغورة، والمهدي مستقيم، ميشال فوكو في الفكر العربي المعاصر، مؤسسة مؤمنون بلا حدود.

الابستيمية، حيث وظفه في عدة مرات ويحيل إليه في تكوين العقل العربي، يقول "واضح أننا نستوحي هنا على صعيد التعريف ميشال فوكو كما سيلاحظ القارئ المطلع على أعمال هذا المفكر الفرنسي ولكن لا تحذوا حذو النعل بالنعل، بل نلتمس لعلمنا مفاهيمه"¹.

نفهم من النص السابق أن الجابري يرفض التبعية المعرفية، فهو على العكس من المشتغلين والباحثين العرب الذين اهتموا بفلسفة ميشال فوكو، وفي نفس الوقت دعوا إلى ما جاء بالمصطلح الجديد وهو "التبئية" تعني هذه الأخيرة أن لكل فكر بيئته الخاصة والمميزة، يعني أننا ما نلتقى فكرا أو ثقافة معينة ضروري نستقبلها بإضافات منا تحمل تصوراتنا وآراءنا كما يقول: "لا تحذوا حذو النعل بالنعل" يشير الدكتور الزواوي بغورة إلى نقطة مهمة « (...) لكن الناظر في استعمال الجابري لمفاهيم فوكو يدرك أنه لم يلتزم بتلك الشروط، والدليل على ذلك أن مفهوم السلطة وهو من المفاهيم المركزية في فلسفة فوكو (...) انتقى الجابري منها "السلطة الرعوية وهي جزء من مفهوم معقد ومتعدد، مع ذلك فإنه عندما أشار إليه في المدخل أهمله في المتن وبالتالي لا يمكن في تقديري، الحديث عن توظيف مفهوم السلطة أو السلطة الدعوية تحديدا عند الجابري سواء باسم التلقي المشروط أو التلقي الحر»².

إن النقد الذي يتبعه المفكر عابد الجابري يختلف عن النقد الذي جاء به فلاسفة الاختلاف فيما بينهم ميشال فوكو، فهؤلاء يخوضون سواء بالحفر أو التفكير في النصوص من أجل الوصول إلى تلك الآليات التي تتحكم في إنتاج المعرفة، إن مشروع الجابري هو نقد بنية العقل العربي وعلاقته سواء بالأصالة أو المعاصرة، إلا أن الدكتور إبراهيم محمد يقول: « وأول ما يمكن إثارته هنا، هو أنه من الصعب فهم هذا المشروع

¹: محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ص 37.

²: حوار الزواوي بغورة، ص 113.

دون ذكر المرتكز الفكري الأساسي الذي اعتمده الكاتب في بناءه وفي معظم أعماله وخاصة في هذا الكتاب أي فوكو وذلك في كتابه حفريات المعرفة بالدرجة الأولى وتحديدًا ما يتعلق بالانفصال»¹.

7- محمد أركون والقطيعة الإبستمولوجية:

يقول فوكو في مقدمة كتابه "الكلمات والأشياء"، موضحاً خطة عمله: « إنَّ ما نريد تبليغه هو الحقل المعرفي، الإبستيمي *épistémè* حيث المعارف منظورًا إليها خارج أي معيار يستند إلى قيمتها العقلية وإلى صورها الموضوعية، تفرز وضعيتها وتظهر هكذا تاريخياً ليس تاريخ كما لها لتزايد وإنما بالأحرى تاريخ شروط إمكانها، ففي هذا العرض، ما يجب أن يظهر كأنما هو في داخل مدى المعرفة التشكلات التي ولدت الصور المختلفة للمعرفة التجريبية وبدلاً من تاريخ بالمعنى التقليدي للكلمة، فإن ما نعنيه هو الأركيولوجيا *archéologie*»².

إن فرادة مشروع فوكو وتميزه، جعلت منه صرحاً فلسفياً هادياً إلى الانفتاح والتحرر من قيود المذهبية، لذا نجد حضوره القوي في الساحة الفرنسية والأوروبية وحتى الساحة الفكرية العربية، لما يحمله منهجه الأركيولوجي من قابلية لمختلف المعارف. خاصة مشروع الحداثة الذي انشغل بدوره الكثير من المفكرين والباحثين العرب، نجد محمد أركون الذي قام "بتحليل إبستمولوجي لمبادئ العقل وآلياته وخاصة غير المفكر فيه" *"impensés"* وما هو غير قابل للتفكير فيه *"impensable"* في الفكر العربي الحديث»³.

¹: الزاوي بغورة، ميشال فوكو في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، لبنان 2014، ص 69.

²: المرجع نفسه، ص 213.

³: عبد الله بن بالقزوز، نقد التراث، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2014، ص 377.

وهذه من بين أهم أطروحات ميشال فوكو التي دعى بقوة إلى ضرورة الاهتمام بما هو منسي ومهمّش ومظلم. أراد محمد أركون أن يخترق المألوف، ليذهب بعيد في ربطه بحدائث الغرب ويقدمها في صورتها غير المألوفة في عصر الإسلام « إن فورة الحدائث الفكرية والعلمية والتقنية في الغرب انطلقا من القرن السادس عشر، نجد أصولها في الجهد الخلاق في الفكر والعلم العربيين، خلال العصر الذهبي، بل إن الثورة الاجتماعية ذاتها وبواكير الديمقراطية قد تحققت أو دوّنت في القرآن وفي سنة النبي التي تعلّم بها الجامعات في عصرنا الحالي»¹.

إنّ جرأة أركون من خلال النص السابق تتضح معالمها في تلك المساءلة النقدية للتراث المعرفي الإسلامي، أينما كان وكيف أضحى حاله، فإهمال العرب لمعارفهم وخروجهم من التاريخ المعرفي وروح الاكتشاف هي انشغالهم بالتفاخر والتبرير والمماحكة ضد الاستعمار، ولدراسة التراث ومعالجته من الضروري أن نتبع المنهج المختص بالعلوم الإنسانية كالتفكيك الديردي أو الأركيولوجيا الفوكوية والذي يتفق معه حينما يقول: « إنني أدعو إلى عمليتين عقليتين ثقافيتين في نفس الوقت الأولى نقصد بها التحليل الأثري الانتقادي الاستفساري للثقافة العربية لتحرير العقل من الميتولوجيات (...) وتزييف أعماله، أمّا الثانية هي اندفاع هذا العقل المحرر من النضال الإبتيمولوجي الذي يهمل كل إنسان مهما كان زيّه ومذهبه الفلسفي واتجاهاه السياسي»².

أدرك محمد أركون هشاشة الدراسات الإسلامية الكلاسيكية أو تلك الخطابات الاستشراقية. فأراد وبأسلوب جديد أن يطبق منهجيات تدعو إلى تحرير الفكر من التكرار والاجترار. انطلق محمد أركون من ضرورة الكشف عن اللامفكر فيه الثقافة الإسلامية وفهم التراث فهماً صحيحاً وممارسته ممارسة صائبة، يحمّل محمد أركون المناهج غير المختصة

¹: الزواوي بغورة، ميشال فوكو في الفكر العربي المعاصر، ص 232.

²: المرجع نفسه، ص 69.

بالعلوم الإنسانية، المسؤولية في عدم فهم وتفسير الفكر الإسلامي يقول: « إن لهجتي الانتقادية وتحيزي للحرية الفكرية والانفتاح ولمواجهة المشاكل بجرأة والخروج من كل سور محكم بحجب، لم تملها علي لا الغاية الجميلة ولا التعليق المتسرع بالأساليب على الموضة، كما يجب أن أقول أنصار المناهج المجربة منذ أمد بعيد، إن قصدي العميق أن أقدم مثلاً، عما يجب أن يكون عليه الجهاد المخلص للتوتر الروحي والفكري الذي كان في أذهان المفكرين الأوائل، إنما البعيد بعداً معقولاً عن الإجراءات المنطقية والمسلمات العلمية وعن الجهاز التصوري لهؤلاء المفكرين»¹.

إنّ التخلّف الذي يقصده أركون موجود في تلك الدراسات المتعلقة بمجتمعاتنا الإسلامية، إنها بحوث تخلو من البعد العلمي والتصور المنطقي العقلاني، إنّها دراسات تخلط بين ما هو أسطوري وما هو تاريخي، هنا تأتي دعوته إلى القطيعة الإبستمولوجية وإلى تبنيه للمفهوم الإبستيمي الفوكوي، ودعوته إلى دراسة الظاهرة التاريخية من خلال ربطها بما هو واقعي وحاضر ومعاش.

يقول هشام صالح في إحدى كتاباته أنه لا يمكن للقارئ أن يفهم كلام أركون ما لم يكن متطلعا على أفكار ومفاهيم الفيلسوف ميشال فوكو، وفي الحقيقة هذا ما لا ننسأه من خلال ما سبق ذكره أولاً: هي محاولة أركون أن يماثل بين إجراءات البحث التاريخي والبحث الأركيولوجي والتشديد الضروري لدراسة التراث الإسلامي العربي وفقاً لمفهوم الإبستيمية، هذا كله راجع إلى تأثر أركون بالمدرسة الفرنسية في تلك الفترة وخاصة بفلسفة الاختلاف الذين يدعون إلى الانفتاح والاستعمال الحر للمناهج وعدم الخوض بطريقة مغلقة ومتخلفة في مواضيع لا يمكن فهمها إلا بأساليب علمية ومنطقية والابتعاد كل البعد عن السرد والطريقة الحكائية للتاريخ.

¹: محمود إبراهيم، النبوية وتجلياتها في الفكر العربي المعاصر، ص 83.

إنّ الباحث الحقيقي في نظر أركون هو الذي يستطيع الخوض في ركام العصور الغابرة والحفر في طبقاتها والتواءاتها، إنّه المتمكن في تعرية عالم الأفكار الذي يعتليه الظلام أمّا عن السلطة « فإن محمد أركون يشرع في كتابه تاريخ العلاقة بين السلطة العليا والسلطة السياسية، هو تاريخ نسميه بذلك التاريخ الذي تحدّث عنه ميشال فوكو في التراث الغربي والخاص بالقياس في المدينة اليونانية والتجريب في عصر النهضة والعلوم الإنسانية في العصر الحديث»¹.

تتقاطع تحليلات محمد أركون وفلسفة ميشال فوكو في طرحها الذي يتناول الخطاب في التاريخ بطريقة أركيولوجية والدعوة إلى ضرورة الاهتمام باللامفكر فيه والمنسي إلاّ أنّه يتجاوزه في الاهتمام بالظاهرة الدينية من خلال تركيزه على التحليل السيميائي والدلالي للنص المقدس. « يتجاوز أركون ميشال فوكو في تركيزه على التحليل السيميائي والدلالي للنص المقدس بالإضافة إلى أن المقاومة التاريخية والسياسيولوجيا إذا كانت المقاربة اللسانية تهدف إلى استعادة النص الأول على مستوى لغته، فإن الخطوة التالية من التحليل تشترط الإطار التاريخي والاجتماعي»².

يقوم مشروع أركون على وجهتين؛ نقده للمستشرقين من جهة والإسلاميين من جهة أخرى مشروعه مبني على القابلية والانفتاح والتحرر من الدوغماتيات يقول: « إنني أحلم بجمهور غير موجود لا في الجهة الأوروبية ولا في الجهة العربية-الإسلامية، أحلم بجمهور مستعد لتلقّي البحوث الأكثر انقلابية وتقنيكا لكل الدلالات والعقائد واليقينات الراسخة»³.

¹: الزواوي بغورة، ميشال فوكو في الفكر العربي المعاصر، ص 83.

²: المرجع نفسه، ص 41.

³: محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، تر: هشام صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1998، ص 189.

نلمس ممّا سبق نظرة تشاؤمية، لأن محمد أركون يعتقد أن هنالك صعوبة في تحرير العالم الإسلامي من قيود العقل المنغلق، المتحجر، هذا راجع إلى قلة القراء من جهة والثقة المطلقة في النصوص وفي الثقافة المكتوبة، كونه من أصحاب الثقافة الشفهية، إلّا أننا نلاحظ نوعاً من التفاعل في قوله: « فلأول مرّة أصبح التراث الإسلامي العريق واقعاً تحت هذا التأثير وبشكل نهائي لا مرجع عنه، بمعنى أن الأمور لن تكون بعد اليوم كما كانت عليه من قبل، سوف تضطر النواة الصلبة لهذا التراث الإسلامي إلى التغيّر والتحلّل والتبدّل لأول مرّة في التاريخ»¹.

استقبل الفكر العربي مؤلفات ميشال فوكو بحفاوة واحتراف كبيرين، متجلياً ذلك في الترجمات المختلفة لنصوصه:

- الكلمات والأشياء ترجمة: مطاع صفدي، سالم يفوت، بدر الدين عرودكي، جورج أبي صالح، كمال أسطفان.

- حفريات المعرفة: ترجمة: سالم يفوت

- نظام الخطاب: ترجمة: محمد سبيلا

- في جبالوجيا المعرفة: ترجمة: أحمد السطافي، عبد السلام بنعبد لعالي

- المراقبة والمعاقبة: ترجمة: علي مقلد.

- استعمال اللذات: ترجمة: جورج أبي صالح. محمد هشام

- تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي: ترجمة: محمد هشام. سعيد بنكراد

- تاريخ الجنسانية - استعمال المتع: ترجمة: محمد هشام. جورج ابي صالح

- يجب الدفاع عن المجتمع: ترجمة: الزواوي بغورة.

¹: محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، ص 190.

- تأويل الذات: ترجمة: الزواوي بغورة.

تتميز الكتابات الفوكوية بنوع من الاختلاف والتعدد والانفراد، هذا ما دفع بالمفكرين والباحثين العرب للاهتمام بالأعمال الفلسفية لميشال فوكو التي تدعو إلى الانفتاح والتحرر من قيود الدوغمائية إجمالاً إن الدافع الأساسي يتصل في أن فلسفة فوكو هي فلسفة الحاضر، أو بالأحرى أنطولوجيا الحاضر، كذلك أسلوبه الانقلابي، الحفري ما دفع بالباحثين العرب إلى الاستفادة من طريقته الأركيولوجية للتراث العربي والإسلامي ونقدم للحداثة، أو قضايا الأصالة والمعاصرة.

الخاتمة

«إذا كانت الفلسفة هي تذكر أو بحث في الأصول، فإن ما قمت به، لا يمكن اعتباره
فلسفة وإذا كان التاريخ ينحصر في إعادة الحياة إلى أشكال تكاد تكون مطموسة، فإن
ما أقوم به ليس تأريخاً»

في حوار مع ميشال فوكو

مقاربة ختامية:

تبين لنا من خلال دراستنا المتواضعة أن إشكالية «موت الإنسان» شغلت الحيز الكبير في الفكر الفلسفي المعاصر، خاصة مع الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو الذي تنبأ بساعة الأفل وأن مشروع الحداثة برمته قد حان زواله، وما تحمله النزعة اللإنسانية من قناعات بأن هذا المخلوق قد حانت نهايته، يصنف الطرح الفوكوي ضمن خانة فلسفة الانفتاح نحو الآفاق والإشكالات المتباينة، تميزت فلسفته بالمزج بين البنيوية والتفكيك والاختلاف، إن مشروع فوكو الواعد قد جمع بين التطلعات العلمية البنيوية وبين جينالوجيا السلطة والحفر في علاقاتها الإنتاجية، إلا أنه ما لبث أن اختار العودة صوب الذات للانتهام بها.

تراوحت فلسفة فوكو بين النسق والعبث، بين الإعلان عن موت الإنسان، وبين الحنين إليه، هذا ما أكدته في المقابلة الشهيرة له مع رابينوف ودريفوس المعروفة في كتابيهما "مسيرة فلسفية" والتي قسم فيها اهتماماته إلى ثلاث ميادين الأولى تسمى بالأنطولوجيا التاريخية في علاقتها مع الحقيقة المندرجة في أعماله الأولى، نجدها في كتاب "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" وخاصة كتاب "الكلمات والأشياء" وكتاب "مولد العيادة" وأخيرا كتاب "أركيولوجيا المعرفة" في خاتمة هذا العمل يمكننا أن نلاحظ ذلك الحوار الوهمي الذي يعتبر وبصورة جلية، نفي فوكو لانتسابه للتيار البنيوي، مؤكدا اختلافاته الجذرية معها، فكان مبتغاه هو البحث فقط في شروط إمكان المعرفة واهتماماته تنصب على الأحداث لا البنيات. أما الميدان الثاني يطلق عليه بالأنطولوجيا التاريخية وعلاقتها مع السلطة خاصة مع كتابيه: "المراقبة والعقاب"، "نظام الخطاب"، موضحا كيفية إنتاج العلاقات السلطوية أو كما يطلق عليها ميكرو فيزياء السلطة، أما الاهتمام الثالث والأخير هو تاريخ الأنطولوجيا في علاقتها مع الأخلاق، تعتبر المسألة الجمالية- الأخلاقية هي

تدارك فوكو وعودته إلى الذات التي أقبل على إعدامها سابقا، وقد خصص لهذا الميدان كتابات منها "تاريخ الجنسانية" "استعمال الذات" و"الانهمام بالذات"، إلا أن هناك نقطة مهمة لا بد من ذكرها وهي: أن هذا التحديد والتصنيف لا يعتبر تحديدا فاصلا بين ميدان وآخر، ومع ذلك فإن حيز السلطة قد أخذ القسط الوافر بين أعمال م. فوكو مقارنة بأعماله السابقة أو اللاحقة وهذا ما يعبر عنه هو نفسه في تصريح له: أن ما يضايقه في أعماله الأخيرة، لم يعطيها اهتماما، كما قدمه لمسألتي؛ المعرفة والسلطة. حاولنا تلخيص أهم محطات هذا العمل لكن قبل التطرق إليها نذكر أبرز الملامح الفكرية والمرجعيات الفلسفية لدى الفيلسوف:

- أعجب ميشال فوكو بمدرسة الحوليات التي تأسست 1929، لما تحمله من شعارات التغيير معتمدة على المناهج المعاصرة، تدعو إلى معالجة القضايا الراهنة، كان طموح فوكو نحو الانفتاح، رفض كل الرفض المفهوم التقليدي للتاريخ الذي يركز على السرد والشخصيات العظيمة بل كان اتجاهه نحو الطبقات الكادحة.
- اهتم فوكو بالوثائق وبضرورة التقيب فيها وفقا لمناهج معاصرة تتماشى والواقع، فالتاريخ عنده هو الممارسة الفعلية وتجسيدها اجتماعيا فالمنهج التصنيفي هو الكفيل في احتواء المعرفة التاريخية، إلا أن هذا لا يمنعنا أن نوجه انتقادات في هذه النقطة والمتمثلة في ميل فوكو إلى الفقرات الكبرى وتجاوزه إلى الأمور الدقيقة وإلى دور الشخصيات في تحريك التاريخ.
- تتميز أعمال فوكو بالندرة، تتسم باللغة الثورية فالحقائق ليست مطلقة وثابتة هذا ما دفعه في التشكيك في صيرورة التاريخ.
- تأثر ميشال فوكو بأستاذة التوسير، ما دفعه إلى دراسة أعمال كارل ماركس الثورية فهذا الأخير في نظر فوكو قام بزعزعة وعي الناس التاريخي بما يسمى القطيعة الراديكالية وأن الفلسفة الماركسية دشنت حقلا معرفيا جديدا، إنها المادية الجدلية.

- إن كتاب "رأسمال" لماركس يعدّ من أهم المراجع الفكرية المهمة عند فوكو، فقد جعل من الاقتصاد أهم الركائز الثلاث التي تتدخل في بنى الفكر الغربي.
- بعد أحداث 1968 وفي بداية السبعينات كانت بمثابة الاختمار الفكري الفوكوي تعلّم فيها الألمانية، هذا ما جعله شغوفاً إلى الاطلاع على النصوص النيتشوية، هذا كله يعتبر انزياحاً نحو الجينياالوجيا، كان الدرس النيتشوي الهدّام مهم جداً بالنسبة إلى فوكو، كما يصرّح في أحد الحوارات أنه نتشوي بامتياز، فالثقافة الجديدة التي تبناها فوكو، قد بدأت مع نيتشه الذي أعلن عن موت الإله، هو بمثابة موت للمفاهيم الميتافيزيقية والفلسفات التقليدية، ليأتي فوكو ويعلن عن موت الإنسان.
 - ساهم التحليل النفسي في نظر فوكو في تغيير التصور الإنساني وتطور الفكر الغربي.
 - إن التحليل النفسي الفرويدي واللاوعي هو من أهم زوايا اللامفكر فيه، لأن مساحة اللاشعور في نظر فوكو هي بمثابة أهم التقنيات التي تساعدنا في فهم ذلك الكائن الغربي، إن فرويد في نظر فوكو من بين أكثر العلماء والباحثين الذين اقتربوا في معرفة الإنسان الحق.
 - خلق فرويد، في التفكير الفوكوي، التفاتاً بالغاً في البحث عن علاقة السلطة والجنس، إن إنسان فرويد هو المهتز، اللاسوي، إنّه مجموعة من الرغبات والشهوات، هو نفسه إنسان فوكو الذي أعلن عن موته.
 - أبرز فوكو الدور الحقيقي الذي لعبته الفلسفة الارتيايبية على ساحة الفكر.
 - وجد فوكو ضالته مع الفلسفة الكانطية التي وصفها بالمخرج والمنفذ، إن اللّحظة التي طرح فيها كانط سؤال ما الأنوار: هي بمثابة النقطة المحورية في تغيير خريطة التفكير الفلسفي، إنّها دخول لحقبة فلسفية جديدة، إلا أن فوكو يختلف مع

كانط في تصريحه «بأننا سنكون أسيادا» ليردّ عليه قائلا: «لا أعتقد أننا سنكون أسيادا، فتجارنا تقننا بأن الحدث التاريخي للأتوار لم يجعل منا أسيادا».

- ترتكز الفلسفة الأركيولوجية على أهم ركيزة وهي القطيعة والاستمرارية، فقد وجد فوكو ضالته مع الفيلسوف "غاستون باشلار" و "كانغليام"، تزعم هذين الفيلسوفان الفلسفة القطائعية سميت بالأبستمولوجيا الانفصالية. يُصرح فوكو أن الفضل في فهمه التاريخ العلوم يعود إليها، وهذا ما ألهمه من خلال دراسته لخصائص ابستيمي كل حقبة وتحديد مقولات كل عصر القائمة على الاستمرارية، إلا أن فوكو يقع في تناقض لما نجده من اختلاف بين مبادئ الابستمولوجيا والأركيولوجيا، هذه الأخيرة اليت تعلن استقلاليتها ايزاء الصفة العلمية، نجده هنا تعامل مع العلوم الإنسانية كونها مجرد معارف، دون أن يعطيها قيمتها العلمية.
- انبثق الفكر الفوكوي في بيئة ثقافية ساد فيها التيار البنيوي وذاع صيته إنه مذهب يفند النزعة الإنسانية بكل مقاييسها، يقتلعها من جذورها التقليدية ليخصص لها م. فوكو منهاجاً أركيولوجياً يجعله متميزاً داخل الحيز البنيوي، يهدف الحفر المعرفي إلى التعرف على المنطلقات التي أصبحت المعارف والنظريات ممكنة فهي ليست تاريخاً للأفكار ولا تاريخاً للعلوم.

- تبرز خصوصية فوكو من خلال ارتباط اللغة بالقضايا الفلسفية في البحث الأركيولوجي خاصة مع موضوع "أركيولوجيا العيادة" ومع "الجنون" و"المرض" مقارنة مع "نيتشه" و"هايدغر".

- حاول فوكو سلخ دور الذات، إلى درجة أن بنية كل عصر تنتهي وتختفي باختفاء أو تغير الكلمات والمعاني فقط، إن أركيولوجيا فوكو ليست بحثاً تأويلياً، إنها دعوة إلى ما وراء النص واستنطاق المسكوت عنه والمهمش وهذا ما نجده في حوار له سنة 1969 موضحاً تفويضه للنزعة الإنسانية ونفيه للدور الذات "إن النزعة

الإنسانية هي أثقل ميراث انحدر إلينا من القرن 19 التاسع عشر وقد حان الأوان للتخلص منه ومهمتنا الراهنة هي العمل على التحرر نهائيا من هذه النزعة".

- إن قلب المشكل عند فوكو البنيوي هو عجز العلوم الإنسانية عن مسايير العلم وضرورة الفطنة في إعادة النظر في مكونات الخطاب الفلسفي عن الإنسان لمصلحة الإنسان.

- قام فوكو بتفويض النزعة الإنسانية، مستندا على منهجه الأركيولوجي، الذي عمد من خلاله إلى استنطاق البنى المعرفية لكل عصر بداية مع عصر النهضة ثم العصر الكلاسيكي إلى غاية العصر الحديث، استعمل م. فوكو في تحليلاته الأركيولوجية مفهومي: "المقال" "الوثيقة" فقد كان هدفه الأساسي في هذه المرحلة هو الكشف عن الأرضية التي تقوم عليها المعارف في كل فترة معينة من خلال إبراز "ابستيمي" كل حقبة والحفر في علاقاتها المختلفة، إن عمل فوكو الحفري هو دراسة للمفاهيم من حيث ظهورها واختفائها، إنه تأسيس جديد للمعرفة وكشف شروط إمكانها، وتسمى أبحاث فوكو ضمن هذا الإطار بالدراسة الأركيولوجية للممارسات الخطابية والتي تتضمن مفاهيم جديدة كالإبستيمية، التشكيلة الخطابية، المنطوقات، الندرة، البنية، نفي دور الذات، تفويض التاريخ التقليدي.

- استطاع فوكو رصد التحولات والانتقالات، داخل النظام المعرفي والوقوف عند أشكال الانفصال والانكسار بين مرحلة وأخرى وتبيان لغة كل حقبة، نستلها مع عصر النهضة؛ الذي كانت تحكمه لغة التشابه بمعنى لا وجود لفروق بين الكلمات والعلامات تحكم هذه الحقبة لعبة العلامة والتشابه إلا أن عصر النهضة بدأ يضمحل ويختفي ليظهر ابستيمي جديد "التصوير والتمثيل" ويحل محل التشابه، فقد كانت نتيجة هذا الانقطاع ظهور بما يعرف بـ "الخطاب"، إنه عصر

النظام، لكن لم تدم هذه اللغة لتتجاوز التمثيل ويأتي ظهور الإنسان والتاريخ مع العصر الحديث.

- يهدف المشروع الأركيولوجي إلى تحديد القواعد والممارسات الخطابية، ليجعل من اللغة الدور الأساسي والمحوري في تأسيس النظام المعرفي وهذا ما صرح به في كتابه "الكلمات والأشياء" ص 298 "ليس الإنسان هو الذي يبني العلوم ويعطيها ميدانا خاصا بها"، لكنها جاهزية الاستيمية العامة التي تفسح المكان لها، تستدعيها وتتثنى سامحة لها بأن تكون الإنسان موضوعا لها".
- يتبنى فوكو في أعماله الأولى، القطيعة الاستيمولوجيا، فالتاريخ عنده هو تاريخ الانفصالات، والانكسارات والثورات، إنه تاريخ التنكر والاعتراب إن قول فوكو بالقطيعة هو نفي للاستمرارية التاريخية والاتصالية العلمية، فقد سبقه فيها أستاذه "باشلار" الذي عالجهما بعمق وبشكل أشمل دون أن ينفي أو يقصي دور الذات التي قام فوكو بوضعها في قوالب وخانات متحجرة وجامدة ومنغلقة، يحكمها نظام ونسق معين، تنفي كل النفي روح التغيير وتدنر طبيعة الإنسان الثورية الإبداعية.
- تلاشت البنيوية، فلم يكتفي فوكو بالبحث في الأرشيف، بل كان على شغف كبير لمعالجته لقضية السلطة وعلاقتها بالمعرفة والجنس، بدأت النزعة التهكمية على الإنسان تتصهر وتختفي، ليذهب فوكو نحو الفئات المهمشة والمقهورة والكشف عن مواطن القمع والقهر، كل هذا ميز فوكو عن معاصريه من المفكرين والفلاسفة، فقد قدم مفهوما جديدا لخطابات السلطة.
- تعتبر السلطة في المشروع الفلسفي عند فوكو من أهم المواضيع التي حضيت بها أعماله وما لها من علاقات مع الممارسات غير الخطابية وللسلطة مميزات تجعلها مختلفة عن المفهوم التقليدي، إنها موزعة في الجسد الاجتماعي كله، متمثلة في ثلاث أشكال السلطة الانضباطية، السلطة الحيوية، السلطة الرعوية.

- اعتمد فوكو في وصفه للممارسات غير الخطابية على المنهج الجينولوجي، ليكشف عن علاقات السلطة باعتبارها منتجة ومنتشرة في الجسد الاجتماعي سواء كانت مؤسسة أو ذات.
- ترتبط السلطة حسب رأي فوكو بالمعرفة لتظهر في أشكال: القياس، التحقيق، الامتحان.
- كشف فوكو عن علاقة السلطة بالجنس ليظهر ذلك الجسد المنتهك المغتصب، فقد ناقش فوكو هذه المسألة، كان هدفه هو الكشف عن كيفية تشكّل الجنس في الخطاب من خلال مفهوم الجنسانية، مبرزاً الآليات السلطوية المتحكمة فيها، من أهمها: "آلية الاعتراف"، هذه الأخيرة بواسطتها يتم تشكيل خطاب عن الذات وكيفية التعرف عليها.
- قدّم فوكو محاضرات ما بين 1980-1981 موسومة بـ "الذاتية والحقيقة" ومحاضرات ما بين 1981-1982 وهي عبارة عن دروس عنونت بـ "تأويلية الذات" تعبر تلك الأعمال آنفة الذكر عن التفاتة فوكو وعودته إلى الإنسان وابتعاده عن مواضيع السلطة.
- كان إسهام فوكو في تأسيس سوسولوجيا الجسد، فعّالاً، وهذا ما نجده جلياً في أطروحته حول الجسد والعودة إلى الذات ليضرب بالكوجيطو الديكارتية، الذي يُعلي من دور الروح على حساب الجسد هذا الأخير الذي يعدّ مكباً للنفايات والنوازع والرغبات، يأتي فوكو ليضع الجسد في قلب الاهتمام، فأنشغل بمحاولة فهمه لكيفية دخول الجسد للخطاب السياسي وكيف تمارس السلطة نفوذها على الجسد.

- لم تكف الفلسفة الفوكوية عن مسائلة وتفحص مفهوم الفرد والمجتمع فكان همّه جعل من مسألة الذات منطلق كل فلسفة وغايتها، هذا ما نجده في كتابه؛ "العناية بالذات" الذي يُعدّ مرحلة محورية وهامة لفهم تاريخ العلاقات الإنسانية الراهنة.
 - إن ما سعى إليه فوكو من خلال الفعل الأركيولوجي - الجينيولوجي، التوغل في النسيج الاجتماعي بكل تلبساته وهامشياته والبحث في الأماكن المهجورة التي تشكل الحلقة المفقودة للحقيقة.
 - تعتبر الذات عند فوكو مجموع تفاعل بين الرغبة والمعرفة والسلطة، إنّ القراءة الفوكوية بمثابة اللحظة الحاسمة من التاريخ الفكر الغربي المعاصر لإظهار الخفيات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والمعرفية التي تحكم علاقة الفرد بالمجتمع.
- في الأخير ومن خلال المناقشة الاجمالية نتوصل إلى أن موت الإنسان عند فوكو، ليس هو الموت البيولوجي، بل هو موت في إطاره المعرفي المتشكل.
- وهذا ما دفعنا إلى التساؤل لماذا الكتابة حول الموت؟ إن الموت المحتوم عند فوكو هو موت مؤسساتي اجتماعي، سياسي، تمكن الفيلسوف من خلال أبحاثه من تشخيص الأسقام التي طالما عانت ومازالت تعاني منها العلوم الإنسانية، فنبوءة فوكو بموت الإنسان، جاءت من خلال تساؤلات جمّة هل فعلا ما زالت هذه العلوم تهتم بالإنسان، وهذا ما نشهده اليوم من انتشار الأوبئة وسيادة العقل الأدوات، الذي أصبح فيه التطور التكنولوجي الأعمى، هو السيّد والمركز.
- إنّ ما دأب عليه فوكو، يمثّل صرحا فلسفيا وثقافيا ضخما يصبو إلى النهوض بالعلوم الإنسانية، عمل لمُدّة طويلة على تفكيك شفرات المجتمع الغربي وفضح شعارات الأنوار المزيفة، إلّا أننا نقف هنا لنتساءل لماذا تغافل فوكو عن دور الحضارة العربية وتأثيرها

على التطورات التي شهدتها الحضارة الغربية؟ خاصة المرحلة الرشدية، هذا من جهة،
ومن جهة أخرى نطرح كذلك تساؤلا آخر؛ لماذا تناسى ميشال فوكو البعد الديني في تطور
وازدهار الحضارات؟ وهل قوله أن الدين هو عقل مجتمع بلا عقل بمثابة تفنيدا له؟

رحلة فيلسوف:

ميشال فوكو، مفكر وفيلسوف فرنسي، من أبرز أساطين الفكر في النصف الثاني من القرن العشرين، ولد يوم 15 أكتوبر 1926 في مدينة بواتييه Poitiers لأسرة برجوازية ، كان والده الطبيب الجراح بول فوكو، على أمل أن يكبر ابنه ويمتهن الطب، تراوح عند تحصيله العلمي بين المتوسط والجيد ثم التحق بمدرسة نورمال سوبريور Ecole Normale Supérieure، عندما وقعت بلدته تحت سيطرة الاحتلال الألماني، عانى ميشال فوكو من اضطرابات نفسية حادة حتى بلغت درجة الانتحار، إلا أنه تعافى منها فيما بعد، هذا ما جعله مولعا بعلم النفس والذي تحصل فيه على إجازة، مع إجازة في الفلسفة، انظم ميشال فوكو إلى الحزب الاشتراكي الفرنسي 1950-1953 لكن ما لبث إلا أن تركه، حتى أنه لم يكن عضوا ناشطا كغيره من المنخرطين قبلها التحق بالمدرسة العليا للأساتذة 1946.

- بعد تخرجه 1952، التحق بجامعة ليل. ثم ملحقا ثقافيا في أوبسالا universyté of Uppsala في السويد. اشتغل استادا في جامعة وارسو في بولندا وفي جامعة هامبورغ في ألمانيا.

عاد إلى فرنسا سنة 1960 ثم ناقش رسالته في الدكتوراه في المدرسة العليا للأساتذة 1961، تحت عنوان الجنون واللامعقول والتي نشرت في كتاب "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي".

اشتغل مدير القسم الفلسفة في جامعة باريس "المركز التجريبي في فينسين"، سنة 1969 وهي نفس السنة التي نشر فيها كتابه "حفريات المعرفة في 1970منح كذلك كرسي البحث

العلمي في تاريخ أنظمة الفكر في كوليج دو فرانس Collège de France

- زار عدّة جامعات دولية كالبرازيل والولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا وكندا، كان محاضرا زائرا في جامعة كاليفورنيا بيركلي.

فوكو في إيران:

في عام 1978، وبينما بلغت التظاهرات ضد الشاه في إيران أوجها، عمل ميشيل فوكو مراسلاً صحافياً خاصاً لجريدتي: (كورير ديلا سيرا (Corriere della Sera) و(لونوفل أوبزرفاتور (le Nouvel Observateur) عمل فوكو صحافياً لفترة قصيرة، فسافر إلى إيران، التقى بقيادة وبسياسيين وناشطين في التظاهرات التي قادتها المعارضة ضد نظام الشاه، كما التقى بأناس عاديين، التقى أيضاً بالخميني في ضواحي باريس، وكتب سلسلة من المقالات عن الثورة. معظم هذه المقالات لم يظهر بالإنكليزية إلا مؤخراً.

قدم فوكو من خلال مقالاته رؤية لما سماه "الروحانية السياسية" فأثار الزخم الذي تحركت به الثورة حماسه، وبدا وكأنه يدعم اتجاهها الإسلامي، وفي حين اعتقد كثيرون أن اليسار العلماني سوف يزيح التيار الإسلامي بعد سقوط الشاه، أطلق هو تهكماً واضحاً من أصحاب تلك النظرة، ورأى في الحركة الإسلامية بل وفي الإسلام برميل بارود سيغير ميزان القوى في المنطقة، وربما أكثر من خلال مقاله (الإسلام، برميل بارود).

يعتقد كثيرون في الغرب بأن كتابات فوكو حول إيران كانت زلة أو خطأ سياسياً وفكرياً في الحسابات، وأنه تحمس أكثر مما يجب للنظام الإسلامي، ولم يتح لنا الحصول على معلومات حول موقف فوكو من أداء الحكم الإسلامي الذي تزعمه الخميني في إيران بعد سقوط الشاه، ولا حتى تعليقا عن الحرب العراقية الإيرانية التي بدأت سرعان ما تسلم الإسلاميون السلطة، رغم أن فوكو عاش حتى 1984، حين كانت الحرب العراقية الإيرانية ما تزال مستعرة.

عادت كتابات فوكو عن إيران إلى الساحة الثقافية مؤخراً بعد أحداث 11 أيلول (سبتمبر) 2001، وكذلك من خلال كتاب (فوكو والثورة الإيرانية 2005) الذي ناقش الكتابات واعتبرها استنقازية لكن جوهرية لفهم تاريخ ومستقبل العلاقات الغربية الإيرانية، وبشكل أعم العلاقات الغربية مع الإسلام السياسي، يعرض التحليل لمحات مدهشة أبرزها عقل المفكر.

توفي بتسمم الدم، الناتج عن إصابته بالإيدز 1984، حتى أنه لم ينشر بعد الجزء الرابع من المجلد "تاريخ الجنسانية".

اهم مؤلفاته:

- كتاب تاريخ الجنوب في العصر الكلاسيكي 1961.
- ولادة العيادة 1963.
- الكلمات والأشياء 1966.
- حفريات المعرفة 1969.
- المراقبة والعقاب 1975.
- نظام الخطاب 1971.
- يجب الدفاع عن المجتمع 1976.
- تاريخ الجنسانية 1976.
- ج 1 إرادة المعرفة 1980.
- ج 2 استعمال المتع.
- ج 3 هوس الذات.

الاسم: ميشال فوكو

أمكنة وأوساط

من برجوازية الأرياف، إلى جامعات كاليفورنيا، يمرُّ المسار النَّادر لميشال فوكو بالسويد وتونس قبل أن يلتحق بالكوليج دور فرانس، والحركات الاحتجاجية.

12 تاريخا

1926: ولادته في بواتيه

1946: دخل المدرسة العليا للمعلمين

1950: انتسب إلى الحزب الشيوعي وتركه بعد ثلاث سنوات

1954-1959: عين ملحقا ثقافيا في أو بسالا، في السويد.

1961: نشر كتاب الجنون وغير المعقول وتاريخ في العصر الكلاسيكي

1965: عمل أستاذا جامعيا في تونس

1966: نشر كتاب الكلمات والأشياء

1970: انتخب أستاذا في الكوليج دوفر فرانس

1972: شارك في تنظيم لجنة عمل السجناء

1975: نشر كتاب المراقبة والعقاب

1976: باشر في نشر تاريخ الجنسانية

1984: مات في باريس بمرض السيدا

مفهومه عن الحقيقة:

الحقيقة في نظر فوكو تعتمد على منظومات الفكر، تُعبر عن علاقة قوة، تولد أثارا في الجسد وفي التصرفات.

جملة جوهرية:

الإنسان ابتكار يبين تنقيب فكرنا حداثة تاريخه، ربما نهايته القادمة¹.

1: روجيه بول، أساطين الفكر، تر: علي نجيب إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، 1992.

قائمة المصادر والمراجع

1- قائمة المصادر باللسان العربي:

- ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2006.
- الطب السريري، تر: اياس حسن، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 1990.
- الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي وآخرون مركز الإنماء العربي، بيروت، لبنان، 1990.
- حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان 1987.
- نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، التنوير للطباعة والنشر، ط3، بيروت، لبنان 2012.
- المراقبة والعقاب، ولادة السجن، تر: مطاع صفدي مركز الإنماء العربي بيروت لبنان، 1990.
- جينالوجيا المعرفة، "نيتشه، فرويد، ماركس"، تر: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2008.
- تاريخ الجنسانية، إرادة المعرفة، (ج1)، تر: مطاع صفدي وجورج أبي صالح، بيروت، لبنان، 1990.
- تاريخ الجنسانية، استعمال اللذات، (ج2)، تر: جورج أبي صالح، مركز الإيماء القومي، بيروت، لبنان، 1991.

- تاريخ الجنسانية، الانهماج بالذات (ج3) جمالية الوجود وجرأة قول الحقيقة، تر: محمد ازويطة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2015.
- دروس ميشال فوكو، "تأويلية الذات"، (1970-1982)، تر: محمد ميلاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1994.
- يجب الدفاع عن المجتمع (دروس ألقيت في الكوليج دو فرانس 1976)، تر: الزواوي بغورة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

مجلات:

- ميشال فوكو، (ما الأنوار)، تر: حميد طاس، مجلة فكر ونقد، العدد 5، يناير 1998.
- ميشال فوكو، (ما الأنوار)، مجلة الجابري، العدد 5، 15/ 11/ 2015.

قائمة المصادر باللسان الفرنسي:

- Entretien avec M. Foucault, In la quinzaine littéraire° 46,1968.
- Entretien sur la prison, le livre et sa méthode, Magazine littéraire, N° 101, Juin 1975.
- Entretien Michelle Foucault Avec Duccio Tombaton, N04, Paris, 1980.
- **Michele Foucault**, l'ordre du discours, Paris, Gallimard, 1971,
- histoire de la folie à l'âge classique, Gallimard, Paris, 1972.
- les mots et les choses, ed ; Gallimard, Paris, 1966.
- Nietzsche, Freud, Marx, dit et écrit (1954 1999) tome I, NRF Gallimard, Paris, 1994.
- surveiller et punir Naissance de la prison, nrf Gallimard, Paris, 1975.
- Maladie Mentale et psychologie, puf, Paris, 1997.

- Gilles Deleuze, les intellectuels et le Pouvoir, l'arc, N49, 2^{eme} Trimestre, 1972.
- La Gouverne mentalité in magazine littéraire, N269.
- Naissance de la clinique, Ed céres, Tunis, 1995.
- L'archéologie du savoir, Ed Gallimard, Paris, 1969.

2- قائمة المراجع باللسان العربي:

- إبراهيم محمود، البنيوية وتجلياتها، دار الينابيع للنشر والتوزيع، دم، 1994.
- إبراهيم جيجيكة، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو، منشورات الاختلاف، دم، 2011.
- أحمد يوسف، القراءة النسقية- سلطة البنية والمحايثة، منشورات الاختلاف، ط1، 2007.
- إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، حوارات مع إدوارد سعيد: تر: نائلة قلقل حجازي، دار الأدب، بيروت د. ط، 2008.
- الاستشراق (المعرفة، السلطة، الإنشاء)، تر: كمال أديب، بيروت، لبنان، 1984.
- الزاوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو، دراسة ومعجم، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 2015.
- الفلسفة واللغة نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2005.
- مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.
- حضور ميشال فوكو في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2014.

- الزواوي رايس، اشكالية موت الانسان، في خطاب العلوم الانسانية، مكتبة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2016.
- النظام المعرفي للعلوم الإنسانية ميشال فوكو، صفحات، ط1، دمشق، سوريا 2015.
- ميشال فوكو بين الإنسان والحيوان خط رفيع، دار الصفحات، ط1، دمشق، سوريا، 2014.
- إيمانويل كانط، نقد العقل الخالص، تر: موسى وهبة، مركز الانماء القومي، بيروت، لبنان، د.س.
- جون بول سارتر، دفاعا عن المثقفين، تر: جورج طرابيشي، دار الأدب، مؤسسة الأبحاث، بيروت، ط1، 1984.
- جون ستروك، البنيوية من ليفي ستروس إلى دريدا، تر: محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، ط1، د.س.
- البنيوية وما بعدها، من ليفي ستروس إلى دريدا، تر: محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1996، ص9.
- جيل دولوز، المعرفة والسلطة مدخل إلى قراءة فوكو، تر: سالم يفوت، بيروت المركز الثقافي العرب، 1987.
- حسين موسى، الفرد والمجتمع عند ميشال فوكو، دار التنوير، بيروت، لبنان، 2009.
- روجي غرودي، البنيوية فلسفة موت الانسان، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1979.
- روجيه بول، أساطين الفكر، تر: علي نجيب إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، 1992.

- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون و كمال الدسوقي، دار الافاق الجديدة، د ط، دن.
- زكريا ابراهيم، مشكلة البنية، أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، القاهرة، مصر ، د.س ، ص 30
- سيغموند فرويد، الكبت تحليل نفسي، تر: علي السيد حضارة، المكتبة الشعبية، القاهرة، مصر، دس.
- مسائل في مزولة التحليل النفسي، تر: جورج طرابشي. دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1992.
- سيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة، دار المنتخب العربي، ط 1، بيروت، لبنان 1994.
- عبد الرزاق بلعقروز، نيتشه ومهمة الفلسفة، الدار العربية للعلوم، ط1، 2010.
- المعرفة والارتياب (المسألة الارتيابية لقيمة المعرفة عند نيتشه وامتداداتها في الفكر الفلسفي المعاصر)، منتدى المعارف، ط1، بيروت، 2013.
- عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر فوكو وآخرون، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1992.
- عبد العزيز العيادي، المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان 1994.
- عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
- عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة، دار المعارف، مصر، د.ط، 1989.
- عمر مهيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط3، 1993.

- إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار العربية للعلوم (منشورات الاختلاف)، ط1، بيروت ، لبنان 2005.
- عبد الله بن بلقزوز، نقد التراث، ط2، مركز الدراسات الوحدة العربية، 2014.
- فريدريك نيتشه، هذا هو الإنسان، تر: على مصباح، منشورات الجمل، د.ط، د.س.
- عدو المسيح، تر: ميخائيل جورج ديب، دار الحوار، ط2، د س.
- في جينالوجيا الأخلاق، تر: فتحي المسكيني، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس 2010.
- مولد التراجم، تر: شاهر حسن عبيد، دار الحوار للنشر و التوزيع، ط1، اللاذقية، سورية، 2008.
- فؤاد زكرياء، الجذور الفلسفية للبنائية حوليات، كلية الآداب، جامعة الكويت، 1980.
- ماكس فيبر: رجل العلم ورجل السياسة، تر: نادر زكري، دار الحقيقة، بيروت، 1982.
- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1984.
- محمد علي الكردي، وجوه وقضايا فلسفية (ديدرون بطاي، فوكو)، دار مطابع المستقبل، الإسكندرية، ط1، 1998.
- محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، تر: هشام صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1998.
- مراد وهبه، المذهب عند كانط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1974.
- مصطفى الحسناوي، (فوكو والسياسة)، ط1، منشورات الاختلاف، 2003.
- مطاع صفدي، نقد العقل الغربي، الحداثة وما بعد الحداثة، مركز الانماء القومي، بيروت، لبنان 1990.

- لكحل فيصل، إشكالية تأسيس الدزايين في انطولوجيا هايدغر، ط1، كنوز الحكمة للنشر الجزائر، 2001.
- نبيل السيماروطي، علم اجتماع العقاب، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، جدة 1986.
- نعوم تشومسكي، ميشال فوكو، عن الطبيعة الانسانية، تر: أمير زكي، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، 2019.
- وبيير دريفوس وبول رابينوف، فوكو، مسيرة فلسفية، تعريب جورج أبي صالح، مركز الانماط القومي، بيروت، لبنان، د.س.
- يورغان هبرماس، القول الفلسفي للحدث، تر: فاطمة الجبوشي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق 1999.

3- الأطروحات والرسائل:

- زاوي برايس، الفضاء الإبتيمولوجي للعلوم الإنسانية لدى فوكو: السلطة المقاومة والحقيقة، إشراف: أ.د مولفي محمد، مشرف مساعد: ابن عمار سواريت، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، 2004-2005

4- المجلات:

- الشريف بن زينب (غاستون باشلار وكوجيتو التعلم)، مجلة دراسات انسانية واجتماعية، العدد 2، جامعة وهران 2، قسم فلسفة 2020/02/16.
- أندريه سكال، وجيل باريدات، (عودة الأخلاق كسؤال فلسفي ما بعد حدثي)، مجلة الاستغراب، العدد 04، 2016.
- بلخير بومحراث، (الخطاب و التاريخ في فلسفة ميشال فوكو)، مجلة تدوين ، العدد 4، ديسمبر 2012.

- جوزي ماركو راء (الانغلاق الكبير)، تر: عبد الرزاق جيلالي، مجلة دراسات عربية، العدد 11 و 12، 1989.
- محمد عودة السبتي، (ميشال فوكو والتزهد الجنسي جماليات فن العيش)، مجلة العلوم الإنسانية، مجلد 1، العدد 17، كلية التربية للعلوم الإنسانية بابل العراق، 2013/08/31.
- سمير بلكفيف (هابر ماس والارث الكانطي)، مجلة دراسات انسانية واجتماعية، العدد 3، جامعة وهران 2، قسم فلسفة سبتمبر 2015.
- عبد الله عبد اللاوي، (المشروع الفلسفي والأركيولوجي عند ميشال فوكو)، مجلة تدوين، العدد 04، ديسمبر 2016، جامعة وهران 2، الجزائر.
- هشام صالح، فيلسوف القاعة الثامنة، الكرمل، مجلة قبرص، العدد 13، 1984.
- ماريكوز، (فوكو، الانغلاق الكبير أو محادة الجنون)، سترة عبد الرزاق الجيلالي، دراسات عربية، العدد 11، 12، 25 أكتوبر 1989.

5-المقالات:

- أحمد طريبق، فرويد والفلسفة والعلوم الإنسانية، 23 مارس 2015.
- حسام أبو حامد، (الذات بوصفها موضوعا جماليا)، صفحة ثالثة، منبر ثقافي عربي، 15 يونيو 2020.
- حسن ابراهيم عبد العظيم، (ميشال فوكو وتأسيس وسيولوجيا الجسد)، الحوار المتمدن، 17-06-2011.
- هيثم سرحان، جماليات النقد المعرفي وحرفية التواصل الفلسفي، الاتحاد، 2007/10/06.

6- المعاجم:

- جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، لبنان 1987.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، 1978.

7- الموسوعات:

- جورج زينات، الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، مركز الانماء العربي، 1986.
- عاد فاخوري، نظرية الأفعال الكلامية، في موسوعة الفلسفة العربي، المجلد الثاني.

8- حوارات:

- حوار بين الزواوي بغورة والمهدي المستقيم، ميشال فوكو في الفكر العربي المعاصر، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 2018/08/11.

قائمة المراجع باللسان الفرنسي:

- Emmanuel Kant, Qu'est les lumières in critique De la faculté du juger, Gallimard, Paris, 1985.
 - Frédéric Gros, Foucault et la folie, Puf, Paris, 1997.
 - **Gilles Deleuze**, Foucault, vol 43, num01, 1 février .
-Pour parler, Ed Munuit, Paris, 1990.
 - Jurgan Hebermas le discours Philosophique de la Modernité , tard :
Cristien Bouclind homme galimmard, paris, 1980.
 - Michel Dufrenne , La philosophie du néo- positircisme, in esprit mai,
1967.
 - Maritti (Engek. Kremer) M.Foucault, Archéologie et Généologie,
Librairie générale française, DL 1985
 - Raymond Bellow le livres des auntaes, édition de hermes.
- B. Ashoroft ,GGriffths and H,Tiffiu the enpireswhrites back . theory
and practi ce in poStcoloiallittratures, lonéton and Neutyork, Routhedge,
1982.

قائمة المصطلحات:

A		
Aliénation	اغتراب	01
Autre	الآخر	02
Analyse de discours	تحليل الخطاب	03
Anatomie Politique	تشريح سياسي	04
Archéologie	أركيولوجيا	05
Archive	أرشيف	06
Arsérotica	فن شبقي	07
B		
Bio Politique	سياسة حيوية	08
Bio Pouvoir	سلطة حيوية	09
C		
Carcéral	اعتقالي	10
Champs de problamation	حقل الطرح الإشكالي	11
Utilise de Plaisirs	استعمال اللذات	12
Codes Morales	قواعد أخلاقية	13
Copuresepistimologique	قطيعة ابستمولوجية	14
Connul	تراكم	15
D		
Dialiquite	جدل	16
Discipline	انضباط	17
Discontinuité	انفصال	18

Document	وثيقة	19
Doxologie	علم الوثائق	20
Discontinuité	لا تواصل	21
E		
Enoncé	منطوق	22
Épistémè	ابستمية	23
Evènement	حدث	24
Expérience	تجربة	25
Extériorité	خارجية	26
F		
Formation discursive	تشكيلة خطابية	27
G		
Généalogie	جينيالوجيا	28
H		
Herméneutique	تأويل	29
Herméneutique de soins	تأويل الذات	30
Histoire de la sexualité	تاريخ الجنسية	31
I		
Impensée	اللامفكر فيه	
Institution	مؤسسة -نظم	
L		
Langage discursif	لغة خطابية	

M		
Microphysique du pouvoir	ميكرو فيزياء السلطة	
O		
Ordre	نظام	
P		
Poststructuralisme	ما بعد البنيوية	
Pouvoir pastoral	سلطة رعوية	
Pratique discursive	ممارسة خطابية	
Pratique non discursive	ممارسة غير خطابية	
R		
Représentation	تمثيل	
Ressemble	تشابه	
S		
Savoir	المعرفة	
Sexualité	جنسانية	
Signifiant	دال	
Signifié	مدلول	
Structure	بنية	
Système	نسق	

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

شكر وتقدير.....

إهداء

مقدمة..... أ

الفصل الأول : الإرتسامات الأركيولوجية وشكل العلوم الإنسانية عند ميشال فوكو

المبحث الأول :الأصول المرجعية للفكر الفوكوي.....17

1. فوكو ومدرسة الحوليات.....18

2. فوكو والفلسفة الارتيابية.....21

1.2. ماركس وثنائية الكثرة.....21

2.2. فوكو وجينياالوجيا السلطة.....26

3.2. فرويد ووهم الحضارة:.....31

3. فوكو انطولوجيا الحاضر.....36

4. القطائع الابستمولوجية في الأفق الفوكوي.....40

المبحث الثاني: المنهج الأركيولوجي مشروع الثقافة الجديدة.....43

1. خطوات المنهج.....46

2. مبادئ المنهج.....48

3. قواعد المنهج.....54

4. المنهج الأركيولوجي مقابل المناهج الأخرى.....55

55	1.4 المنهج الأركيولوجي ومنهج تاريخ الأفكار
58	2.4 الأركيولوجيا والتحليل اللغوي
59	3.4 بين الأركيولوجيا والهيرمينوطيقا) التأويل وفنه
62	المبحث الثالث : شكل العلوم الإنسانية عند ميشال فوكو.....
64	1. القطاع السيكلوجي
66	2. الأثنولوجيا
68	3. التاريخ
	الفصل الثاني: الفضاء الإستمولوجي-البنوي عند ميشال فوكو
75	المبحث الأول : في مفهوم البنية والنسق.....
81	1- بين الأركيولوجيا والتحليلي الالسنوي البنوي
83	2- مفهوم الممارسة الخطابية
85	3- عناصر الخطاب
85	أولا : المنطوق واللغة.....
86	ثانيا : المنطوق والإشارة.....
87	ثالثا : المنطوق والجملة.....
87	رابعا : بين المنطوق و فعل الكلام
88	خامسا : بين المنطوق والقضية
92	المبحث الثاني : الانقطاعات الابستمولوجية لبنية العقل الغربي قراءة فوكوية.....
97	1- خصائص ابستيمي عصر النهضة.....

100	أولاً : التوافق
100	ثانياً: المنافسة.
101	ثالثاً: القياس.
102	رابعاً: التعاطف
105	2- خصائص ابستيمي العصر الكلاسيكي
110	1. القواعد العامة
113	2. التاريخ الطبيعي
116	3. المبادلة (تحليل الثروات)
118	3- خصائص العصر الحديث (عصر التاريخ، الإنسان)
119	1. الاقتصاد (مقياس العمل)
121	2. تنظيم الكائنات (البيولوجيا)
124	3. فقه اللغة (اعراب الكلمات)
126	خصائص الحقبة المنطوقية الحديثة
126	أولاً :تحليلية المتناهي
127	ثانياً :التجريبي والمتعالي (الترنسندنالي)
129	ثالثاً :الكوجيطو واللامفكر
133	المبحث الثالث :المعرفة كممارسة خطابية
133	1. في خطاب الجنون
134	1.1 الجنون خلال الحقبة الوسيطة

1352.1الجنون في عصر النهضة
1373.1الجنون في العصر الكلاسيكي
1404.1الجنون في العصر الحديث
1432.في اركيولوجيا العيادة
1482.1نظرة فوكو للمستشفيات العربية

الفصل الثالث :الانعتاق من النسق والعودة إلى الذات

152المبحث الأول : من أركيولوجيا العلوم الإنسانية إلى جينياولوجيا السلطة
1521.مقاربة عامة
1641.1الخلفية الفكرية والتاريخية في بلورة مفهوم السلطة (عند ميشال فوكو)
1652.1عناصر السلطة
1712-جدلية السلطة والمعرفة
1731.2دوافع البحث في أفق السلطة - المعرفة
1752.2الامتحان
1803.2التحقيق
1814.2سلطة المعرفة
1845.2مكاسب العلاقة
1853-علاقة السلطة بمظاهر الإكراه العقابي والرقابي (مؤسسة الإنسان الانضباطي)
1861.3مؤسسة الإنسان الانضباطي
1882.3جسد المحكوم عليهم

188	3.3 الجذب بالحصان
190	4.3 النفى والتهجير
191	5.3 التعويض بالغرائم المالية
192	6.3 القصاص
193	7.3 من الساحة العقابية العلني إلى الظل
198	8.3 موقف فوكو من المؤسسات الانضباطية ومن الخطة التأديبية
199	4- علاقة السلطة بالجنس
201	1.4 تجربة الذات (ما قبل العصور الوسطى)
202	2.4 التقنيات السلطوية الممارسة لرقابة الجنس
202	الحمية وأنواعها
202	حمية الإنجاب
204	حمية المتع
205	الاعتراف
208	التقنين العيادي
208	مبدأ الاستتار والكمون الباطني للجنسانية
209	بواسطة طريقة التأويل (منهج التأويل)
211	مبدأ طبننة نتائج الاعتراف
212	3.4 جدلية الجنسانية والفن الشبقي
216	4.4 العلاقة السلبية (السلطة - الجنس)

218	5.4 ملخص
220	المبحث الثاني: العودة إلى الذات في شكلها الأخلاقي والجمالي عند ميشال فوكو
225	1. العودة إلى اليونان : (الاهتمام بالذات في الثقافة القديمة)
229	أولاً: العلاقة مع الطب
229	ثانياً: العلاقة مع الشيخوخة
230	ثالثاً: العلاقة مع الموت
230	النظام الأخلاقي
233	2. الانهماج بالذات بين العصور القديمة والمسيحية
236	3. الانهماج بالذات واللحظة الحديثة
239	4. ملخص لأهم الأفكار الأخلاقية عند فوكو
242	المبحث الثالث: قراءات نقدية غربية وأخرى عربية
242	1- بين الأركيولوجيا الفوكوية والتفكيكية الدريدية
244	2- بين الأركيولوجيا الفوكوية والوجودية السارترية
247	3- موقف مايكل ديفران M. Dufrenne e من بنيوية ميشال فوكو
248	4- نقد روجيه غارودي " البنيوية فلسفة موت الإنسان "
251	5- حضور المنهج الفوكوي في متن إدوارد سعيد:
254	6- بين بنية العقل الغربي عند ميشال فوكو والعقل العربي عند محمد عابد الجابري:
257	7- محمد أركون والقطيعة الإبيستمولوجية:
265	مقاربة ختامية

275 رحلة فيلسوف
280 قائمة المصادر والمراجع
290 قائمة المصطلحات
293 فهرس الموضوعات
301 ملخص باللسان (العربية، الفرنسية، الإنجليزية)

مقولة موت الإنسان في الفكر النيوي المعاصر من النسق

إلى ما بعد المنهج ميشال فوكو - نموذجًا

الملخص:

ذاب الفرد في المجتمع وأوشك على نهايته، أصبح الإنسان يعيش في عالم الزيف واللامألوف، وقع في فخّ الافتتان بذاته والإفراط في إنسانيته، ليأتي ميشال فوكو حاملاً لواء النقد والتعويض، كان حلمه فكّ شفرات الغموض والهامش، مثلت المستشفيات والتكنات والسجون مساحة بحثه الحفرية، عاصر ميشال فوكو المدرسة النيوية وولع بمسلّماته، هذا ما دفعه إلى قراءة بنية العقل الغربي، إلاّ أنّه سرعان ما قام بهجرانها، ليهتمّ بالسلطة وحيثياتها وضرورة العودة إلى الذات والإنهام بها، إن ميشال فوكو فيلسوف متعدّد الأوجه والأقنعة، لا يمكننا معه أن نستقرّ على مناخ فلسفي واحد، إنّها النّقافة الجديدة.

الكلمات المفتاحية:

الذات، السلطة، البنية، اللامألوف، التقويض، الحفر.

**Le dicton de la mort de l'homme dans la pensée structurale
contemporaine, du système à l'au-delà de la méthode – Michel Foucault
comme modèle**

Résumé :

L'individu s'est fondu dans la société et est sur le point de disparaître. L'homme est devenu vivant dans un monde de mensonge et d'inconnu. Il est tombé dans le piège de l'auto-fascination et de l'excès d'humanité. Puis Michel Foucault en est venu à porter le drapeau de la critique et de la sape. Son rêve était de décrypter les codes de l'ambiguïté et de la marginalité. Hôpitaux, casernes et prisons sont le domaine de ses recherches de fouilles. Michel Foucault était contemporain de l'école structurale et était friand de ses postulats. C'est ce qui l'a poussé à lire la structure de l'esprit occidental, mais il l'a vite abandonnée, pour s'intéresser au pouvoir et à ses implications et à la nécessité de revenir à soi et à s'en préoccuper. Michel Foucault est un philosophe aux multiples facettes et Masques, on ne peut se contenter avec lui d'un seul climat philosophique, c'est la nouvelle culture.

Les mots clés :

Soi / pouvoir / structure / inconnu / saper / creuser.

The saying of the death of man in contemporary structural thought, from the system to beyond the method – Michel Foucault as a model

Abstract :

The individual has melted into society and is about to end. Man has become living in a world of falsehood and unfamiliarity. He has fallen into the trap of self-fascination and excessive humanity. Then Michel Foucault came to bear the banner of criticism and undermining. His dream was to decipher the codes of ambiguity and marginality. Hospitals, barracks and Prisons are the area of his excavation research. Michel Foucault was contemporary with the structural school and was fond of its postulates. This is what prompted him to read the structure of the Western mind, but he quickly abandoned it, to be interested in power and its implications and the necessity of returning to the self and preoccupation with it. Michel Foucault is a multifaceted philosopher and Masks, we cannot settle with him on one philosophical climate, it is the new culture.

Key words :

Self / power / structure / unfamiliar / undermining / digging.